جوانبُ مَنسيَّةٌ من الحَضارةِ الأندلُسيَّة

جوانبُ مَنسيَّةٌ من الحَضارةِ الأندلُسيَّة

د. صلاح جرّار



تَقديم

بشّار عوّاد معروف

فقد أهدى إليَّ صديقي الصَّدوق الشَّفوق العلَّامة الباحث الأديب الأريب معالي الدُّكتور صلاح جرّار من نتاج خاطره مُسوَّدةَ بحثه الرَّائق الرَّائع الماتع «جوانبُ مَنسيَّةٍ من الحضارة الأندلُسيَّة» المُتضمِّن جوانبَ مَنسيَّةً مَطويَّةً من حضارةِ العَربِ في الفردوسِ المفقودِ من نحو مُجتمعِ المَعرفةِ، والمحافظة على البيئة، والسّياسة الاقتصاديّة المُتقدِّمة، واستعمال العربات، ورياضة مصارعة الثِّيران، وخيال الظِّلِّ، وقُبَّة عبّاس بن فرناس الفلكيَّة، والرَّقص على الحبال، والزُّرزور النَّاطق، واستخدام البارود والمدافع، والحركة العلميَّة في قُرطبة وأثرها في حوار الثَّقافات، وشَخصيَّة المرأة الأندلُسيَّة من خلال شِعرِها في السِّياق الحضاري، وختمها بدراسةٍ ماتعةٍ نافعةٍ عن كريمةَ المروزيَّة راوية «صحيح البُخاري» عن مُحَمَّد بن مَكّي الكُشمِيهني، عن الفربري، عنه، والتي حمل عنها كثيرٌ من علماء الأندلُس والمغرب.

والكتاب بجُملته عبرةٌ لمن اعتبر وفكرةٌ لمن تَفكَّر، يُذكِّر النَّابتة بالمجد المؤثَّل الذي كان عليه الأجداد، ويَدفعُ به وَغَل الشُّعوبيات ومتاهات العولمة، ويوقِظُ الرَّاقدينَ الغافلينَ عن مآثر قومِهم، ويُنبِّهُ ذاهلَهم، فيكشف لهم عن غُرَّة الحقيقة الخافية عليهم رغبةً منه في اصطفائهم إلى الاعتزاز بتلك المآثر والمفاخر والمكارم التي يُغْبَط بها ويُفتَخر بحيازتها.

إنّه كتابٌ يَسُدُّ ثَلمةً ويكشف غُمَّةً في الدِّراسات الأندلُسيَّة، ظهرعلاؤه وشُهِر

سـناؤه، كُشِـفت بـه حقائـق غائبـةٌ في أجمـل هيئاتهـا ووضحـت لنـا جليَّـة المعـاني في دقائقِها، فضـلًا عـمّا وجدنـاهُ مـن العُذوبـة في العـرض، والتمسـناه مـن الفصاحـة والالتزام بالبلاغـة والتَّرسُّـل، وقوانـين البحـث العلمـي الرَّصـين القائـم على الخـبرة العميقة الشَّـاملة.

والحَـقُّ أنّنـا مـا وجدنـا في كُتـب الأقـران أروقَ بهـاءً وأبعـدَ أثـرًا مـن هـذا البحـث الـذي يزيـن بـه العقـل بِمـا حَـوَاه مـن أفانـين الأبحـاث والآداب والآثـار التـي ضـاعَ عَبَقُهـا، فاسـتحصفت بـه وثائـق عُـرى الدِّراسـات الحضاريّـة.

وقـد عرفـتُ صاحـب هـذه الأطروحـات عـن قُـربٍ، وبلوتـه فعرفـتُ مذهبَـهُ وخـبرتُ شـيمَهُ، فقـد جَمَـعَ أشـتات الفضـل واحتـاز في أبحاثـه مـكارم النَّـثر المُبْـدِع، فـكانَ فـارس هـذا الميـدان لفظًـا ومعنـىً، وصَـدْر هـذا الشَّـأن حقًّـا، شُـغِلت بـه الألسُـنُ لمـا تميَّـز بـه مـن ملازمـة الجِـدّ في كلِّ شـأنه وحُسْـن تأديتـه، وتذليلـه كلَّ عسـيرٍ، وإخلاصـه لمـا يتقلَّـده مـن المهـامّ الخطـيرة، وهـو المُتمتِّـع أبـدًا بالخِـلال الحميـدة الفاضلـة؛ رجاحـة عقـلٍ، ورجولـة حَقَّـةٍ، ومعرفـةٍ دقيقـةٍ، تَزينُهـا أخـلاقٌ عربيَّـةٌ أصيلـةٌ ورأيٌ نَصِيحٌ وقريحـةٌ جيّـدةٌ، وفضيلـة الوفـاء للنَّـاس عامَّـةً ولعملـه ووظيفتـه وأصحابـه خاصَّـةً.

ومؤلّـف هـذه الأبحـاث الماتعـة الدّكتـور صـلاح جـرّار أثـيريٌّ بـين أهـل الفضـل والعلـم والنَّباهـة، وقـد كان أقـلُّ حقوقـه أنْ أُهـدي إليـه الشُّـكر غَضَّـاً، ولـو شـئتُ لأرقمـتُ القراطيـس بمحامـده وفضائلـه، وأترنَّـم بـه مـن تقريضـه، فـإنّي أعلـمُ علـمَ اليقـين أنّـه إذا حُـرّك بالكتابـة تَفجَّـر منـه بحـرٌ لا تُكـدّره الـدِّلاءُ.

ومـن كان هـذا حالـه حـقَّ التَّنويـه بفضلـه وعملـه، وهـو أقـلُّ مـا يُكافـأ بـه عـلى إحسـانه، وفضيلـة الوفـاء التـي امتـاز بهـا في زمـنٍ قَـلَّ الوفـاء فيـه وكَـثرَ الجَّفـاء.

وآخرُ دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين

عمان في: ذي القعدة 1439هـ

آب 2018م

مقدّمة

جَذَبَتْ الحضارة الأندلُسيَّة أنظار كثيرٍ من الباحثين في الشَّرق والغرب، فخاضوا فيها دراسةً وتحقيقاً وتحليلاً وتمحيصاً، ورأى فيها الباحثون العرب والمسلمون امتداداً لحضارة أُمّتهم في المشرق، بينما رأى فيها الدَّارسون الغربيّون إنجازاً حضاريّاً أوروبيّاً ذا صبغةٍ عربيّةٍ إسلاميّةٍ أو ذا صبغةٍ عربيّةٍ وأوروبيّةٍ في وقتٍ واحدٍ. ولذلك نظر إليها الباحثون من العرب والمسلمين والأوروبّيين والإسبان خاصّةً نظرةَ إعجابٍ حتّى أصابتهم حالةٌ من الهَوَسِ أو النَّهمِ في دراسة هذا التُّراث الحضاريّ.

وقد تناول الباحثون جوانب هذه الحضارة في دراساتٍ خاصَّةٍ، كما تناولوها في دراساتٍ عامَّةٍ عن الحضارة العربيّة والإسلاميّة، ويستطيع الباحث أن يرصد مئات البحوث والدِّراسات بالعربيّة وبمختلف اللُّغات العالميّة عن هذه الحضارة ممّا يتعذَّر إيراده في هذه المُقدِّمة، ولكن يمكن إيراد ما اشتهر من هذه الأعمال، مثل كتاب «الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس» لمجموعةٍ من الباحثين العرب والأجانب، الذي قامت بتحريره الدكتورة سلمى الخضراء الجيّوسي، ونُشِرَ في مركز دراسات الوحدة العربيّة في بيروت سنة 1998. ويتناول هذا الكتاب مختلف جوانب الحضارة العربيّة الإسلاميّة التي شهدتها الأندلس من علومٍ وتكنولوجيا وعمارةٍ واقتصادٍ وفلسفةٍ وفنٍّ وفلاحةٍ وغيرها. ويقع الكتاب في جُزئين كبيرين في (1559) صفحةً.

ومنها كتاب: الحضارة العربيّة في إسبانيا، تأليف إيفاريستي ليفي بروفنسال (Lévi- Provençal, Evariste) وقد نقله إلى العربيّة الدُّكتور الطَّاهر أحمد مكّي، دار

المعارف، القاهرة، 1979. ومنها: حضارة العرب في الأندلس لعبد الرَّحمن البرقوقي، المكتبة التجاريّة، مصر، 1923.

وكتاب: الحضارة الإسلاميّة في المغرب والأندلس للدكتور حسن علي حسن، مكتبة الخانجي، مصر، 1980. وكتاب: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس للسيّد عبد العزيز سالم، المنشور في مؤسّسة شباب الجامعة للطِّباعة والنشر، الإسكندرية، 1985.

وقد تعدّدتْ اتّجاهات الباحثين في دراسة الحضارة الأندلسيّة، فمنهم من بَسَطَ القول في مجالات تلك الحضارة وعناصرها المُختلِفة، ومنهم من ذهب إلى البحث في علاقة الحضارة الأندلُسيّة بالحضارات الأخرى مثل عبد الرَّحمن بدوي في كتابه: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي (المكتبة التجاريّة، مصر، 1923)، وكتاب ليفي بروفنسال: الشَّرقُ الإسلاميُّ والحضارة العربيّة الأندلُسيّة (منشورات معهد الجنرال فرانكو للأبحاث العربيّة الإسبانية، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1951)، وكتاب عبدالله بن العبّاس الجرّاري: تَقدُّمُ العرب في العلوم والصِّناعات وأستاذيّتهم لأوروبا (دار الفكر العربي، 1961)، وكتاب أمين الطّيبي: الإسلام في الأندلُس وصقلّية وأثره في الحضارة والنَّهضة الأوروبيّة (منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 1986)، وكتاب عدنان خلف سرهيد الدرّاجي: التأثيرُ الحضاريُّ المُتَبَادل بين الأندلس الإسلاميّة وإسبانيا النَّصرانيّة خلال عصر سَلطنة غرناطة (دار حميثرا للنَّشر والتَّرجمة، بغداد، 2018)، وكتاب عبّاس الجرّاري: أثر الأندلُس على أوروبا في مجال النَّغم والإيقاع (دار المعارف، الرباط، 1982)، وكتاب: عبّاس محمود العقاد: أثرُ العربِ في الحضارة الأوروبيّة (وزارة الثقافة، عمّان، 2017)، وكتاب الدُّكتور محمد أبو حسّان: دورُ الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تكوين الحضارة الغربيّة (منشورات وزارة الثَّقافة، عمّان، 2009)، وكتابي: زمانُ الوصل دراساتٌ في التَّفاعل الحضاريّ والثَّقافيّ في الأندلُس (المؤسسة العربيّة للدّراسات والنَّشر، بيروت، 2004)، وغير ذلك كثيرٌ.

ومـن اتّجاهـات الباحثـين في دراسـة الحضـارة الأندلُسـيّة البحـث في أثـر تلـك الحضـارة عـلى الأدب الأندلُـسي، ومـمّا يُمثِّـل هـذا الاتّجـاه كتـاب الدُّكتـورة فريـال العـلي: تجلّيـاتُ الحضـارة في الشِّـعر الأندلُـسي/ عـصر بنـي أُميّـة (دار ورد للنَّـشر والتَّوزيـع، عـمّان، 2009)، وكتـاب سـعد بـن مـاشي العنـزي: التجلّيـات الحضاريّـة في الشِّـعر العـربي: عـصر بنـي الأحمـر (رسـالة دكتـوراه في الجامعـة الأردنيّـة، عـمّان، 2012، إشراف الدكتـور حمـدي منصـور)، وغـير ذلـك مـن الدِّراسـات.

وقـد أطـال الباحثـون في الحضـارة العربيّـة عمومـاً الوقـوف عـلى مُنجـزات الحضـارة الأندلُسـيَّة، ومـن هـؤلاء غوسـتاف لوبـون في كتابـه: حضـارةُ العـربِ الـذي ألّفـه سـنة 1884 بالفرنسـيَّة ونقلـه عـادل زعيـتر إلى العربيَّـة، ونُـشِرَ الكتـاب في طبعـاتٍ عديـدةٍ. ومنهـم: جـاك س. رسـيلر مؤلِّـف كتـاب: الحضـارة العربيَّـة (ترجمـة غنيـم عبـدون، الـدار المصريَّـة للتَّأليـف والتَّرجمـة)، ومنهـم الألمانيَّـة زيغريـد هونكـه مؤلِّفـة كتـاب: شـمس العـرب تَسـطعُ عـلى الغـرب: أثـر الحضـارة العربيَّـة في أوروبـا، الـذي نقلـه عـن الألمانيـة فـاروق بيضـون وكـمال دسـوقي ونُـشِرَ في طبعـاتٍ عديـدةٍ.

إنّ غالبيّـة الدِّراسـات التـي تناولـت الحضـارة الأندلُسـيَّة قـد وقفـت عـلى الجوانـب المشـهورة والبـارزة في تلـك الحضـارة في الطـبّ والهندسـة والفلـك والفلسـفة والفلاحـة والأدب وسـواها، واسـتطاعت أن تكشـف عـن رُقـيٍّ تلـك الحضـارة وعـن مصـادر تأثُّرهـا ومجـالات تأثيرهـا.

أمّـا هـذا الكتـاب فيهـدف إلى تسـليط الضَّـوء عـلى جوانـب خَفيَّـةٍ أو مَنسـيَّةٍ مـن الحضـارة الأندلُسـيَّة لم يَتعـرَّض لهـا الباحثـون إلاّعَرَضَـاً أو لم يلتفتـوا إليهـا، وهـي مـمّا ورد مُتَفرِّقـاً في المصـادر التاريخيَّـة والأدبيَّـة، وكان لـه صـدىً باهـتٌ أو واضـحٌ أحيانـاً في مـا وصـل إلينـا مـن النُّصـوص الأدبيَّـة مـن شِـعرٍ ونَـثرٍ وموشَّـحاتٍ. وهـي جوانـب يمكـن أن تُغنـي صـورة الحضـارة الأندلُسـيَّة وتزيدهـا جـلاءً، كـما أنّهـا تُعـزّز وظيفـةً مُهمَّـةً مـن وظائـف الأدب، وهـي وظيفـة تصويـر حيـاة المُجتمعـات والشُّـعوب عـن قصـدٍ أحيانـاً وعـن غـير قصـدٍ في أحيـانٍ أخـرى.

وقد وقفت خلال تطوافي في مصادر التُّراث الأندلُسيّ الأدبيَّة والتاريخيَّة والفقهيَّة وسواها على كثيرٍ من الأخبار المُتفرِّقة والإشارات المُتناثرة التي تَميط اللّثام في حال جمع المتشابه منها عن جوانب مجهولةٍ أو مطويَّةٍ من الحضارة الأندلُسيَّة، ممّا دفعني إلى تتبُّع هذه الأخبار والإشارات ورصد هذه الجوانب الحضاريَّة في هذا الكتاب الذي يتناول مباحث عدَّة يَختصُّ كُلُّ واحدٍ منها بجانبٍ خَفيٍّ أو مَنسيٍّ من جوانب الحضارة الأندلُسيَّة، وهذه المباحث هي: مجتمع المعرفة، والمحافظة على البيئة، وسياسةٌ اقتصاديَّةٌ مُتقدّمةٌ، واستعمال العربات، الأندلسيون ومصارعة الثيران، وخيال الظِّلِّ في الأندلُس، وقُبَّة عبّاس بن فرناس الفلكيَّةُ، والرَّقص على الحبال في الأندلُس، والزُّرزور النَّاطق، واستخدام المدافع والبارود في الأندلُس، والحركة العلميَّة في قرطبة في عصر الخلافة الأُمويَّة ودورها في حوار الثَّقافات، وشخصيَّة المرأة الأندلُسيَّة من خلال شِعرها في السِّياق الحضاري، وكريمة المروزيَّة شيخة علماء الأندلُس في مَكَّة في القرن الخامس الهجري. وقد تقع بعض هذه الموضوعات بين المَرئيِّ والمَخفيِّ، بينما يقع بعضُها الآخر في دائرة المَخفيِّ أو المَنسيِّ والمجهول.

وأودُّ أن أُنوِّه ها هنا بكتاب العلّامة عبدالله بن العبّاس الجرّاري «تَقدُّم العرب في العلوم والصِّناعات وأُستاذتيّهم لأوروبا»[1]، الذي لفت فيه الأنظار إلى كثيرٍ من الجوانب غير المعروفة في حضارة الأندلُسيّين.

إنَّ للحضارة تعريفاتٍ كثيرةٍ ليس من غايات هذه الدِّراسة الخوض فيها، لكنَّ التَّعريف الذي تَنبَني عليه هذه الدِّراسة هو ما كان مُشتَرَكاً بين سائر التَّعريفات، وهو كلُّ إنجازٍ بشريّ، فرديٍّ أو جمعيٍّ، ماديٍّ أو معنويٍّ، عمليٍّ أو نظريٍّ فكريّ، يُشكِّل إضافةً للمُنجَز البَشريّ السَّابق أو تطويراً له، ويؤدّي إلى خدمة الفرد والمجتمع وبَني الإنسان، ويكون له انتشاره المكاني أو الزَّماني أو كلاهما. آملاً أن تَضَعَ هذه الدِّراسة بين يَديّ القارئ الكريم مادّةً علميّةً جديدةً وحقائقَ معرفيّةً مفيدةً، والله تعالى وليُّ التَّوفيق.

صورٌ من مُجتَمعِ المَعرفة

لا يُمكن لأيِّ حضارةٍ رفيعةٍ ومرموقةٍ أن تَنشأ في مَعزلٍ عن العِلمِ، فكلُّ واحدٍ منهما ظهيرٌ للآخر ودليلٌ على وجوده ومُعينٌ على تطوّره ومُقترنٌ به، وكلّما نَهَضَ أحدهما نهضَ معه الآخر، وكلّما ضعفَ أحدهما ضعفَ معه الآخر، ولذلك فقد واكبت الحضارةَ الأندلسيّة نَهضةٌ علميّةٌ متميّزةٌ تمثّلتْ في إنشاء المكتبات العامَّة مثل مكتبة الخليفة الحكم المُستنصِر في الزَّهراء التي أناف عدد مجلّداتها على أربعمائة ألف مجلدةٍ، وإنشاء المدارس والجامعات ومعاهد التّعليم المختلفة، وغزارة التَّأليف وحركة التَّرجمة، والرِّحلة من أجل العلم، وغير ذلك ممّا هو معلومٌ.

وقد أوردتْ مصادر التُّراث الأندلُسي أخباراً كثيرةً تَدلُّ على ما بلغته النَّهضة التَّعليميَّة من تَقدُّمٍ، وتَدلُّ على أنَّ المجتمع الأندلُسي كان مجتمع علمٍ ومعرفةٍ، وكان للعلم فيه أولويَّةٌ مُتقدِّمةٌ لدى العامَّة والخاصَّة من أبناء الأندلُس، فكان من أفضل ما يتهادونه الكتب والأقلام، وكانت المكتبات الخاصَّة من متمِّمات الرَّفاهيَّة في منازل الأندلُسيّين، فضلاً عن شَدِّ الرِّحال إلى كلِّ مكانٍ من أجل العلم، وبذل الغالي والنَّفيس لشراء الكتب واقتنائها، حتى بلغ بعضهم الصّين بحثاً عن العلم والمعرفة عملاً بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «اطلبوا العلم ولو في الصّين». فقد كان المُحدِّث سعد الخير بن مُحَمَّد بن سعد أبو الحسن الأنصاري (ت 541هـ) قد رحل إلى أن دخل الصّين، ولذا كان يكتب البلنسي الصّينيّ[2].

وقد ورد في كتاب الصِّلة لابن بشكوال[3] أنّه «كان يحضر مجلس سليمان بن حَرْبٍ رحمه الله ثلاثة آلاف رجلٍ للسَّماع منه. وكان له مستملٍ كان صوته أخفض من الرَّعد. فقيل له: ارفع صوتك لأنّا لا نسمع». وورد فيه أيضاً: «قال القاضي أبو عليّ؛ وغير الباجي يقول: إنَّ سليمان بن حَرْبٍ كان يحضره أربعون ألف رجلٍ»[4]. وفي ترجمته لأبي عمر أحمد بن سعيد

بـن كوثـر الأنصـاري، مـن أهـل طليطلـة (تـوفي مسـموماً بشـنترين في أثنـاء اعتقالـه سـنة 403هــ) يسـوق ابـن بشـكوال في الصِّلـة عـن أحـد العلـماء قولـه: «كنـتُ آتي إليـه مـن قلعـة ربـاحٍ وغـيري مـن المـشرق، وكنّـا نيّفـاً عـلى أربعـين تلميـذاً، فكنّـا ندخـل في داره في شـهر نونـبر ودجنـبر وينـيّر في مجلـسٍ فُـرشَ بُبُسـط الصُّـوف مبطّنـاتٍ، والحيطـان باللبـود مـن كلِّ حـوْلٍ، ووسـائد الصّـوف، وفي وسـطه كانـونٌ في طـول قامـة الإنسـان مملـوءٌ فحـماً يأخـذ دفئـه كلُّ مـن في المجلـس، فـإذا فـرغ الحديـث أمسـكهم جميعـاً وقُدّمـتْ الموائـد عليهـا ثرائـد بلحـوم الخرفـان بالزَّيـت العـذْب، وأيّـام ثرائـد اللـبّن بالسّـمن أو الزّبـد، فنـأكل تلـك الثَّرائـد حتّـى نشـبع منهـا، ويُقـدّمُ بعـد ذلـك لونـاً واحـداً ونحـن قـد روينـا مـن ذلـك الطعـام. فكنّـا ننطلـق قـرب الظُّهـر مـع قـصر النَّهـار ولا نتعـشّى حتـى نُصبِـح إلى ذلـك الطَّعـام الثلاثـة الأشـهر، فـكان ذلـك منـه كرمـاً وجـوداً وفخـراً لم يسـبقه أحـدٌ مـن فقهـاء طليطلـة إلى تلـك المكرمـة»[5]. ويظهـر أنّـه كان للتَّعليـم الخـاصّ سـوقٌ رائجـةٌ في الأندلُـس، ففـي حديثـه عـن أبي عـليّ الشّـلوبين عمـر بـن مُحَمَّـد بـن عمـر بـن عبدالله الأزدي الإشـبيلي (ت 645هــ) يقـول ابـن عبـد الملـك المراكـشي في كتابـه «الذَّيـل والتَّكملـة»: «وكان ذا معرفـةٍ بالقـراءات، حاملاً لـلآداب واللغـات، آخـذاً بطـرفٍ صالـحٍ مـن روايـة الحديـث، مُتقدّمـاً في العربيَّـة، كبـير أسـاتيذها بإشـبيلية، مـبرزاً في تحصيلهـا، مُسـتبحِراً في معرفتهـا، متحقِّقـاً بهـا، حسـن الإلقـاء لهـا والتَّعبـير عـن أغراضهـا، ولـه فيهـا مصنّفـاتٌ نافعـةٌ وتنبيهـاتٌ نبيلـةٌ وشروحٌ واسـتدراكاتٌ وتكميـلاتٌ، تَصـدَّرَ لتدريسـها بعـد الثَّمانـين وخمسـمائةٍ، مُـدَّةً طويلـةً نحـو سـتّين عامـاً، وإليـه كانـت الرِّحلـة فيهـا، واسـتفاد بسـبب ذلـك جاهـاً عريضـاً ومـالاً عظيـماً وذِكراً شـائعاً. وذكـر لي غـيرُ واحـدٍ ممّـن لقيتـه أنّـه كان يبلـغُ أحيانـاً مُسـتفاده مـن الطَّلبـة أربعـة آلاف درهـمٍ في الشَّـهر الواحـد. ثـمّ تخلّـى عـن ذلـك في نحـو الأربعـين وسـتمائةٍ بالكَبْرَة التـي لحقتـه واشـتغال أهـل بلـده بمـا كان قـد دهمهـم مـن اشـتعال نـار الفتنـة التـي آلـت إلى أخـذ الـرّوم بلـده»[6].

ويكفـي الأندلُـس فخـراً شـهرةَ مدينـة شـاطبة بصناعـة الـورق؛ يقـول الإدريـسي في نزهـة المشـتاق عـن شـاطبة: «ويعمـل بهـا مـن الكاغـد مـا لا يوجـد لـه نظـيرٌ بمعمـور الأرْض ويعـمُّ المشـارق والمغـارب»[7]. ويقـول صاحـب نفـح الطِّيـب: «ومـن أعـمال بلنسـية شـاطبة ويُـضْرَب بحسـنها المثـلُ، ويُعمـل بهـا الـورقُ الـذي لا نظـيرَ لـه»[8].

المحافظةُ على البيئة

كانت النَّظافة من أهمّ مظاهر الحضارة الأندلُسيَّة، فقد ذكر المقّري في كتابه (نفح الطِّيب) أنّه كان بالمريّة وحدها نحو الألف من الفنادق والحمَّامات[9]، وقال أيضاً: «وأهل الأندلُس أشدُّ خلْقِ الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوتُه يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسلُ به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالةٍ تنبو العين عنها»[10].

ومتى كانت الأمّة تُعنى بالنَّظافة إلى هذا القَدْر الذي وصفه المقّري فمن الطبيعي أن يكون لأفرادها عنايةٌ بالغةٌ بمحيطهم وبالبيئة التي يعيش فيها كلُّ واحدٍ منهم.

وقد تجلّى هذا الاهتمام واضحاً في كتب الحسبة الأندلسيّة، والحسبة عند الأندلسيّين -كما يقول المقّري- «موضوعةٌ في أهل العلم والفِطن، وكأنَّ صاحبها قاضٍ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق، وأعوانُه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان، لأنَّ الخبز عندهم معلوم الأوزان للرّبع من الدِّرهم رغيفٌ على وزنٍ معلوم، وكذلك للثُّمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاعُ الصبيَّ الصغيرَ أو الجارية الرّعناء فيستويان في ما يأتيانه به من السّوق مع الحاذق في معرفة الأوزان، وكذلك اللّحم تكون عليه ورقةٌ بسعره، ولايجسر الجزَّار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدَّ له المحتسبُ في الورقة... ولهم في أوضاع الاحتساب قوانينُ يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرَّع إلى ما يطول ذكره»[11].

ولم تقتصر قوانينُ الحسبة الأندلسيّة على الأسعار وقضايا الغشِّ في البيع، بل أولت اهتماماً كبيراً بقضايا البيئة وسلامة المطعم والمشرب والملبس للإنسان الأندلسيّ وما يشمّه أو يراه أو يسمعه وسائر حقوقه الإنسانية، ولم تخلُ هذه القوانين حتّى من حقوق الحيوان والرِّفق به.

وممّا شملته هذه القوانين نظافة الأماكن العامَّة، وفي ذلك يقول ابن عبدون في رسالته في القضاء والحسبة[12]: «وأمّا الطُّرُق فيجبُ أن يؤمر أهل الأرباضِ بحمايتها عن طرح الزّبول والأقذار والكُناسة فيها، وإصلاح المواضع المتطامنة التي تمسك الماء والطّين، ويُصلِحُ كلُّ أحدٍ فِناءَ داره ويحميه».

وينبّه ابن عبد الرؤوف في رسالته «في آداب الحسبة والمحتسب»[13] الذين يحفرون حُفَراً أو أنفاقاً ضرورة إبعاد الأتربة التي يحفرونها إلى خارج البلد، فيقول: «ويُكلَّف من فتح سَرَباً وأخرج ما فيه أن ينقله إلى خارج البلد، ويسوّي موضع السَّرَب ويعدّل الطريق وينظّفه من الأذى لئلّا يضرّ بذلك المارّ عليها».

وممّا نبّهتْ عليه كتب الحسبة عدم ترك الموادّ الغذائية مكشوفةً، يقول ابن عبد الرَّؤوف عن الفرّانين: «ويُنْهَون عن كشف الخبز قبل إدخاله في الفرن، لئلا يسقط عليه ما يُفسدُه، ويؤمر بحفظه وتعهُّده بعد إدخاله في الفرن»[14]. وأكّدت كتب الحسبة ضرورة مراعاة نظافة الماء المستعمل للشّرب والغسل والطَّهو، وأن تكون صهاريج الحمّامات مغطّاةً، وعدم إلقاء الزّبول والأقذار على ضفَّة النَّهر. كما نبَّهت كتب الحسبة إلى ضرورة المحافظة على نظافة الأدوات المستخدمة في الأكل والشّرب والطَّهو والخبز وسائر الاستخدامات البشريّة اليوميّة.

ويرى ابن عبد الرؤوف في رسالته في الحسبة ضرورة ضمان سلامة الأدوات التي يستخدمها الباعة والفرّانون والخبّازون والجبّانون والجزّارون والقلّاؤون، فيقول مثلاً عن الفرّانين: «ويؤمرون بتنظيف البالة التي يفرتون بها وجردها وغسلها وكنس الفرن من الرَّماد والتُّراب وحرق الأحطاب الجبلية كلّها»[15]. ويقول: «ويُمنَعُ

الفرّانـون عـن حـرق مـا يُحتَطَـبُ مـن الأزقّـة والمواضـع القـذرة التـي لا تؤمـن نجاسـتُها وإضرارهـا بالمطبـوخ»[16].

ودعـت قوانـين الحسـبة إلى المباعـدة بـين المهـن والسِّـلع المتنافـرة، وإلى ضرورة إبعـاد بعـض المهـن مثـل صناعـة الجـير والفحـم خـارج التَّجمعـات السـكنية، حفاظـاً عـلى البيئـة وعـلى مصالـح النّـاس وصحّتهـم[17].

ويـرى ابـن عبـد الـرؤوف في رسـالته في الحسـبة أنَّ عـلى المُحتَسِـب أن يتَّخـذ لبائعـي الحـوت (السَّـمك) مكانـاً يكـون فيـه سـوقُهم بمعـزلٍ عـن الطَّريـق، لمـا تعـوده مـن الرَّائحـة[18]. وفي هـذا السّـياق فإنّـه يـرى منـع أيّ حـوّاتٍ أو جـزّار أو مَـنْ تُسْـتَقْذَرُ حرفتـه مـن بيـع الخبـز، ولا يجـوز أن تكـون المخابـز مجـاورةً لأهـل الحـرف القـذرة كبيّـاع السرديـن والبياطـرة والحجّامـين ومـا أشـبه ذلـك[19].

وتَمنـعُ قوانـينُ الحسـبة الأندلسـيّة كلَّ مـا يتسـبَّب بإلحـاق الأذى بالنَّـاس مـن الأغـبرة والأدخنـة، ولذلـك تدعـو إلى إبعـاد أفـران الصبّاغـين عـن الطـرق حتـى لا تـؤذي المُجتازيـن بالدخـان[20].

وتَنبّهـتْ كتـب الحسـبة إلى صـورٍ أخـرى مـن التَّلـوث غـير تلـوّث الهـواء والمـاء والطعـام، مثـل التّلـوّث الصَّـوتي والضَّـوئي، وتحدَّثـت عـن ضررِ نَصْـب مطاحـن في بيـتٍ عـلى الشَّـارع يتـأذى الجـار مـن دويّهـا، كـما تحدَّثـت عـمّا يمنـع الضَّـوء عـن النَّـاس، وقـد منـع بعضهـا ذلـك[21].

ومـن المسـائل البيئيّـة التـي تنبَّهـت لهـا قوانـين الحسـبة عـزل الأدوات التـي يسـتخدمها المـرضى عـن الأدوات التـي يسـتخدمها الأصحّـاء، حتّـى إنّهـا منعـت مـن كان مجذومـاً أو مبروصـاً وسـائر المـرضى المسـتقذرين مـن بيـع جميـع الأطعمـة واللّحـوم[22].

ولا يفوتنـا ونحـن نتحـدث عـن قوانـين الحسـبة أن نشـير إلى أنّ هـذه القوانـين لم تغفـل حقـوق الحيوانـات، فلـم تكتـف بالدَّعـوة إلى عـدم تعذيـب الحيـوان عنـد ذبحـه ولا حتّـى تقريعـه[23]، بـل وجدناهـا تدعـو إلى عـدم إهانـة الدّابّـة التـي يُـراد بيعهـا، يقـول

ابـن عبـد الـرَّؤوف: «ويؤمـر النخّاسـون ألاّ يُمـرّوا دابّـةً أكـثر مـن مـرَّةٍ أو مرّتـين للمشـتري ولا يعذّبـوا البهائـم»[24]. وفـوق ذلـك يقـول ابـن عبـد الـرؤوف عـن الجزّاريـن وهـم يذبحـون البهائـم: «ويؤمـرون أن لا يذبحـوا شـاةً وأخـرى تنظـر إليهـا»[25].

ومثلـما تُعَـدُّ نظافـة السَّـواحل في هـذه الأيـام مـن أبـرز مظاهـر الاهتـمام بالبيئـة، فقـد كان الأندلسـيّون كذلـك يولـون اهتمامـاً بنظافـة سـواحلهم، وقـد وصـف أبـو الوليـد الشّـقندي مدينـة المريّـة بقولـه: «وسـاحلها أنظـفُ السَّـواحل وأشرحهـا وأملحهـا منظـراً»[26].

هـذه بعـض صـور المحافظـة عـلى البيئـة عنـد الأندلسـيّين، وهـي لا تختلـف كثـيراً عـن قوانـين المحافظـة عـلى البيئـة في هـذه الأيّـام، بـل ربّمـا كان تطبيـق تلـك القوانين والمحاسـبة عـلى مخالفتهـا أكـثر تشـدّداً مـمّا عليـه الحـال في بعـض البلـدان في هـذه الأيّـام، وكان الحفـاظ عـلى البيئـة والتشـدُّد فيـه علامـةً مـن علامـات التقـدُّم الحضـاريّ في الأندلـس.

سياسةٌ اقتصاديَّةٌ مُتقدِّمة

في الحديث عن أبي الحزم جَهْور بن مُحَمَّدٍ بن جهور بن عبيد الله (ت 435هـ) الذي اختاره أهل قرطبة زعيماً لهم بعد سقوط الخلافة الأمويّة سنة 422هـ يقول ابن حيّان القرطبي: «فاخترع لهم لأوّل وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، فاقترن صلاحُهم به، وأجاد السّياسة، فانسدل به السّتْرُ على أهل قرطبة مدّته».

ويقول موضّحاً ذلك: «وحصّل كلّ ما يرتفع من البلد في جميع أوقاته بعد إعطاء مقاتلته فارسهم وراجلهم، وصيّر ذلك في أيدي ثقاتٍ من الخَدَمَةِ، مُشارفاً لهم بضبطه، فإنْ فَضَلَ شيءٌ تركه بأيديهم مثقّفاً مشهوداً عليه إلى أن يعنَّ وجه تصرّفه فيه، لا يلتبس لهم بشيءٍ منه ولا يدخل داره، ومتى سُئِلَ قال: «ليس له عطاءٌ ولا منْعٌ، هو للجماعة وأنا منهم»، وإذا رابه أمرٌ عظيمٌ، أو عَزَمَ على تدبيرٍ، أحضرهم وشاورهم فيسرعون إليه، فإذا علموا مراده فوّضوا إليه بأمرهم. وإذا خوطِب بكتابٍ، لا ينظر فيه إلّا أن يكون باسم الوزراء»[27].

وقد أوضح الحميدي في جذوة المقتبس بعض ملامح هذه السّياسة قائلاً عن أبي الحزم: «ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، بل دبّرها تدبيراً لم يُسْبَقُ عليه، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء مستحقٌ يُتَّفَقُ عليه، فيسلّم إليه، ورتّب البوابّين والحَشَم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيّام الدَّولة [الخلافة]، ولم يتحوّل عن داره إليها، وجَعَل ما يرتفعُ من الأموال السُّلطانية بأيدي رجالٍ رتّبهم لذلك، وهو المشرف عليه، وصيَّر أهل الأسواقِ جُنْداً وجعل أرزاقَهُمْ رؤوسَ

أمـوالٍ تكـون بأيديهـم مُحصـاةً عليهـم يأخـذون ربحَهـا فقـط، ورؤوس الأمـوالِ باقيـةٌ محفوظـةٌ يؤخـذون بهـا، ويُراعَـوْن في الوقـت بعـد الوقـت كيـف حفظُهـم لهـا، وفـرَّق السّـلاحَ عليهـم، وأمرهـم بتفرقتـه في الدَّكاكـين وفي البيـوت، حتّـى إذا دَهَـمَ أمـرٌ في ليـلٍ أو نهـارٍ، كان سـلاحُ كلِّ واحـدٍ معـه»[28].

ويُفهـم مـن هذيـن النَّصّـين في الحديـث عـن السّياسـة الاقتصاديـة لأبي الحـزم ابـن جهـور في قرطبـة، أنّهـا سياسـةٌ كانـت مبتكـرةً في ذلـك الوقـت، ولذلـك وصفـه ابـن حيّـان بأنّـه اخـترع هـذا النّـوع مـن التَّدبـير، وهـذا الـضَّرب مـن التَّدبـير الاقتصـادي هـو مـمّا اهتـدى إليـه خـبراء الاقتصـاد المتأخِّـرون، وتقـوم هـذه السّياسـة أو هـذا التَّدبـير عـلى تقسـيم واردات الدَّولـة إلى ثلاثـة أقسـامٍ: يذهـب القسـم الأوّل رواتـب للجنـود مـن الفرسـان والمشـاة، ويذهـب القسـم الثـاني عـلى صـورة دعـم للمشـاريع الاسـتثمارية للرعايـا، وأمّـا القسـم الثَّالـث فهـو مـا يزيـد عـلى القسـمين السَّـابقين ويبقـى في أيـدي ثقـاتٍ مـن الخَدَمَـة ويوثّـق ذلـك عليهـم إلى أن يعـنَّ وجـهٌ مـن وجـه إنفاقـه أو اسـتثماره.

أمّـا القسـم الـذي يذهـب في دعـم المشـاريع الاسـتثمارية للرَّعايـا، فإنّـه يتمثَّـل في اتخـاذ أهـل الأسـواق (أصحـاب الدَّكاكـين والمهـن) جنـداً تُدفَـعُ لهـم أمـوالٌ تكـون رؤوس أمـوال لمشـاريعهم ويُسـمَحُ لهـم بأخـذ الأربـاح فقـط، أمّـا رؤوس الأمـوال نفسـها فتبقـى محفوظـةً، وتقـوم الدولـة بـين الحـين والآخـر بالتَّحقـق مـن محافظـة الرَّعايـا عـلى رؤوس الأمـوال.

إنّ مثـل هـذه السّياسـة تُشـجِّع الرَّعيَّـة عـلى الجـدِّ والسَّـعي والإنتـاج، لأنَّ مقاديـر دخولهـم تعتمـد عـلى مـا يبذلونـه مـن الجهـد في أعمالهـم ومـا يحققونـه مـن إنتـاجٍ، فضـلاً عـن أنَّ هـذه السّياسـة تعفـي الدولـة مـن اسـتمرار إعالـة الرَّعيّـة دون مقابـلٍ بـل دون جهـدٍ تبذلـه تلـك الرَّعيّـة.

استعمالُ العَربات

يُعَدُّ الاتصالُ متطلَّباً أساسيّاً من متطلّبات النموّ الحضاريّ، ومثلما اقترنت الحضارة المعاصرة بثورة الاتّصالات، فإنَّ الأندلسيّين وهم يطوّرون حضارتهم قد استفادوا من إمكانيات الاتّصال التي كانت متاحةً لهم في ذلك الزَّمن، ولم يكتفوا بالسُّفن والخيل والدَّوابِّ، بل صنعوا العربات التي تَجرُّها الدَّوابُّ من خيولٍ وبغالٍ وأبقارٍ من أجل تسهيل نقل بضائعهم للأغراض العمرانيّة والعسكريّة والتّجاريّة وسائر الاستخدامات العامَّة والخاصَّة.

وكان استخدامهم للعربات كثيراً، وكانوا يخصّصون لها الطُّرق التي تسلكها بعيداً عن الطُّرق التي يسلكها المُشاة، وكانت بعض العربات تَجرُّها دابَّةٌ واحدةٌ وبعضها تَجرُّها دابّتان أو أكثر.

وقد بدأ استخدام الأندلسيّين للعربات منذ الأيّام الأولى لفتح الأندلس، واستمروا حتّى خروجهم منها، وكانوا يُطلقون عليها اسم (العَجَل) أو (الأعجال)، ويطلقون على من يقودها اسم العَجَّال. وفي وصف أبي الوليد الشّقندي لمدينة إشبيلية قال: «وأمّا جواريها ومراكبها برّاً وبحراً... فأصنافٌ أخذت من التفضيل بأوفر نصيبٍ»[29]. وهو بحديثه عن مراكب البرِّ كأنّما يشير إلى العربات.

وتذكر المصادر التاريخيّة الأندلسيّة أنّه عندما علم لذريق ملك القوط بدخول طارق بن زيادٍ سنة 92هـ إلى الأندلس، وكان في ذلك الوقت قد قصد بعض الجهات البعيدة لغزوٍ له في بعض أعدائه، فلما علم بدخول طارق «رجع عن مقصده في

سبعين ألف فارسٍ ومعه العَجَلُ تحمل الأموال والمتاع وهو على سريره بين دابّتين وعليه مظلّةٌ مُكلّلةٌ بالدُّر والياقوت والزّبرجد»[30].

ويُفهَم من هذا النصّ أنّه كان يوجد نوعان من العربات أحداهما للأشخاص والأُخرى للأمتعة. ويصف صاحب كتاب «فتح الأندلس» ما فعله لذريق بالقول: «فحشد أهل مملكته وخرج من قرطبة إلى ناحية الخضراء على سرير ملكه بين بغلتين تحملانه، وعلى لذريق تاجُه وقفازه وجميع الحلية التي كانت ملوكهم تلبسها»[31].

ويستفاد من هذا الخبر والخبر الذي قبله أنَّ القوط كانوا يستخدمون العربات في الحروب ونقل الأمتعة والأسلحة وركوب الملوك وذلك قبل فتح المسلمين للأندلس.

وبعد انتهائه من فتح الأندلس سنة 93هـ وعودته إلى إفريقيا تَذكُرُ المصادر أنَّ موسى ابن نصير «مضى حتّى وصل الخضراء، وأمر بالعَجَل، فحملت الذَّهب والفضَّة والجوهر وأصناف متاع الأندلس»[32].

ويُفهَمُ من هذا الخبر أنّ الأندلسيّين استخدموا العربات منذ الأيّام الأولى التي حكموا فيها الأندلس، وأنهم استفادوا من خبرة القوط الذين سبقوهم في حكم الأندلس في هذا المجال. وفي سنة 95هـ نقل موسى بن نصير هذه الغنائم من إفريقيا إلى دمشق، يقول ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس»: «وفي سنة خمسٍ وتسعين قفل موسى بن نصير من إفريقيا واستخلف ابنه عبد الله بن موسى بن نصير، وحمل الأموال على العَجَل والظَّهر، ومعه ثلاثون ألف رأسٍ، فقدم على الوليد...»[33].

ويقول صاحب البيان المُغْرِب: «وفي سنة 95هـ انصرف موسى من الأندلس إلى إفريقيا بما أفاء الله عليه، فأجاز الأموال من الذَّهب والفضَّة والجوهر في المراكب إلى طنجة، ثمّ حملها على العجلات. قال الرّقيق: «كانت وسْق مائة عجلةٍ وأربع عشرة عجلةٍ»[34].

ويتَّضح من الرّوايات السَّابقة مع ما فيها من الخلط في التَّواريخ أنَّ الغنائم كانت تُنقَل بواسطة العربات وعلى ظهور الدَّوابِّ أيضاً، كما يُفهَمُ منها أنّ استخدام العربات كان بأعدادٍ كبيرةٍ، ممّا يَدلُّ على شيوع انتشارها لدى الفاتحين.

وعندما بنى الخليفة عبد الرَّحمن النَّاصر صومعته الشَّهيرة في قصر الزَّهراء سنة 340هـ تذكر المصادر أنّها «بُنيت بصخر الحجارة المنقولة إليها على العَجَل»[35].

وعندما قام الخليفة الحكم المستنصر بعد ذلك بإضافة أحواضٍ من الرُّخام المقتطعة من جبال قرطبة إلى المسجد الجامع بقرطبة تَذكُرُ المصادر ما يلي: «فتهيّأ حملُ الواحدة منها فوقَ عجلةٍ كبيرة اتُّخذت من ضخام خشب البلّوط على فلكٍ موثّقةٍ بالحديد المثقّف محفوفةٍ بوثاق الحبال قُرنَ لجرّها سبعون دابّةً من أشدِّ الدَّوابِّ، وسُهّلَتْ قدّامها الطُرُقُ والمسالك، وسَهَّلَ الله تعالى حملها واحدةً بعد أخرى على هذه الصِّفة في مُدَّة اثني عشر يوماً»[36].

وفي حديثه عن ثورة قرطبة سنة 400هـ وقيام سليمان بن الحكم المستعين بالله يقول صاحب نهاية الأرب[37] «ثمَّ أرسل إلى البربر ألف عجلةٍ تحمل الدَّقيق والشَّعير وأنواع المأكل». وهذا الخبر يدلُّ على كثرة تلك العربات في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الوجود الإسلامي في الأندلس.

وفي حديثه عن بناء صومعة المسجد التي أمر ببنائها الخليفة الموحّدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عند وصوله إلى إشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثَّالث عشر من صفر من عام ثمانين وخمسمائة، يقول ابن صاحب الصَّلاة في كتابه «تاريخ المَنِّ بالإمامة على المُستضعَفين»: «ولمّا كملت (التَّفافيح الثَّلاث الكبار) سُترت بالأغشية من شقاق الكتّان لئلّا ينالها الدَّنس من الأيدي والغبار، وحُمِلَتْ على العَجَل مجرورةً حتّى إلى الصَّومعة، بالتَّكبير عليها والتهَّليل حتى وصلت، ورفعت بالهندسة حتّى إلى أعلى الصَّومعة المذكورة ووضعت في العمود»[38].

ويستفاد من هذه النُّصوص التي تتحدَّث عن استخدام العربات في نقل موادّ

البناء من حجارةٍ وغيرها، أنّ أحجام العربات تختلف حسب الموادِّ التي تحملها، وأنَّ عدد الدَّوابِّ التي تجرُّها يختلف كذلك باختلاف حجم العربة وحجم ما تحمله.

كما يُستفاد ممّا أورده صاحب «نفح الطِّيب» أنَّ بعض العربات كانت تُتَّخَذُ لها أعجالٌ من خشب البلّوط وتوثّق بالحديد والحبال.

وقد ورد ذكر استخدام العربات (العَجَل) سواءً من قبل الإسبان أو الأندلسيّين في أحداثٍ تاريخيةٍ كثيرةٍ؛ ففي حديثه عن الحاجب أبي مروان عبد الملك بن أبي عامر الملقب بالمظفَّر وعن أحداث سنة 393هـ يصف ابن عذاري المراكشي في كتاب «البيان المغرب» نجاح المسلمين بقيادة المظفّر في فتح بعض حصون برشلونة قائلاً: «وركب الحاجبُ عَجَلاً بنفسه مع أكابر فتيانه وأهل مركبه، فارتقى إلى باب قصبتهم، واقتحم النَّاسُ على أعداء الله القصبة»[39].

ويُستفاد من هذا الخبر أنَّ بعض العربات كانت تحمل عدداً كبيراً من الرُّكّاب، ولذلك تختلف أحجامها وعدد الدَّوابِّ التي تجرّها.

وفي حديثها عن حوادث سنة 399هـ أيّام الخليفة مُحَمَّدٍ بن هشام بن عبد الجبار المعروف بالمهدي، تذكر المصادر التاريخيّة أنَّ ابن مادويه الرّومي أرسل إلى البربر، أنصار سليمان بن الحكم المستعين بالله «ألفَ عجلةٍ تحمل الدَّقيق والشَّعير وأنواع المأكل، وألفَ ثورٍ وخمسة آلاف شاةٍ، وجميع ما يصلحهم من الملبس وغير ذلك» وذلك بعد أن كان واضح العامري قد حاصرهم في مدينة سالم[40].

وفي حديثه عن منذر بن يحيى التجيبي (ت 430هـ) صاحب سرقسطة في بداية عصر ملوك الطَّوائف، يقول صاحب «الذَّخيرة» نقلاً عن ابن حيّان إنَّ منذراً كان على علاقةٍ ودّيةٍ مع عظماء الفرنج، وإنَّ شانجه بن غرسيه صاحب قشتالة مرَّ بباب تطيلة في طريقه إلى برشلونة، وأنّ منذراً أذِنَ له في ذلك من باب صداقتهما، إلاّ أنَّ أهل تطيلة رفضوا ذلك «وحملهم الأَنَفُ على أن خرجوا إلى عَجَلٍ أبطأتْ في ساقته تحمل أزواد عسكره يريدون نهبها عاصين للمشيخة»[41].

وفي أوائل عام 763هـ كان الغني بالله مُحَمَّدٌ بن الأحمر ملك غرناطة المخلوع آنذاك قد استعان بملك قشتالة بدرو ابن ألفونسو للعودة إلى عرش غرناطة فتحرَّك بدرو «بجيشٍ عظيمٍ من الرّوم لإنجاز وعده بلغ استعداده إلى قود ألف عجلةٍ ومئتين تحمل أنواع العدد المصرّفة في منازلة البلاد»[42].

وعندما قام الغنيّ بالله ابن الأحمر سنة 767هـ بمهاجمة حصن أشر شرقيّ مدينة إشبيلية واحتلاله، يصف لسان الدِّين ابن الخطيب في رسالةٍ وجّهها إلى السُّلطان المريني في المغرب أبي فارس عبد العزيز الآلات الحربيّة التي اصطحبها الغنيُّ بالله معه عند مهاجمة الحصن، فيقول: «واستصحبنا أعجالاً تحملُ جوالقات السِّهام، وآلات الهدم، وماعون النَّقْب من الدَّبابات، والسَّتائر الخشبيّة، والنّفُوط والتّرسة والدّرق، إلى الحصاصيد والسّلالم...»[43].

ويدلُّ هذا النصُّ على أنَّ العربات في مملكة بني الأحمر في غرناطة، كانت تُستَخدَم لنقل الأسلحة كالسِّهام والدُّروع والقذائف النَّاريّة (النّفوط) والأبراج الخشبيّة المُتحرِّكة والسَّلالم والمنجنيقات، وآلات النَّقب وآلات الحرق، والدُّروع وسواها. كما وصف لسان الدِّين ابن الخطيب في رسالةٍ أُخرى إلى أبي فارس المريني غزوة جيّان سنة 769هـ فيقول: «فاستكثرنا من آلات القتال، ورفعنا المجانيق على أفلاك الأعجال»[44].

وفي أثناء حصار مدينة غرناطة من قبل فرناندو وإيزابيلا سنة 893هـ وبعد أن أنشأ فرناندو مدينةً في مرج غرناطة أطلق عليها اسم سانتافيه (Santa Fé)، كان فرناندو يهاجم القرى المحيطة بغرناطة واحدةً واحدةً «وصار يهدم القرى ويأخذ ما فيها من آلة البناء ويجعله على العَجَل ويحمله إلى ذلك البلد الذي بناه (سانتافيه) ويبني به»[45].

لقد كان استعمال العربات لدى عامَّة النَّاس أمراً مألوفاً، وإنّي لأتخيّل العربات تتنقل بين المدن الأندلسيّة وفي طرقات المُدن، وهي تختلف في أشكالها وأحجامها

وزينتها ونوع الخشب المستخدم في عجلاتها تبعاً لطبقات الناس. وقد أوردتْ المصادر الأندلسيّة خبراً عن الفقيه مُحَمَّدٍ بن وضّاحٍ بن بزيع (ت 286هـ) فقد «ذكر بعضُ طلبته أنّهم كانوا في السّماع عند ابن وضّاحٍ في غرفةٍ له، فدخل عليه رجلٌ، فقال له: «خَطَرَتْ الآن عَجَلَةٌ فأصابت الصَّبيَّ ابنك ومَشَتْ عليه. فلم يكترث لذلك، وأقبل على ما كان فيه من إمساك كتابه، وأمر القارئ أن يتمادى على قراءته. فما لبث أن دخل آخرٌ، فقال: أبشرْ أبا عبد الله، سلمَ الصَّبيُّ، إنّما أصابت العجلةُ ثوبَه، فسقط، وجازتْه ولم تضرّه. فقال: الحمد لله، قد أيقنتُ بذلك، لأنّي قد رأيْتُ الصَّبيَّ قد ناولَ اليوم مسكيناً كسرةً، فعلمتُ أنّه لا يصيبه بلاءٌ في هذا النَّهار للحديث «إنّ الله يدفع عن العبد الميتة السُّوءِ بالصَّدقة يتصدَّقُ بها»[46].

ونتيجةً لكثرة استعمال الأندلسيّين للعربات، فقد أصبحت واحدةً من المسائل التي تعرّض لها الفقهاء، فقد ورد في كتاب الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهلٍ الأندلسيّ مسألةٌ حول مرور العَجَل والنَّصارى على المقابر، حيث يقول المؤلِّف: «فهمنا- وفقك الله- ما ذكره القائم بالحسبة من مرور العَجَل على المقابر بمقبرة متعة، وسلوك العجم بجنائزهم على مقابرنا، وما سأل من النَّظر في ذلك، فالذي نرى أن يتقدَّم إلى العجّالين ألّا يسلكوا بعجَلِهم على المقابر، وأن يكون مسلكهم بغربيّها في الفناء المُتَّسع الذي لا قبور به، وينهى العجم عن المرور على مقابرنا، لوطئهم قبور المسلمين ومشيهم عليها»[47].

وقد ورد وصف العربات في الشِّعر الأندلسيّ، فعندما بنى السُّلطان أبو الحجّاج يوسف الأوّل ابن الأحمر قصراً كبيراً في الحمراء «جلب إليه الرُّخام وبرز النَّاس إلى مشاهدتها تُساقُ على الأعجال، وكان بروزاً فخماً» وأمر شاعره ووزيره لسان الدِّين ابن الخطيب (ت 776هـ) بوصف ذلك، فقال قصيدته التي مطلعها [48]:

يميناً بيانِعِ وَرْدِ الخدودِ وعَذْبِ اللَّمى في الشهيِّ البَرودِ

ومن أبياتها في وصف الأعجال[49]:

كأنَّ الأساطين مهما نظرْتَ	**إليـها مُوَسّـَدةٌ فوْقَ عُـود**
مُهـودٌ توسّـَدها تـــوأمٌ	**مقطّمةٌ من بنـات الصُّلود**
كـأنَّ بأفـــلاك أعجـــالها	**سحاباً بها قِطَـعٌ من جليد**
ســفائن تخرق بحر الفلا	**وتلحق نحوكَ بيــداً فبيد**
كأنّ الصَّواري على ظهرها	**طُرِحْنَ مخافةَ هولٍ شديد**
وإمّا أعـدْتَ فأعجازُ نخْلٍ	**تفطَّرْنَ عن طلْعِ يَمْنٍ نضيد**
تولّى عَطـــارِدُ إتقـــانها	**وقابلها منك سعد السّعود**

ونظـم الشَّـاعر الغرناطـيُّ ابـن زَمْـرَك مُحَمَّـدٌ بـن يوسـف الصّريحـي (ت بعـد 797 هــ) قصيـدةً في وصـف الاحتفـال الـذي أقامـه الغنـيُّ باللـه مُحَمَّـدٌ بـن يوسـف ابـن الأحمـر (ت 793هــ) بمناسـبة إعـذار ولديـه الأميريـن سـعدٍ ونـصرٍ، حيـث أجـاد «في وصـف الجند والجُـرْد والطَّلبـة وغرائـب الأوضـاع»[50]، مطلعهـا:

اللمحةٍ من بارقٍ متبسّمِ	**أرسَـلْتَهُ دمعـاً تضرّجَ بالدمِ**

يقـول في بعـض أبياتهـا في وصـف العربـات التـي تحمـل بداخلهـا رجـالاً وتسـير أمـام منصَّـة الاحتفـال[51]:

ومُـدارةُ الأفـــلاكِ أعْجَـزَ كُنهُها	**إبـداعَ كـلِّ مهندسٍ ومهــنْدمِ**
يمشي الرجالُ بجوفها وجميعُهم	**عـن مسـتوى قدميـه لم يتقـدّمِ**

ويُستَفادُ من هذين البيتين الأخيرين أنَّ استخدام العربات لم يقتصر على النَّقل وحمل الأثقال والاستخدامات العمرانيّة والحربيّة، بل استخدمها الأندلسيّون للرّكوب في الاحتفالات الوطنيّة والاجتماعيّة وسواها، وأنّه كان بإمكان بعضها أن يحمل أعداداً كبيرةً من النَّاس.

ويُفْهَمُ ممّا مرّ أيضاً أنَّ العَرَبات كانت تُصْنَعُ من خَشَبِ البلّوط وغيره، وكانت تُوَثَّق بالحديد والحبال، وأنَّ حجمها كان يعتمد على حجم ما يُحْمَلُ عليها ووزنه، كما أنّ عدد الدَّوابِّ التي تَجرُّها كان يعتمد على وزن الموادِّ المُحمَّلة عليها، ولذلك بلغ عدد الدَّوابِّ التي جرّت العربة التي حملت رخام مسجد قرطبة سبعين دابّةً.

وممّا يجدر ذكره أنَّ صناعة العربات كانت معروفةً منذ القدم، وقد ورد في كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» في الحديث عن الملك ساوس من ملوك الأقباط «أنَّ هذا الملك كان يتفقَّدُ بلاده ويطوف عليها، وهو أوّل من عُمِلَتْ له العَجَلُ، وعُمِلَتْ عليها قِبابٌ من خشبٍ مذهبّةٍ، وفُرِشَتْ بالفُرُش، وكانت البقر تجرّه فيطوف على جميع بلاده، فإذا مَرَّ بالمكان الخَرِبِ أمرَ بعمارته، فقيل إنّه نظر ذات يومٍ إلى ثورٍ من تلك البقر التي كانت تجرُّ تلك العجلة التي كان فيها الملك، وكان ثوراً أبلق حَسَنَ الهيئة، فأعجبه، فأمر بإزالته من جرِّ العجلة وسَوقِهِ بين يديه، وجعل عليه حُلَلاً من فاخر الدّيباج....»[52].

كما أنَّ العربات كانت مستخدمةً عند أممٍ أخرى، ففي حديث أبي عبيدٍ البكري عن الصَّقالبة يقول: «وملوكهم يسافرون بالعَجَل العظام الجارية على أربعة أفلاكٍ وقوائمَ، في زواياها أربعة أعمدةٍ وثيقةٍ، وعلّق منها هودجٌ بسلاسلَ حصينةٍ وكُسيَ بالدّيباج، فلا يتقلقلُ الجالسُ فيه تقلقل العجلة، يعدّونه أيضاً للمرضى والجرحى»[53].

الأندلسيّون ومصارعة الثِّيران

عَـرَفَ الأندلسـيّون كثـيراً مـن صـور التَّسـلية، كان مـن بينهـا مـا أطلـق عليـه ابـن شـهيدٍ الأندلـسي في «رسـالة التَّوابـع والزَّوابـع»: «نقَّـارُ الديـوكِ ونطَّـاحُ الكبـاش»[54].

وورد في الموسـوعة الأمريكيـة في الحديـث عـن مصارعـة الثِّـيران أنَّ أوّل منازلـةٍ بـين الثِّـيران والفرسـان في الأندلـس كانـت في نهايـة القـرن الحـادي عـشر الميـلادي[55].

وقـد اشـتهرت مصارعـة الثِّـيران في عـصر بنـي الأحمـر في غرناطـة (635 - 897 هــ)، ووصفهـا عـددٌ مـن الشُّـعراء الأندلُسـيّين مـن ضمـن وصفهـم للاحتفـالات التـي كانـت تقـامُ في غرناطـة في المناسـبات الدّينيّـة والوطنيّـة المختلفـة، وكان بنـو الأحمـر يقيمـون احتفالاتهـم هـذه ومنهـا مباريـات مصارعـة الثِّـيران في الميادِيـن الرّومانيّـة القديمـة.

ومـن القصائـد التـي وصفـتْ تلـك المصارعـة قصيـدةٌ لعبـد اللـه بـن لسـان الدِّيـن ابـن الخطيـب نظمهـا بمناسـبة إعـذار ابـن السُّـلطان الغنـيِّ باللـه مُحَمَّـد الخامـس بـن الأحمـر مطلعهـا:

أثِرْها عزمةً تنضي الرِّكابا وإنْ دَمِيتْ لها العينُ انسكابا

ومن أبياتها في وصف المواجهة بين الثَّور والكلاب الضَّارية المُدرَّبة:

وطـاردتَ الصُّوار بكـلِّ ضارٍ ... كما أتبعْتَ عفريتاً شـهابا
ضربْتَ بـه على الآذان منـها ... فلم تَسطعْ حراكاً واضطرابا
ومعصـوب الجبـين بتاج رَوْقٍ ... يروعُ خُوارُه الأُسْـدَ الغضابا
تعرَّفَ أنّ تحـت الأرض ثـوراً ... فـرامَ بأن يشُـقَّ لـه التُّرابا
وكلْتَ به هضيم الكشح أجنى ... حديدَ النَّاب تحسبها حِرابا
تباعَـدَ مجمـع الشّـدقين منه ... وسـالَ الموت بينهما لعابا
فأثبتـه كـوحـي الطَّرْفِ حتّى ... توثّـقَ منه جـازرُه غـلابا
وصـاح به الصّـوارُ وقـد رآه ... حبيسَ الكلْبِ قد مُنِعَ الإيابا
فغـضّ الطّـرَفَ إنّك مـن نُمَيْرٍ ... فـلا كعباً بلغْتَ ولا كلابا[56]

ويُفْهَـمُ مـن هـذه الأبيـات أنّـه كان يجـري في البدايـة اسـتفزاز الثَّـور بثـورٍ آخـر، وعندمـا يهيـج وينطلـق إلى الحلبـة يُطلَـق عليـه كلـبٌ مـن الـكلاب الضَّاريـة المُدرَّبـة ذوات الخصـور الضَّامـرة والأنيـاب الحـادَّة كأنَّهـا الحـراب، فيهاجـم الثَّـورَ ويتعلَّـقُ بأذنيـه ثـمَّ يطرحـه أرضـاً حتـى يُثبّتـه، وعنـد ذلـك يـأتي الفـارس وقـد تيقَّـن مـن هزيمـة الثَّـور فيطعنـه حتّـى المـوت.

وفي قصيـدةٍ للسـان الدِّيـن بـن الخطيـب قالهـا في مـدح سـلطانه الغنـيِّ باللـه، وقـد قَـدَّم لهـا لسـان الدِّيـن بمقدّمـةٍ ذات أهمّيـةٍ خاصَّـة في التَّعـرّف عـلى جوانـب مصارعـة الثِّـيران في الأندلـس حيـث يقـول: «وقـولي في امتـداح سـلطاني لمّـا احتفـل لإعـذار ولـده واسـتركب الفرسـان لمزاملـة الهـدف الخشـبيّ المتّخـذ في الجـوّ المسـمّى بالطَّبلـة، وأرسـل جـوارح الأكلُـب العظـام المجتلبـة مـن أرض ألان، خلـف فحـول البقـر الطَّاغيـة الـشّرس، تُمسِـكها مـن آذانهـا وأجنابهـا، حتّـى تتمكَّـن منهـا الرّجـال»[57].

ويتَّضـح مـن هـذا النـصّ أنَّ مصارعـة الثّـيران كانـت تقـوم عـلى إطـلاق الـكلاب الرّوميّـة الضَّاريـة الضَّخمـة، عـلى الثَّـور الـذي يتَّصـفُ أيضـاً بالشَّراسـة الشَّـديدة، حتّـى تتعلَّـق هـذه الـكلاب بـأذن الثَّـور وأجنابـه حتّـى تُسـقِطه أرضـاً، ثـمّ يـأتي الفرسـان فيجهـزون عـلى الثَّـور.

ومن أبيات هذه القصيدة في وصف المصارعة:

وأرسلْتَ يومَ السَّبْق كُلَّ طمرَّةٍ كما قذفَ الملمومةَ النَّارُ والنَّفطُ
رَنَتْ عن كحيلٍ كالغزالِ إذا رنا وأوفَتْ بهادٍ كالظليم إذا يعطو
وقامَتْ على منحوتةٍ من زبرجدٍ تخطُّ على الصُمِّ الصّلابِ إذا تخطو
وكلّ عتيقٍ من تَماثِلِ رومةٍ تأنّقَ في استخطاطه القسُّ والقمط
وطاردْتَ مقْدام الصُّوار بجارحٍ يُصابُ به منه الصّماخ أو الإبْطُ
متين الشّوا في رأسه سمهريَّةٌ مقصّرةٌ عنهنَّ ما ينبتُ الخطُّ
وقد كان ذا تاجٍ فلمّا تعلّقا بسامعتَيْه زانه منهما قُرْط[58]

ويتَّضح بجلاءٍ من هذه الأبيات أنَّ المصارعة كانت تقام على الميادين الرّومانيّة القديمة في غرناطة، وفي ذلك استمرارٌ للغايات التي كانت هذه الميادين والمدرَّجات قد بُنيت من أجلها، كما تظهر صورة المصارعة ومجرياتها بصورةٍ جَليَّةٍ، فالفرسان يطلقون الكلاب الضَّارية على الثَّور الضَّخم ذي القرنين اللذين هما أحدّ من الرِّماح، فتتعلَّق الكلاب بأُذني الثَّور أو بإبطه، فبعد أن يكون قرناه له تاجاً يصبح الكلبان المتعلّقان بأذنيه قُرطين له.

ولا استبعد أن يكون استخدام قطعة القماش الحمراء في أثناء مراوغة الثَّور تقترن باللون الرَّسمي لدولة بني الأحمر، وهو اللون الذي ورد ذِكرُه كثيراً في وصف احتفالات بني الأحمر، فهذا ابن الحاجِّ النميري يصف الاحتفال بإعذارية أُخرى ويذكر الملابس الحمر قائلاً:

لبسوا قميص البأس أحمر وارتدوا بردائه والخيلُ ذاتُ قِماصِ[59]

ويقول ابن زمرك الغرناطي في وصف إحدى الإعذاريات سنة 764هـ:

ولكَ القبابُ الحُمْرُ تُرْفَعُ للنَّدى فترى العمائم تحتها كالأنجم[60]

وله من قصيدةٍ أخرى:

أبديْتَ من حُسْنِ الصنيع عجائباً تُرْوى على مــرّ الزَّمــان وتُنْقَـلُ
خفقَتْ بـه أعــلامُكَ الحمْرُ التي بخفوقها النَّصرُ العزيزُ موكَّلُ[61]

ولعلّه توجدُ علاقةٌ بين القُبَّة الحمراء التي كانت تقام إبّان الاحتفالات الغرناطية، وبين ما يُعرَف حاليّاً باسم Barrera وهو سياجٌ من خشبٍ أحمر يوضع حول الحلبة التي تجري بداخلها مصارعة الثِّيران.

وممّا قاله S. P. Scott عن مصارعة الثِّيران عند مسلمي الأندلس في كتابه «تاريخ الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة في إسبانيا»[62]: «وكانت أولى تسلياتهم هي مصارعة الثِّيران التي لا نجد مثلها إلاّ القليل في مشهد المصارعة المعاصرة ذات الملمح الدَّمويِّ الوحشيِّ الصَّارخ، بينما اللاعبون المسلمون كانوا جميعهم من أصولٍ أرستقراطيَّة نبيلة، وكانوا دائماً ركوباً بشكلٍ رائعٍ مدهشٍ، وكانت عُدّتهم بالغة الفخامة، ولم يكن يُسْمَحُ لهم باستخدام أيِّ سلاحٍ سوى رمحٍ قصيرٍ ثقيل رأسُه مغلفٌ بقطعةٍ من الجِّلد. وقد تطلَّبتْ قواعدُ هذه الرياضة أن يُقتَل الثَّور بطعنةٍ واحدةٍ في العمود الفقري أمام الكَتِف، ممّا يتطلّب مهارةً عظيمةً وقوةً فائقةً غير عاديَّةٍ، وإذا وقعت الضَّربة في مكانٍ آخر فإنَّ الفارس يُجبَرُ على ترك الحلبة، وإذا كُسِرَ سلاحُه أو فُقد فإنه يُنظَرُ إليه على أنه اقترف عاراً لا يمكن محوه. وكان الذَّكاء وتدريب الفرس وبراعة راكبها هي الضَّمانات الكفيلة بعدم وقوع كارثةٍ، لكنَّ تضحية الفارس في بعض الأحيان

كانت تُذكِّرُ الباقين على قيد الحياة بالأخطاء المُخيفة للمواجهة.

ولكونهم مدرَّبين منذ الطفولة المبكرة على ركوب الخيل واستخدام الرِّماح ومعتادين على مختلف أنواع التَّدريب الرُّجولي، ومهرةً وخبراءَ في فنون المباريات والسِّباق، فإنّ مسلمي إسبانيا وجدوا في مصارعة الثِّيران ذروة الاستمتاع إلى جانب متعهم المادّية والإثارة النَّاجمة عن الحروب».

وورد في الموسوعة البريطانية ما نصُّه[63]: «وعدَّل المسلمون الذين جاءوا من إفريقيا والشاميون الذين اجتاحوا الأندلس سنة 711 ميلادية، عدَّلوا بشكلٍ تدريجيٍّ الألعاب الموجودة بأن أضافوا إليها المذاق الأرابيسكي الرَّاقي والخيال الشَّرقي الرَّائع. وبما أنَّ المسلمين عرفوا الفروسيَّة فإنَّ كرامتهم استدعتْ أن يأخذوا الرّمح من التَّابعين لهم بحيث يصبح هؤلاء التَّابعون أقلّ منهم شأناً في مصارعة الثّيران ويتركونهم ببساطةٍ ينازلون الحيوانات على الأقدام، بحيث يغدو سادتهم الذين يمتطون الخيل قادرين على تأدية دورهم بشكلٍ أفضل.

لقد أعاد المسلمون بناء المسارح الرّومانية المُتداعية وتزيينها في كلٍّ من إشبيلية وقرطبة وطليطلة وطرّكونة وقادس. وقد تطوّرت المباريات نتيجةً للمنافسة بين زعماء المغاربة والفرسان المسيحيين من سكّان الأندلس. وكانت الاحتفالات تقام في الميادين العامَّة التي أخذت حلبات مصارعة الثِّيران أسماءها منها، وربّما أُقيمت في الهواء الطَّلق خارج القرى. أمّا المدن الرَّئيسية فقد تباهت بما كان لها من مسارحَ خاصَّةٍ بذلك. وبعد أن أُخرِجَ المسلمون من إسبانيا على يد فرديناند وإيزابيلا سنة 1492م، استمرَّت مصارعة الثِّيران بواسطة الرِّماح الرِّياضة المفضَّلة للأرستقراطيّة».

وقبل أن أختم الحديث عن رياضة مصارعة الثِّيران في الأندلس ودور المسلمين في تطويرها، أودُّ الإشارة إلى أنَّ هذه المصارعة كانت أيضاً مشهورةً في المغرب وكان أبطالها: الثِّيرانُ والفرسانُ والأسودُ بدلاً من الكلاب الرّوميّة. كما عُرِفَتْ عند أهل المغرب المصارعة بين الأسود والفرسان. وقد نظم الشَّاعر أبو جعفرٍ أحمد بن

عبدالرَّحمـن بـن أحمـد الوقـشي (ت 574هـ) قصيـدةً يصـفُ فيهـا احتفـالاً عايـن فيـه قتـل أسـدٍ هائـل المنظـر في مرّاكـش سـنة 564هـ[64].

ويـورد إسـماعيل بـن يوسـف بـن الأحمـر في كتابـه «نثـير الجُـمان» قصيـدةً لابـن عبـد المنّـان الأنصـاري (ت 792هـ) في مـدح أبي عنـان المرينـي يصـف فيها قتل الأسـد بـين يديه بقـصره والثَّـور المقاتـل للأسـد والأكـرة والمُخاتـل وغـير ذلـك مـمّا يلعـب بـه مـع الأسـد[65]. ويذكـر ابـن الأحمـر إنَّ أبـا عنـان المرينـي هـذا كان «مولعـاً بقتـل الأسـود»[66]. وقـد أكـثر الشُّـعراء الأندلسـيّون الذيـن عاشـوا في دولـة بنـي مريـن أو زاروا المغـرب مـن وصـف هذه المباريـات وصفـاً دقيقـاً نـثراً وشـعراً، كـما فعـل لسـان الدِّيـن بـن الخطيـب[67].

وفي الختـام، لا بـدَّ مـن الإشـارة إلى أنَّ المصـادر العربيّـة القديمـة كادت أن تغفـل الحديـث عـن هـذه الرِّياضـة لـولا بعـض القصائـد التـي وصفتهـا عَرَضَـاً في إطـار وصـف احتفـالات الأندلسـيّين والمغاربـة ببعـض المناسـبات السُّـلطانية؛ حتّـى إنَّ العلـماء الذيـن ألّفـوا كتبـاً في الفروسـيّة مثـل ابـن هذيـل الغرناطـي في كتابيـه حليـة الفرسـان وشـعار الشُّـجعان (دار المعـارف، مـصر، 1951) وتحفـة الأنفـس وشـعار أهـل الأندلـس (باريـس 1936) وابـن جـزيّ الكلبـي في كتابـه مطلـع اليمـن والإقبـال في انتقـاء كتـاب الاحتفـال (كتـاب الخيـل) (ط. دار الغـرب الإسـلامي، بـيروت، 1986) وغيرهـما لم يتعرَّضـوا لهـذه الرِّياضـة.

الأندلسيّون وخيال الظِّل

يُطلَقُ خيال الظِّلِّ على لعبةٍ تعتمد في أساسها على ظلالِ الأجسام التي تتحرّك على حائطٍ أو ستارةٍ، بتسليط الأضواء عليها، وكانت هذه اللعبة واحدةً من وسائل التَّرفيه والتَّسلية والسَّمَر في القرون الوسطى، وفي اعتقادي أنَّ خيال الظِّلِّ يُمثِّل مرحلةً من مراحل نشوء مسرح الدُّمى ونشوء التَّمثيل والمسرح عند العرب.

ويصف إبراهيم حمادة محقِّق تمثيليّات ابن دانيال في صورةٍ مُتخيَّلةٍ مسرح خيال الظِّلِّ في مصر في العصر المملوكي على النَّحو التالي: «كان مسرح (خيال الظِّلِّ) عبارةً عن حاجزٍ خشبيٍّ بعرض الصَّالة يفصل المشاهدين المصفوفين عن اللاعبين، ويرتكز هذا الحاجز على الأرض، ويرتفع فوقها حتّى قُبيل السَّقف بقليلٍ، وفي وسطه- على بعد مترٍ ونصفٍ من الأرض- فتحةٌ طولها نحو المتر وعرضُها مترٌ ونصفٌ تقريباً، وقد شُدَّتْ عليها ستارةٌ من القماش الأبيض الرَّقيق الشفَّاف، وفي أسفل الشَّاشة من داخل المسرح -جهة اللاعبين- ثُبِّتَ قضيبٌ مفرّغٌ من الخشب ليحمل الدُّمى المُشترِكة في اللعب، وعلى الأرض صندوقٌ كبيرٌ يحوي مجموعةً من شخوص العروض التَّمثيلية، وهي عبارةٌ عن أشكالٍ طول كلٍّ منها حوالي القدم مصنوعةٍ من جلد الحيوان الصَّلب على هيئة الشَّخصيات المُشتَرِكة في موضوع التَّمثيلية، وأحياناً على شكل حيوانات كالحمير والكلاب والماعز أو أشياءٍ جماديّةٍ كالسُّفن والبيوت والأشجار، ولهذه الشخوص الجلدية مفاصلُ وثقوبٌ نُفِّذَتْ بقدْرٍ ولغرضٍ مُحقَّقٍ، يدفع اللاعب فيها عُصَيَّةً لتحريكها وتمثيل الشَّخصية المذكورة في النصّ، كما أنَّ

بعضاً منها مثبّتٌ على قضيبٍ حديديٍّ رفيعٍ أو سلكٍ صلبٍ. وعند العرض تُطفأ أنوار الصَّالة وتُغلق النَّوافذ والأبواب، ثمّ تُثَبَّتُ الشَّخوص في القضيب الخشبي، فتغدو ملتصقةً بالشَّاشة، ثمَّ يُضاء من داخل المسرح مصباحٌ زيتيٌّ أو مجموعةٌ من الشُّموع تُحبَسُ أنوارها بواسطة حواجزَ أو برانيطَ تُمكِّن الضَّوء من أن يتركَّز على الشَّاشة، وعندئذٍ تظهر ظلال الشُّخوص على الشَّاشة، وتنعكس من الجهة الأخرى، فيراها المتفرِّجون واضحةً، فيبدأ اللاعبون تحريكها بعصيّهم وهم يؤدّون بأصواتهم الجهيرة حوار القِصَّة التَّمثيليَّة، وتتبادل الشُّخوص الحوار والمواقف والحركات، كما يتبادل الممثلون على خشبة المسرح حوارهم ومواقفهم، وفي بعض الأحيان تصحب اللعب أنغامٌ موسيقيَّةٌ يوقعها المساعدون»[68].

والهدف من إيراد هذا الوصف لمسرح خيال الظِّلِّ في العصر المملوكي هو إبراز مدى مطابقة الوصف الذي تحمله النُّصوص الأندلسيّة لمسرح خيال الظِّلِّ في الأندلس لهذه الأوصاف، مع أنَّ خيال الظِّلِّ الأندلسيّ سابقٌ -كما تظهره هذه الدِّراسة- على خيال الظِّلِّ المملوكي زمنيّاً.

وحول نشأة خيال الظِّلِّ يرى أكثر الباحثين أنّها كانت في بلاد الصّين والهند، ثُمَّ انتقلت منها إلى أواسط آسيا فبلدان العالم العربي والإسلامي وإيران وتركيا، ومنها إلى أوروبا[69].

ويُستفاد من الأدلة والأخبار والرِّوايات التي ساقها إبراهيم حمادة في كتابه (70) نقلاً عن العديد من المصادر التَّاريخية العربيّة مثل «ثمرات الأوراق» لابن حجة، و«مطالع البدور» للغزولي، أنَّ أقدم الإشارات العربيّة التي وردت عن خيال الظِّلِّ (المصري) ترجع إلى أواخر الحكم الفاطمي، وأورد خبراً عن صلاح الدِّين في عام (1171م/ 576هـ) أنه «أخرج من قصور الفاطميين من يعاني خيال الظِّلِّ ليريَه للقاضي الفاضل، فقام عند الشُّروع فيه، فقال له الملك: «إن كان حراماً فما نحضره». وكان حديث عهدٍ بخدمته قبل أن يلي السَّلطنة، فما أراد أن يُكدِّر عليه،

فقعد إلى آخره، فلمّا انقضى قال له الملك: كيف رأيتَ ذلك؟ فقال: رأيتُ موعظةً عظيمةً، رأيتُ دولاً تمضي ودولاً تأتي. ولمّا طوى الإزار -طيَّ السجلِّ للكُتب- إذا المحرّك واحدٌ».

وأورد بيتين لأحمد البيروتي من أدباء القرن السَّادس الهجري في ذكر خيال الظِّلِّ هما:

أرى هذا الوجودَ خيالَ ظلٍّ ... محـرّكه هو الربُّ الغفورُ

فصندوقُ اليمين بطونُ حوّا ... وصندوق الشمالِ هو القبورُ[71]

وذكر إبراهيم حمادة أيضاً أن خيال الظِّلِّ عُرِفَ في العراق في أيام مُظفَّر الدِّين صاحب أربل (549 - 630هـ)[72].

وقد كان لابن دانيال الموصلي، شمس الدِّين مُحَمَّد بن دانيال بن يوسف الخزاعي (646 - 710هـ/ 1238 - 1311م) الدَّور الكبير في النُّهوض بهذا الفنّ، حيث ألّف تمثيلياته الظِّلّية في ثلاثة أبواب هي: طيف الخيال، وعجيبٌ وغريبٌ، والمتيّم والضَّائع اليتيم.

و بذلك استطاع أن يعزّز وجود هذا الفنّ في مصر ويديم أمده.

وأمّا في الأندلس فقد عُنيَ الأندلسيّون -عامّتُهم وخاصّتُهم- بوسائل التَّسلية والتَّرفيه، ونجد ذلك واضحاً في مجالس الغناء والموسيقى، وانتشار ما يُعرف بالزّامرين والمُلْهين والقوّالين والمُضحكين واحتفالات المُتصوِّفة واحتفالات المولد النَّبويِّ الشَّريف، والعروض البهلوانية وعروض السِّحر والعروض الرَّاقصة، والرَّقص على الحبال، واللعب بالسِّيوف ولعبة «الكرّج» وهي تماثيل خيلٍ مُسرجةٍ من الخشب مُعلَّقةٍ بأطراف أقبيةٍ يلبسها النّسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون»[73].

وقـد هيّـأت هـذه الظّـروف البيئـة المناسـبة لظهـور بعـض أشـكال الفـنِّ التَّمثيـلي والمسرحـي عنـد الأندلسـيّين. ولعـلَّ أهـمَّ مظهـرٍ مـن مظاهـر هـذا الفـنّ هـو خيـال الظِّـلِّ الـذي عرفـه الأندلسـيّون قبـل نحـو ثلاثـة قـرونٍ مـن معرفـة ابـن دانيـال المـصري (ت 711هـ/ 1311م) لـه.

ويُفهـم مـن الرِّوايـات والأخبـار التـي أوردتهـا المصـادر الأندلسـيّة أنّ فـنَّ خيال الظِّـلِّ كان منتـشراً في الأندلـس قبـل منتصـف القـرن الخامـس الهجـري/ الحـادي عـشر الميـلادي؛ فقـد وصفـه أبـو مُحَمَّـدٍ ابـن حـزم (ت 456هـ) في رسـالته الموسـومة «رسـالةٌ في مـداواة النُّفـوس وتهذيـب الأخـلاق والزُّهـد في الرذائـل» قائـلاً: «أشـبه مـا رأيْـتُ بالدُّنيـا خيـال الظِّـلِّ، وهـي تماثيـل مركّبـةٌ عـلى مطحنـةٍ خشـبٍ تُـدار بسرعـةٍ، فتغيـب طائفـةٌ وتبـدو أخـرى»[74].

وهـذا الوصـف يحمـل كثـيراً مـن ملامـح اللعبـة كـما وصفهـا إبراهيـم حـمادة لخيـال الظِّـلِّ المـصري في العـصر المملـوكي مـن حيـث الاعتـماد عـلى التَّماثيـل والخشـب والظِّـلال.

وفي فقـرةٍ مـن مقامـةٍ لأبي حفـصٍ عمـر بـن الشَّـهيد (المتـوفى بعـد 440هـ/ 1048م) يصـف أبـو حفـصٍ منـزلاً لأحـد البـدو ويُشـبِّهه ببيـتٍ مُعَـدٍّ لإخـراج فـنّ الخيـال، حيـث يقـول: «ثـمّ مـال بنـا إلى بيـتٍ مكنّـسٍ منـوّعٍ مجنّـسٍ، قـد جلّلـه حُـصُراً بلديَّـةً، وغشّـاه بسـطاً بدويَّـةً، ومَـدَّ فيـه شرائـط وحبـالاً، كأنَّـه يريـد أن يخـرج خيـالاً.....»[75]. ويعلِّـقُ الدُّكتـور إحسـان عبّـاس محقّـق كتـاب «الذَّخـيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة» عـلى هـذا النَّـصّ بالقـول: «أغلـب الظَّـنِّ أنَّ اللفظـة هنـا تعنـي خيـال الظِّـلِّ».

ويتَّضـح مـن نَـصِّ ابـن الشَّـهيد أنَّ الأندلسـيّين اسـتخدموا الشَّرائـط والحبـال في شـكلٍ آخـر مـن أشـكال عـروض خيـال الظِّـلِّ، وقـد يكـون هـذا الشَّـكل مُكمِّـلاً للشَّـكل الـذي وصفـه ابـن حـزمٍ. كـما يؤكّـد هـذا النَّـصّ أنَّ الأندلسـيّين عرفـوا فـنَّ خيـال الظِّـلِّ قبـل منتصـف القـرن الخامـس الهجـري، لأنَّ صاحبـه تـوفِّي في حـدود سـنة (440هـ/ 1048م).

وقـد ورد ذكـر الخيـال والسِّـتارة والأقمشـة المشـار إليهـا هنـا في وصـف إبراهيـم حـمادة لخيـال الظِّـلِّ المملـوكي.

وكان خيال الظِّلِّ في الأندلس قد انتشر بصورةٍ واسعةٍ في بدايات القرن السَّابع الهجري، وكان يُعرف عندهم كذلك باسم «خيال السِّتارة»، وذلك لأنَّ ظلال الأجسام كانت تتحرَّك على السِّتارة، ومن الأدلّة على ذلك ما رواه ابن عطاء الله السّكندري في كتابه «لطائف المنن» نقلاً عن شيخه أبي العبَّاس المرسي، فقال: «وسمعته يقول: عُمِلَ إلى جانب دارنا خيالُ السِّتارة، وأنا إذ ذاك صبيٌّ، فحضرتُه، فلمّا أصبحتُ وأتيْتُ إلى المؤدِّب، وكان من أولياء الله، أنشدني حين رآني:

يا ناظراً صُوَرَ الخيالِ تَعجُّباً وهو الخيالُ بعينه لو أبْصرا»[76]

ويُفهَم من هذا النَّصّ أنَّ أبا العبَّاس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي (616 - 686هـ) كان صبيَّاً عندما ذهب لمشاهدة خيال السِّتارة، أي عندما كان في مرسية في الأندلس، وقبل ارتحاله إلى الإسكندرية وإقامته فيها[77].

ويُفهَم من هذه الرواية أيضاً أن خيال الظِّلِّ كان مُتنقِّلاً ويقام بين الدّور كي يحضره الصِّغار.

ويبدو أنَّ عروض خيال الظِّلِّ كانت أيضاً ماثلةً في ذهن محيي الدِّين بن عربي (ت 638هـ/ 1240م)، حيث تحدَّث عن العلاقة بين الخالق والمخلوق في رسالته المُسمّاة «كتاب التَّراجم» حيث يقول: «ظِلُّك على صورتك وأنت على الصُّورة، فأنت ظلٌّ قام الدَّليل على أنَّ التَّحريك للحقِّ لا لك، كذلك التَّحريك لك لا للظِّلِّ، غير أنّك تعترض فلم تعرف قَدْرك، وظلُّك لا يعترض، فيا من هو ظلُّه أعلمُ بقدْرِهِ منه متى تُفلح؟!»[78].

ويقول ابن عربي في موضعٍ آخر: «الشَّخْصُ وإن كان واحداً فلا تقل ظلٌّ واحدٌ ولا صورة في المرآة، فعلى عدد ما يُقابله من الأنوار يظهر للشَّخص ظِلالاتٌ، وعلى عدد المرائي تظهر له صورٌ، فهو واحدٌ من حيث ذاته متكثِّرٌ من حيثُ تجلّيه في الصّور أو ظِلالاتُه في الأنوار، فهي المُتعدِّدة لا هو، وليست الصّورُ غيره»[79].

ووردت في ديــوان أبي الحســن عـليٍّ بـن عبدالله الشّـُشْتُريِّ الأندلـسيِّ المُتصـوِّف (ت 668هـ/ 1270م) موشَّحةٌ تـكاد تَشـتَمل عـلى سـائر عنـاصر عـروض خيـال الظِّـلِّ يقـول فيهـا[80]:

عـدّ عن الـوهمِ والخيالِ ... واسـتعملِ الفكرَ والنَّظرْ
ما النَّــاسُ إلاّ كمـا الخيالِ ... فانظـرْ إلى ماسكِ الصُّورْ
مَن يَعتــبرْ يجِــدْ اعتبـارَهْ ... ويَشهدِ الحقَّ في الشُّهودْ
مَثّلْ هُدِيتَ الوجودْ ستارة ... وانظرْ لِمن أطلعَ الوجودْ
بدا لـــــه قبــلَ أن أدارَهْ ... وأوّلُ السّـَعدِ في الصُّعودْ
مَـن يَـرْقَ مِن سافلٍ لعالِ ... يُعــايـــنِ العَينَ في الأثـرْ
مـا النَّاسُ إلاّ كما الخيـالِ ... فانظرْ إلى ماسـكِ الصُّوَرْ
أوّلُ ما يُبصِر الضَّعيــفُ ... كالطِّـفـلِ شَــكْلاً مُمثَّلا
كثايــفٌ أصلُها كثيــفُ ... لكنَّـها تقبـَل الجـــلا
لذاتهـــا فِعلُهـا يُضيفُ ... والقـولُ مهـمـــا تأمّـَلا
إذا التَّـماثيــلُ للمِثـــالِ ... يَظهــرْنَ في عـالمِ البَصرْ
ما النَّاسُ إلاّ كمـا الخيالِ ... فانظرْ إلى ماسـكِ الصُّورْ
حتـّى إذا أشرَق النَّهــارُ ... واكتَهل الطِّفـلُ واهتدى
رأى الــذواتِ التي تُدارُ ... تبدو مـَواتاً وجَلْــمَـدا
بها لمـــن صاغها استتارُ ... يخـفَـى بهـا إذْ بهـا بدا
شرابُهـــا لاحَ كـــالـزُّلالِ ... قد فـاته الـريُّ وانحصرْ

ما النـاسُ إلاّ كما الخيالِ ... فانظرْ إلى ماسـكِ الصُّورْ
عَجبـتُ إذ سِرُّه عجيبُ ... لِحُكـمـه كيـف يُنـفذُ
هـذا كمـا شـاء قريبُ ... وذا من الوصـلِ مُبعـَدُ
وذا بـريءٌ وذا مُريـبُ ... كـذاك شـاءَ المُشـعبِذُ
تَـراهُ يُبـدي ولا يُبـالي ... في كـلِ طـورٍ لـه وطرْ
ما النَّاسُ إلاّ كمـا الخيالِ ... فانظرْ إلى ماسـكِ الصّورْ
يُلْبسُـها لِبْسَـهُ المَنُوطُ ... واللبْـسُ في كـلِّ لابسِ
نِيطتْ بأطرافها خُيـوطُ ... تخفى على الإنس إذ نَسي
تذكـارهـا دُونَـه شروطُ ... أوّلُـه تَـركُ الأنفُسِ
فذِكْـرُها أوَّلُ الكمـالِ ... حيث اغتـدى آخرَ النَّظرْ
ما النَّـاسُ إلا كمـا الخيالِ ... فانظـرْ إلى ماسـكِ الصُّورْ
جُزْ ظاهر الكائناتِ يَظهرْ ... من باطنِ الأمرِ ما اختفى
تلك سـتورٌ بهـا تُسـتّرْ ... عرضـنَ إذ كـنّ أحرُفـا
بصيرةُ العـينِ مَن تبـصَّرْ ... بها فقـد فـازَ مَن غفا
حِدْ صاحِ عن حالةِ المِحالِ ... فالصَّحوُ أولى بمن سَـكرْ
ما النّـَاسُ إلا كما الخيالِ ... فانظرْ إلى ماسكِ الصُّورْ
القلبُ غيبٌ والرَّبُّ غيبُ ... والغيبُ للغيـبِ يُنسبُ
مَهْ يا أخـا القِشرِ ثَمَّ لُبُّ ... فاطلبْـه فاللبُّ يُطلـبُ
ودُونه للسّـُقاةِ شَـرْبُ ... يشدو الذي منه يَشْربُ
دَعْ ما يُقـال مِن المِحالِ ... ممّـا خفـي أو ما ظهرْ
ما النَّاسُ إلاّ كمـا الخيالِ ... فانظرْ إلى ماسكِ الصُّورْ

إنَّ النَّاظر في هذه الموشَّحة يَجِدُ نفسَه أمامَ وصفٍ تفصيليٍّ لعرض من عروض خيال الظِّلِّ، يَشتَمِلُ على مجموعةٍ من العناصر الأساسية للعرض، مثل الجمهور المشاهد، والسِّتارة، وماسك الصّور، والتَّماثيل المتحرِّكة ذات الصُّور الآدمية المحشوَّة بالقماش، وملابس التَّماثيل، والخيوط الرَّفيعة التي تمسك بالتَّماثيل، والرَّاوي الذي يقصُّ الحكاية، والذي وصفه الشّشتري بالمشعبذ، ووجود هدفٍ خفيٍّ من الحكاية.

ويكون القاصُّ الذي يبدِّل ملابس التَّماثيل أيضاً، ومحرِّك الخيوط والتَّماثيل، خلف السِّتارة لا يُشاهدهم الجمهور، بل يشاهدون التَّماثيل المُتحرِّكة الصَّاعدة والنَّازلة، والتي تظهر وتختفي، والمتغيِّرة بتغيِّر الشَّخصيات، ويسمعون حوارات هذه التَّماثيل التي تُمثِّل شخوصَ الحكاية.

ويدلُّ هذا الوصف الدَّقيق لخيال الظِّلِّ على أنّ الشّشتري قد شاهد هذه العروض وتمثَّلها بالتَّفصيل في موشَّحته، ممّا يدلُّ على أنَّ هذا المسرح كان مُتاحاً للنَّاس كافَّةً، ولا سيّما الأطفال كما يُفهَم من هذه الموشَّحة.

كما أنَّ وصف الرَّاوي بالمُشعبذ هو إشارةٌ إلى كون الحكاية التي يتضمَّنها العرض حكايةً خياليةً تهدف إلى جذب الجمهور وتشويقه وتسليته، لكنَّ الشّشتري يؤمن بأنَّ هذه الحكاية تُضمر وراءها أهدافاً وأفكاراً أخرى، ويتَّضح ذلك من قوله:

عجبتُ إذ سرُّه عجيبُ	**لحُكمِهِ كيفَ يُنْفَذُ**
هذا -كما شاءَ- قريبُ	**وذا من الوصل مُبْعَدُ**
وذا بريءٌ وذا مريبُ	**كذاك شاءَ المشعبذُ**
تراه يُبدي ولا يُبالي	**في كلِّ طوْرٍ له وَطَرْ**
ما النَّاسُ إلاّ كما الخيال	**فانظرْ إلى ماسك الصُّور**

إنّ تكرار لازمةٍ واحدةٍ في جميع فقرات الموشَّحة له ارتباطٌ باللّازمة التي يُكرِّرها الرَّاوي في عروض خيال الظِّلِّ أثناء عرضه، وغالباً ما تشتمل هذه اللّازمة على

الفكـرة الرَّئيسـية مـن قصَّـة العـرض.

ولعـلَّ خيـال الظِّـلِّ هـو مـا قصـده الشَّـاعر الأندلـسي أبـو بكـرٍ مُحَمَّـدٌ بـن عبدالله الـدَّاني (ت 631هـ/ 1234م) في قولـه[81]:

لكلِّ شخصٍ في الورى لقيةٌ تخرجُ والأيَّام مثل الخيال

وقـد أوردتْ المصـادر الأندلسـيّة عبـارة «الخيـال» في سـياقات تـدلُّ عـلى أنَّـه فـنٌّ مـن الفنـون المُقترِنـة بالموسـيقى والرَّقـص والغنـاء والزَّمـر والإضحـاك واللّهـو واللّعـب المُطـرب، فمـن ذلـك مـا أورده أبـو الوليـد الشَّـقُنْدي في رسـالته في تفضيـل الأندلـس عـلى بـرِّ العـدوة مـن قـول أحدهـم عـن إشـبيلية «وقـد سـمعت مـا في هـذا البلـد مـن أصنـاف أدوات الطَّـرب كالخيـال»[82].

وعندمـا تحـدَّثَ التَّيفـاشي في كتابـه «متعـة الأسـماع في علـم السَّـماع» عـن ثقافـة الجـواري في مدينـة إشـبيلية ذكـر الخيـال مـن بـين عنـاصر تلـك الثَّقافـة مقترنـاً بالرَّقـص والغنـاء والزَّمـر، حيـث يقـول متحدثـاً عـن إشـبيلية في زمنـه (ت سـنة 651هـ/ 1253م): «وبهـا عجائـزُ محسـناتٍ يُعلِّمـن الغنـاء لجـوارٍ مملـوكاتٍ لهـنَّ، ومسـتأجراتٍ عليهـم مولّـدات، ويشـترين مـن إشـبيلية لسـائر ملـوك المغـرب وإفريقيـات، تبـاع الجاريـة منهـن بألـف دينـارٍ مغربيـةٍ وأكـثر مـن ذلـك وأقـلَّ عـلى غنائهـا لا وجههـا، ولا تبـاع إلّا ومعهـا دفـترٌ فيـه جميـع محفوظهـا، وأكـثره مـن هـذه الأشـعار التـي ذكرناهـا بأعيانهـا، فمنهـا أشـعارٌ خفـافٌ تصلـح للابتـداء... ولا بـدَّ للجاريـة المُغنِّيـة عندهـم مـن أن تكـون تُحسِـنُ الخـطَّ، وتَعـرض محفوظهـا عـلى مـن يصحِّحـه لهـا مـن وجهـة العربيَّـة، فيقـرأ مشـتريها مـا في الدَّفـتر، ويعـرض عليهـا منـه مـا أحـبَّ، فتغنِّيـه بالآلـة التـي تشـترط في بيعهـا، وربَّمـا كانـت محسـنةً في جميـع الآلات وفي جميـع أنـواع الرَّقـص والخيـال، ومعهـا آلتهـا والجـواري يُطبِّلـن عليهـا ويزّمـرن، فتسـمَّى مكملـةً، وتُبـاع بعـدة ألـوفٍ مـن الدَّنانـير المغربيَّـة، بعـشرة آلاف دينـارٍ ونحـو ذلـك»[83].

ويُفهم من هذا النَّصِّ أنَّ فنَّ الخيال كان مُقترِناً بفنَّيْ الرَّقص والغناء، وأنَّه كانت له أنواعٌ مختلفةٌ.

وقد جعل التّيفاشي عنوان الباب السَّابع من كتابه المذكور «فيما جاء من بديع النَّظم ورائقه لشعراء المشرق والمغرب في جميع أنواع الرَّقص والخيال»[84].

وأطلق الأندلسيون على من يمارس فنَّ الخيال اسم: الخياليّ، ففي حديثه عن ولاية عبدالرَّحمن بن أبي عامرٍ المُلقَّب بشنجول (ت 399هـ) يقول صاحب البيان المغرب: «فافتتح شنجول أمره بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منيةٍ إلى منيةٍ ومن مُتنزَّهٍ إلى مُتنزَّهٍ مع الخياليّين والمُغنّين والمُضحكين»[85].

وإذا صَحَّ أنَّ كلمة (الخياليّين) في هذا النَّصِّ تعني من كانوا يمارسون خيال الظِّلِّ، فإنّه يترتّبُ على ذلك أن نفهم أنَّ خيال الظِّلِّ كان شائعاً في الأندلس قبل سنة 399هـ تاريخ وفاة شنجول. وهو أمرٌ جديرٌ بالاهتمام. ومثلما جَرتْ العادة باشتقاق الأسماء من الفنون والمهن التي يقوم بها الأشخاص كالحدَّاد والعطَّار والبيطار، نجد من النَّاس في الأندلس من نُسِبَ إلى فنِّ الخيال، فسمّي بالخياليِّ، مثل أبي القاسم المصريِّ الخياليِّ [86] (كان حيّاً سنة 399هـ). ويُفهَم من مُجمَل الرِّوايات والمعلومات المتوافرة عن فنِّ الخيال عند الأندلسيّين أنَّه لم يكن وقفاً على الرِّجال وإنّما كان للنِّساء دورٌ بارزٌ فيه، ونَجِدُ وصفاً لمشهدٍ جَمَعَ بين فنَّي الرَّقص والخيال، من قصيدةٍ لأبي بكرٍ مُحَمَّدٍ بن اللبّانة الدَّاني (ت 507هـ/ 1113م)، في معرض وصفه للنّيروز والملاهي التي حضرت بين يدي ناصر الدَّولة مبشّر بن سليمان العامريِّ ملك ميورقة، يقول من أبياتها:

يا كوكب النّيروز في بهجةٍ	**أسنى من البدر المُنير اللّياحْ**
جاءت عطاياك تهادى به	**تهاديَ الغيد غداةَ اقتراح**
لو أنّ لي قوةَ عهد الصِّبا	**لم أترك النّيروزَ دونَ اصطباح**

يــومٌ رقيــقٌ ناثــرٌ ناظـمٌ ... كـافـورهُ فـوق الرُّبى والبطـاح

تلعبُ فيــه كــلُّ ميَّاســةٍ ... مَيْسَ غصونٍ تحت روح الرَّواح

في ملتـوى الأرقـمِ في جِلْـده ... في خُيَـلاءِ الخيــل عنـد المــراح

إنْ قَعَـدتْ قلتَ رُبى في ثرى ... وإنْ مَشَتْ قُلْتَ مهاً في مــراح

غيداءُ جيــداءُ لهــا معطفٌ ... يرفـلُ مـن ديبـاجـه في اتّشـاح

إنســـــيّـةٌ وحشـيّةٌ رُكِّبَتْ ... من صورة الجدِّ وشكل الـمـزاح

ســـاكنةٌ في جوفهـــا ناطقٌ ... ينطـقُ عنها بمعـــانٍ فِصـاح

كأنَّمـا حليـــتـهـا ألْسـُنٌ ... تملأ سمع الدَّهر فيـك امتـداح

يخـدمهـا كـلُّ كَمـيٍّ لـــه ... وجـــهٌ حَـيـيٌّ وفـؤادٌ وقـــاح

يجرح روحَ الرَّوع صَمْصامُهُ ... وخـدُّه يجـرحُـــه الالتمـــاح

مرهَفُـهُ نـارٌ وفضفـــاضُهُ ... ماءٌ وبين الحالَتَيْنِ اصطلاح[87]

وبالنَّظـر في هـذه النُّصـوص مُجتَمِعـةً نَجِـدُ سـائر مسـتلزمات عـروض خيـال الظِّـلِّ مـن تماثيـل، قـد تكـون مـن قـماشٍ أو غـيره، ومطحنـةٍ خشـبيَّةٍ تُثبَّـت عليهـا هـذه التَّماثيـل وتُـدار بسرعـةٍ، وحبـالٍ وشرائـطَ لتحريـك هـذه التَّماثيـل، وإضـاءاتٍ تعكـس خيـالات هـذه الدُّمـى، ومرايـا كثـيرةٍ لزيـادة عـدد صـور تلـك التَّماثيـل، والشَّـخص الـذي يُحـرِّك هـذه التَّماثيـل مـن خـلال تحريـك الحبـال، هـو ذاتـه الـذي يـسرد الحكايـات المرتبطـة بالعـرض.

وهـذه العنـاصر هـي ذاتُهـا التـي نجدهـا في الوصـف الـذي قَدَّمـه إبراهيـم حـمادة لخيـال الظِّـلِّ المـصريِّ في العهـد المملـوكي.

وتثبـتُ هـذه النُّصـوص أنَّ الأندلسـيّين عرفـوا مـسرح الدُّمـى وخيـال الظِّـلِّ في وقـتٍ مبكِّـرٍ مـن الوجـود الإسـلامي في الأندلـس وقبـل القـرن الخامـس الهجـري/ الحـادي عـشر الميـلادي،

بينما تُشيرُ مختلف الدِّراسات عن نشأة المسرح عند العرب أنَّ خيال الظِّلِّ لم يُعرَف في البلدان العربيَّة إلاّ بعد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وأنَّه انتقل إليها من الصِّين أو الهند عبر منغوليا ثُمَّ بلاد فارسٍ والبلاد التي كانت خاضعةً للسَّلاجقة، ومن ثُمَّ نقله الأتراك إلى بلاد المشرق التي أخضعوها لسيطرتهم[88]. بينما يقول الدُّكتور علي الرّاعي إنَّ اللحظة الحاسمة في ظهور خيال الظِّلِّ ترتبط بابن دانيال (شمس الدين بن عبدالله بن مُحَمَّدٍ بن دانيال بن عبدالله الخزاعي المتوفى سنة 711هـ/ 1311م)[89].

وقد انتبه محمد عزيزة في كتابه «الإسلام والمسرح» إلى وجود مسرح خيال الظِّلِّ في الشَّرقِ العربيِّ خلال القرن الحادي عشر، قائلاً: «أمّا أوّل إشارةٍ نصادفها في الأدب العربيِّ والتي تُثبتُ بشكلٍ قاطعٍ للجدال وجود مسرح الظِّلِّ في الشِّرق فإنها تعود للقرن الحادي عشر؛ ففي العالم الإسلاميِّ وقبل أن يؤلِّف ابن دانيال الموصلي (طيف خياله) الشَّهير في مصر بظلِّ السُّلطان بيبرس (1260 - 1277) أشار بعضُ المتصوِّفة المسلمين إلى مسرح الظِّلِّ مُلقِّبين إيّاه بظلِّ الخيال أو خيال الظِّلِّ أو خيال السِّتارة، وقارنوا بين العالم وبين ستارة العرض ليثبتوا نظريتهم عن الخليقة أو تفسيراتهم عن العلاقة بين الذَّات الإلهية وبين البشر. وهكذا نجد في أعمال ابن حزمٍ والإمام الغزاليِّ ومحيي الدِّين بن عربيٍّ وابن فارسٍ مسرح الظِّلِّ مستخدماً كوسيلةٍ للمقارنة أو كوجهٍ من وجوه التَّشبيه»[90].

ويعتقد بعض الدارسين أنَّ أقدم الإشارات العربيَّة إلى خيال الظِّلِّ ترجع إلى أيّام صلاح الدِّين الأيوبيّ الذي حضر مع وزيره القاضي الفاضل عرضاً لخيال الظِّلّ سنة 567هـ/ 1171م[91]. ويلاحظ أنَّ هذا التاريخ يأتي بعد أكثر من قرنٍ من معرفة الأندلسيّين لهذا الفنِّ.

ووفقاً لهذه الرِّوايات والنُّصوص والآراء، فإنّه يتَّضح أنَّ الأندلسيّين هم أقدم من عرفوا هذا الفنّ من العرب والمسلمين، وأنّهم عرفوه قبل القرن الخامس الهجريِّ/ الحادي عشر الميلاديِّ في غياب أيِّ تأثيرٍ تركيٍّ. ولعلَّ أسبقية الأندلس في معرفة فنِّ خيال الظِّلِّ تُجيب عن التَّساؤل الذي تُقدِّمُه تمارا ألكساندروفنا بوتيتسيفا عن مسرح خيال الظِّلِّ في المغرب،

حيث تقول: «من غير المعروف بالدِّقَّة متى دخل مسرح خيال الظِّلِّ إلى المغرب، لكنَّه وُجِدَ هناك بشكلٍ متطوِّرٍ في القرن السَّابع عشر، ويغلب أنَّ ظهوره في هذه المنطقة يرتبط بالسَّيطرة التُّركيَّة»[92].

ولعلَّ الإجابة عن هذا التَّساؤل: إنَّ ظهور مسرح خيال الظِّلِّ في المغرب بشكلٍ متطوِّرٍ في القرن السَّابع عشر الميلادي يُمثِّلُ التقاء الأثر الأندلسيِّ بالأثر التُّركيِّ وتفاعلهما مع غنى الموروث الفنِّي للمجتمع المغربيّ.

ولكن قد يتساءلُ المرءُ عن طريقةِ وصولِ هذا الفنِّ إلى الأندلس ومصدره.

إن ذلك يرجع إلى نزوع الأندلسيّين منذ بداية الحكم العربيِّ للأندلس إلى الرَّفاهيَّة والتَّسلية والميل إلى الغناء والرَّقص والطَّرب والموسيقى، ومن هنا كان دخول زرياب إلى الأندلس في أيَّام الأمير عبدالرَّحمن بن الحكم بن هشام في أوائل القرن الثَّالث الهجريَّ حدثاً مهمَّاً عند الأندلسيّين، وكانت نشأةُ الموشَّحة استجابةً لهذا الاهتمام البالغ بالموسيقى والغناء.

كما أنَّ الأندلس كانت مُنفَتِحةً على العالم فكان أبناؤها يرتحلون إلى كلِّ مكانٍ في أوروبا وإفريقيا وأقاصي آسيا وكانوا يَقبسون من ثقافات العالم ويأتون بها إلى الأندلس، فلا يُستَبعَد أن يكونوا قد التقطوا هذا الفنَّ من مكانٍ ما من ضمن ما نقلوه من سائر الفنون والثَّقافات. وكانت الأندلس قِبلة المتميزين من أبناء العرب والمسلمين حتى جاءوا إليها من بلاد فارس والعراق والشَّام واليمن والحجاز ومصر وتونس والمغرب وإفريقيا وأوروبا وغيرها من البلدان، ولذلك فإنها كانت مفتوحةً لمختلف أشكال التَّأثيرات الثَّقافيَّة التي قد يكون خيال الظِّلِّ واحداً منها.

ولستُ أستبعد أن يكون الأندلسيّون قد ورثوا ذلك من أسلافهم الرّومان الذين كانوا أهل عنايةٍ بأشكال التَّسلية من رياضاتٍ وألعابٍ وسواها. وربما كانوا قد نقلوا الموروثَ المسرحيَّ اليونانيَّ، وطوّروه وأعادوه إلى أوروبا. لكنني أيضاً لا أستبعد أن يكون خيال الظِّلِّ الأندلسيّ هو ابتكارٌ أندلسيٌّ طوَّره أبناء الأندلس، ولا سيّما أنّهم كانوا أهل ابتكاراتٍ

كثيرةٍ منذ وقتٍ مُبكِّرٍ كتلك الابتكارات التي قام بها عبَّاس بن فرناس وزرياب، وإذا كان الأندلسيون أهل عنايةٍ بالغةٍ بالفلك والنُّجوم، فإنّ ذلك ربَّما قادهم إلى قضايا الأجسام وظلالها وأخيلتها، وطوَّروا منها هذا الفنّ.

وفي الختام نقول إنَّ معرفة الأندلسيّين لخيال الظِّلِّ حَصَلتْ في وقتٍ مُبكِّرٍ يرجع إلى ما قبل القرن الخامس الهجريِّ/ الحادي عشر الميلاديِّ، ربّما بكثيرٍ، يُثبت أموراً، وينفي أموراً، ويُرجِّحُ أموراً أخرى. أمّا ما تُثبِتُه هذه المعرفة فهي أنَّ الأندلسيّين سبقوا الفاطميين والأيّوبيّين والمماليك والعثمانيين في معرفة خيال الظِّلِّ واتخاذه وسيلةً من وسائل التَّسلية والتَّرفيه.

وأمّا ما تنفيه هذه المعرفة، فهو: ما أشارت إليه كثيرٌ من الدِّراسات الاستشراقيَّة والعربيَّة من أنَّ خيال الظِّلِّ لم يدخل الوطنَ العربيَّ قبل القرن السادس الهجريّ/ الثاني عشر ثُمَّ الثالث عشر الميلاديين، أو بعد الحكم العثماني لمصر.

وأمّا ما تُرجِّحه هذه الدِّراسة، فهو أنَّ مصدر دخول فنِّ خيال الظِّلِّ إلى أوروبا لم يكن فقط عن طريق التَّأثير التُّركي في اليونان وإيطاليا ومصر وتونس، كما يراه كثيرٌ من المُستشرقين[93]، بل تُرجِّح أن تكون الأندلس أهمَّ مصدرٍ من مصادر وصول هذا الفنِّ إلى أوروبا، لأنَّ وجود هذا الفنِّ في الأندلس سبق وجوده حتى في تركيا، فبينما تُثبِت الدِّراسات أنَّ هذا الفنّ كان في الأندلس قبل عام 440هـ/ 1048 م، فإنها ترى أنَّ دخوله إلى تركيا كان على يد المغول بعد منتصف القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ. وإذا كان العرب موجودين في الأندلس منذ بداية القرن الثَّامن الميلادي، فإنَّ اتصال الأتراك باليونان وإيطاليا لم يكن إلاّ بعد الفتح العثماني لمصر سنة 1517م. ومن الطَّبيعي أن يكون تأثير الجار الأندلسيِّ – الذي كان على تواصلٍ مستمرٍ مع أوروبا- أكبر وأكثر احتمالاً من تأثير الجار التُّركي. ولماذا يتأخَّر دخول خيال الظِّلِّ إلى أوروبا إلى حين مجيء العثمانيّين في القرن السَّادس عشر ما دام موجوداً عند جارتها الأندلس قبل ذلك بأكثر من أربعة قرونٍ!

قُبَّة عبّاسٍ بن فرناس الفلكية

اقترَنَتْ شُهرةُ عبَّاسٍ بن فرناس (ت 274هـ) بمحاولته الطَّيران التي اشتهر بها في الشَّرق والغرب[94]. وقد غَلَبَ خبر هذه المحاولة على إبداعاتٍ أخرى كثيرةٍ لعبَّاسٍ بن فرناس؛ فقد وصفه ابن سماك العاملي بما يلي: «وكان عالماً مُتفنِّناً وفيلسوفاً حاذقاً وشاعراً مُفْلِقاً ومُنجِّماً مُحقِّقاً جيّد الاختراع كثير الإبداع»[95]. ووصفه ابن حيّان القرطبي في كتاب المُقتبس قائلاً: «وكان مثلاً في براعته واحتوائه على كلِّ فنٍّ من فنون التَّعاليم قديمها وحديثها، وكانت وسيلته إلى الأمير عبدالرَّحمن العَروض وفكّ دوائره»[96].

ووصفه حرقوص (أبو سعيدٍ عثمان بن سعيدٍ الكناني الجيّاني ت 320هـ) في كتابه طبقات الشُّعراء بالأندلس، بأنه «كان أبصر النَّاس بالنُّجوم وأعلمهم بدقائقها وأعرفهم بالفلك ومجاريه»[97]. ووصفه ابن سعيدٍ في المغرب بأنَّه كان «صاحب نيرنجاتٍ كثير الاختراع والتَّوليد واسع الحيل»[98].

وقد انشغل عبَّاسٌ بن فرناس إلى جانب محاولته الطَّيران بالفلسفة والفلك والنُّجوم والنَّحو واللُّغة والعَروض والموسيقى والشِّعر، وأبدع في صناعة المنقانة أو الميقاته لمعرفة الأوقات، وذات الحلق (آلة فلكيّة تُمثِّل حركة الكواكب السَّماويَّة) وصناعة الزُّجاج وصناعة التَّماثيل والسِّحر والتَّنجيم والغناء وضرب العود ووضع الألحان.

وبسبب ذلك وصفه حرقوص، أبو سعيدٍ عثمان بن سعيدٍ الكناني الجيّاني (ت 320هـ) بقوله: «إنَّه كان بعيد الغَوْر رقيق الذِّهن له شخصُ إنسيٍّ وفطنة

جِنّـيٍّ»[99]. ووصفـه ابـن حيّـان القرطبـي بــ «حكيـم الأندلـس الزَّائـد عـلى جماعتهـم بكـثرة الأدوات والفنــون»[100].

ومـن بـين مـا تميَّـز بـه عبَّـاسٌ بـن فرنـاس القُبَّـة الفلكيَّـة Planetarium التـي اشـتملت على النُّجـوم والغيـوم والـبروق والرُّعـود، وفي ذلـك يقـول صاحـب «نفـح الطِّيـب» عـن ابـن فرنـاس: «صنـع في بيتـه هيئـة السَّـماء وخيّـل للنَّاظـر فيها النُّجـومُ والغيـومُ والـبروقُ والرُّعـود» [101].

ويبــدو أنَّ هــذه القُبَّــة كانــت واســعةً وكبــيرةَ الحجــم إلى الدَّرجــة التــي تســمح للمُتفرِّجـين أن يجلسـوا تحتهـا ويراقبـوا مـا تشـتمل عليـه مـن ظواهـر فلكيَّـةٍ، كـما يُفهَـم مـن أخبـار هـذه القُبَّـة أنَّ ابـن فرنـاس اسـتخدم تَقنيَّـةً خاصَّـةً لتشـغيلها بحيـث يجعلهـا تُصـدِر أصواتـاً كالرَّعـد وأضـواءً كالـبرق ولمعانـاً وحـركاتٍ كلمعـان النُّجـوم وحركاتهـا، وبخـاراً أو أشـكالاً تشـبه الغيـوم، ويُفهَـم مـن أخبـار هـذه القُبَّـة أنَّ ابـن فرنـاس كان يدعـو أصدقـاءه وسـواهم للجلـوس تحـت هـذه القُبَّـة ومشـاهدة مـا فيهـا، وهـذا مـا يُفهَـم مـن قـول الشَّـاعر مؤمـن بـن سـعيدٍ في وصفهـا[102]:

قعَدْتُ تحتَ سماءٍ لابن فرناس	**فخلْتُ أنّ رحىً دارت على راسي**
ســماءُ أنْـوَكَ ســوّاها وحفَّفها	**بحيــةٍ ذاتِ أنيــــابٍ وأضْراسِ**
لها نجــومٌ تُنبّي أنَّ خــــالقها	**إذا نظــرْتَ إليـها أحمقُ النَّاسِ**
يُمْسي ويُصبِحُ من شُغْلٍ بصنعتها	**نجـيَّ هَــمٍّ وتفكـيرٍ ووســواس**
كانَ الجــدير بأن يَرْقى إليه بها	**راقٍ فيـدحو به منها على الرَّاسِ**

ويتَّضـح مـن هـذا الوصـف أنَّ ابـن فرنـاس قـد اسـتخدم آلاتٍ مـا مـن أجـل تشـغيل تلـك القُبَّـة، وأنَّ هـذه الآلات كانـت تُنتِـج صوتـاً مُتَّصـلاً يشـبه صـوت الرَّحـى، وهـو غـير الصَّـوت الـذي يصـدر عـن هـذه القُبَّـة لتمثيـل صـوت الرَّعـد. ومـع أنَّ مؤمـن بـن سـعيدٍ

ينتقد عبَّاسَ بن فرناس في اختراعه لهذه القُبَّة إلاّ أنّه يُقدِّم وصفاً مُهمَّاً له إذ يشير إلى نجومها وحوافِّها التي على شكل أفعى وكونها مستديرةً.

ولستُ أستبعد أن يكون عبَّاس بن فرناس قد استعان بوسائل هندسيَّةٍ لهذه الغاية، والدَّليل على ذلك ما أورده ابن حيّان القرطبي في كتابه «المُقتبس» عن صناعة ابن فرناس للتَّماثيل قائلاً: «قال الحسن بن مُحَمَّدٍ بن مُفرّج: كان عبَّاسُ بن فرناس الحكيم الشَّاعر لا تزالُ تفره قريحته الحكميَّة يخترع الطُّرَف الملوكيَّة، ويولّد الطُّرَف المُعجبة ذوات الصُّور الجميلة والحركات البديعة بتلوّنها وإفراغ المياه منها في البِرك وغيرها، ويستعين في إقامة أشخاصها ومعالجة هندستها بأصبغ عريف النَّجَّارين في القصر، يُعلِّمه عملها... بصنعتها،....»[103].

فإذا كان عبَّاسُ بن فرناس قد استعان بعريف النَّجَّارين في هندسة تماثيله وجعلها ذات حركاتٍ بديعةٍ، فرُبّما يكون استعان به في هندسة قُبَّته الفلكيَّة وفي تحريك مكوِّناتها من النُّجوم والبروق والغيوم وإصدار أصوات الرُّعود، بإشراف عبَّاسٍ بن فرناس، فمن يقدر على تحريك التَّماثيل على البِرك بحركاتٍ بديعةٍ لا يُعجزه أن يقوم بمثل ذلك في تنفيذ إنشاء القُبَّة الفلكيَّة.

وممّا قاله مؤمنُ بن سعيدٍ في وصف هذه القُبَّة:

سماءُ عبَّاسٍ الأديبِ أبي ال ... قاسمِ ناهيك حُسْنُ رائقها

أمّا ضراط استه فراعدها ... فليت شعري ما لمع بارقها

أجلْتُ عينيَّ في مغاربها ... فحار طرفي وفي مشارقها

هِمٌّ له في جنونه همٌ ... يقصر كيوانُ عن شواهقها

لقد تمنَّيْتُ حين دوَّمها ... فكري بالبصق في استِ خالقها[104]

وعلى الرَّغم من سخرية مؤمن بن سعيدٍ في هذه الأبيات التي سبقتها من هذه القُبَّة وصاحبها إلاّ أنَّ الفضل يرجع لهذا الشَّاعر مؤمن بن سعيدٍ (ت 267هـ) في كشف بعض الحقائق المُهمَّة عن هذه القُبَّة؛ فهو يشير إلى ثلاثة مكوِّناتٍ لها وهي: الرَّعد والبرق واستدارة القُبَّة.

وقد استخدم الشَّاعر الفعل (دوّمها) الدال على الاستدارة، لأنَّ الفعل (دوّم) معناه (دَوَّر) ولا يكون التَّدويم إلّا في السَّماء دون الأرض[105].

ومن جهةٍ ثانيةٍ فإنَّ مؤمنَ بن سعيدٍ، وإن كان ذهب في أبياته هذه مذهب الهجاء لعبَّاسٍ بن فرناس، إلّا أنّه لم يملك أن يتجاهل إبداعه في هذه القُبَّة حين قال:

سماءُ عبَّاسٍ الأديب أبي ال قاسمِ ناهيك حُسْنُ رائقها

وممّا يلفت النَّظر في أبيات مؤمن بن سعيدٍ أنّه وصف ابن فرناس بأنَّه (خالقها) أي خالق هذه السَّماء التي مثَّلتها قُبَّته الفلكيَّة، وتجرّأ مؤمن بن سعيدٍ بشتم هذا الخالق والتَّطاول عليه، ولهذا الوصف دلالتان مُهمَّتان: الأولى أنَّ مؤمن بن سعيدٍ يرى في ما اخترعه عبَّاس بن فرناس بأنَّه يرقى إلى درجة (الخلْق) أي أنه جاء باختراعٍ إبداعيٍّ جديدٍ عظيم القيمة والشَّأن.

والدَّلالة الثَّانية أنَّ ذلك يعكس حساسيّة المجتمع الأندلسيّ إزاء أيِّ محاولةٍ لتقليد الخالق، ولا سيّما إذا كان الأمر مُتعلِّقاً بخلْقِ سماءٍ فيها نجومٌ وغيومٌ ورعودٌ وبروقٌ، ولهذا وَجَدَ مؤمن ابن سعيد نفسه في حِلٍّ من التَّطاول على هذا الخالق الجديد.

وفي حديثه عن أهل الأندلس يقول المقّري في كتابه «نفح الطِّيب»: «وكلُّ العلوم لها عندهم حظٌّ واعتناءٌ، إلّا الفلسفة والتَّنجيم، فإنّ لهما حظّاً عظيماً عند خواصِّهم، ولا يُتَظاهَرُ بهما خَوْفَ العامَّة، فإنَّه كلّما قيل: «فلانٌ يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتَّنجيم»، أطلقت عليه العامَّة اسم زنديقٍ، وقيِّدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ

في شبهةٍ رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسُّلطان، أو يقتله السُّلطان تقرُّباً لقلوب العامَّة، وكثيراً ما يأمر ملوكُهم بإحراق كتب هذا الشَّأن إذا وِجِدَتْ، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أوّل نهوضه وإنْ كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري، والله أعلم»[106].

ولا أظنُّ أنَّ مؤمن بن سعيدٍ كان بريئاً من محاولة التَّسبُّب في اتهام عبَّاسٍ بن فرناس بالزَّندقة، فقد قال ابن سعيدٍ عن ابن فرناس «إنه كان واسع الحيل حتى نُسِبَ إليه السِّحْرُ والكيمياء وكثَرَ عليه الطَّعْنُ في دينه»[107]. ولا سيّما أنَّ العلاقة بين عبّاسٍ بن فرناس ومؤمن ابن سعيدٍ لم تكن على ما يُرام، وكانت بينهما مهاجاةٌ، حتى وصف ابن حيّان القرطبي عبّاسَ ابن فرناس بأنه «قرن مؤمن ومُناصِبُهُ في التهاجي»[108]، ووصف مؤمنَ بنَ سعيدٍ بأنّه «ندّ عبّاسٍ ورسيله»[109]. وأشار صاحب كتاب «المُغْرب في حُلى المَغْرب» إلى ما بين الشَّاعرين من المُهاجاة، فقال متحدِّثاً عن عبّاسٍ بن فرناس «ونشأ بينه وبين مؤمن بن سعيد مهاجاة، فأفحش الاثنان»[110].

وعندما انتقد مؤمن القُبَّة الفلكيَّة التي أنشأها عبّاسٌ بن فرناس بقوله:

قعدتُ تحتَ سماءٍ لابن فرناس فخلْتُ أنَّ رحى دارتْ على راسي

ردّ عليه ابن فرناس بقوله (على لسان مؤمن)[111]:

قعدتُ من فَوْقِ عَرْدٍ لابن فرناسِ فخلتُه ناتئاً شبراً على راسي

وعلى ذلك فإنَّني أرى أنَّ أبيات مؤمن بن سعيدٍ في وصف سماء ابن فرناس – كما أطلق عليها- وإن كانت تدلُّ على إعجابه بها، إلّا أنَّها تَدلُّ في الوقت ذاته على

سعي مؤمن بن سعيدٍ لتأليب العامَّة على عبَّاسٍ بن فرناس.

وساق لنا مُحَمَّدُ عبدالله عنان في كتابه «تراجمُ إسلاميَّةٌ شرقيَّةٌ وأندلسيَّةٌ»[112] قصَّةَ محاكمة عبّاسٍ بن فرناس بتهمة الزَّندقة والكفر، ويذكر بأنَّه نقل هذه القصَّة من قطعةٍ مخطوطةٍ من تاريخ ابن حيّان حصل على صورتها من مكتبة جامع القرويين بفاس.

وجاء في هذه القصَّة «أنَّ ابن فرناس قد اعتُقِل وقُدِّمَ للمحاكمة أمام قاضي قرطبة سليمان بن أسود الغافقي، وعُقِدَتْ المحاكمة بالمسجد الجامع، وهرع النَّاس لشهودها، واجتمع حشدٌ من العامَّة للشَّهادة عليه، ومن أقوال الشُّهود قول أحدهم: سمعتُ ابن فرناس يقول: مفاعيلُ مفاعيلُ، ومنهم من قال: «رأيت الدَّم تفور من قناة داره ليلة ينير» إلى غير ذلك ممّا يصفه ابن حيّان بأحموقاتٍ من غتراء شهودٍ عليه ذوي جهلٍ وفدامةٍ.

وكان القاضي سليمان بن أسود، بالرغم من صرامته، ذهناً مستنيراً، فلم ترقْهُ تلك التّرّهات، ولم يجد فيها طائلاً، فشاور جماعة الفقهاء فيما قيّد منها، ولم يجد سبيلاً إلى مؤاخذة ابن فرناس، وقضى ببراءته وإطلاق سراحه».

لقد فاق اهتمام عبَّاسٍ بن فرناس بالفلك ومتعلقاته اهتمامه بسائر الفنون الأخرى، وكان أولى به أن يَشتَهِرَ في هذا الجانب مثل اشتهاره بموضوع محاولة الطَّيران إنْ لم يكن أكثر منها ولذلك فإننا نجد مصطلحات الفلك مبثوثةً في معظم ما وصلنا من مقطوعاته الشِّعرية، وفي مختلف الأغراض الشِّعرية التي نظم فيها من مدحٍ ووصفٍ وغزلٍ وهجاءٍ. ومن أمثلة ذلك قوله في مدح الأمير مُحَمَّدِ بن عبدالرَّحمن بن الحكم (ت 273هـ)[113].

ما غابتْ الشَّمسُ حتّى أشرقَ القمرُ محمدٌ فارتضاه اللـه والبَشَرُ

بذاك تخبرنا غرُّ النجومِ كما أوحى إليها بذاك الشَّمسُ والقَمَرُ

وقوله[114]:

رأيتُ أميـرَ المؤمنين مُحَمَّـــداً وفي وجـهــه بدر المَجــرَّة يُبْصَرُ

هُمامٌ كأنَّ الشَّمسَ تُلقي شعاعَها على الخلق منه حين يبدو ويَظهَرُ

وفي وصفـه للقـصر الـذي أنشـأه الأمـير مُحَمَّـدٍ بـن عبدالرَّحمـن في منيـة الرّصافـة، يقـول[115]:

حنايا كأمثالِ الأهلّة رُكِّبت على عمدٍ تعتدُّ في جوهر البدْر

نؤوم الضُّحى ضافي العلى سجسج السنا تضيء بلا شمسٍ عليها ولا بدرِ

ومن قوله في الغزل[116]:

إنَّ تلك التي أحـِنُّ إليهــا وعذابي وراحتي في يديْها

نَظَرَ النَّاسُ في الهلال لفِــطرٍ فتبدّتْ فأفطروا إذ رأوها

ذاك في سبعةٍ وعشرين يوماً فذنوب العباد طُرّاً عليْها

و يلاحـظ في هـذه الأبيـات انتشـار مفـردات كثـيرة تتصـل بالفلـك مثـل: الشَّـمس والقمـر والبـدر والمجـرَّة والشُّـعاع والنُّجـوم والأهلَّـة والسَّـنا والفِطـر، وهـي مفـردات وقعـت في شـعره مـن عـالم اهتماماتـه العلميَّـة.

ومـمّا ينبغـي الالتفـات إليـه أنَّ إنشـاءَ عبَّـاسٍ بـن فرنـاس للقُبّـةِ الفلكيَّـةِ في بيتـه عـلى النَّحـو الـذي وصفنـاه لا بـدَّ أن يكـون وجـد تشـجيعاً ودعـماً مـن أمـراء قرطبـة في زمنـه؛ عبدالرَّحمـن بـن الحكـم الأمـويّ وابنـه الأمـير مُحَمَّـد، وتقـوم عـلى ذلـك شـواهدُ عـدَّة:

أوّلهـا: مـا أورده ابـن حيّـان في كتـاب المُقتبـس «إنَّ الأمـير عبـد الرَّحمـن أجـرى عـلى عبّـاسٍ رزقـين: رزقـاً للشِّـعر، وآخـر للتَّنجيـم، وأزلفـه بالمُنادمـة»[117].

ثانيهـما: أنَّ الأمـير مُحَمَّـد بـن عبدالرَّحمـن قـد وعـدَ عبّـاسَ بن فرنـاس بتزويـده بتقويمٍ فلـكيٍّ كان لـدى الأمـير عبدالرَّحمـن، وقـال عبّـاسٌ مخاطباً الأمـير مُحَمَّـداً في ذلك[118]:

ولا تنسينَّ الدَّفتر المُحكم الذي ... هـو الغـايـة القصـوى....
فيا أسفي أن نالَ مكنونَ علمه ... سواكَ من الأملاك في غير ذا العَصْرِ
.....الخ

وثالثهـا: أنَّ عبّـاسَ بـن فرنـاس عندمـا صَنَـعَ الآلـة الفلكيَّـة المسـمَّاة ذات الحَلَـق، لأنَّهـا تتكـون مـن عِـدَّة حلقـاتٍ متداخلـةٍ في وسـطها كـرةٌ مُعلَّقـةٌ تُمثِّـل حركـة الكواكـب السَّـماويَّة، رفعهـا للأمـير عبدالرَّحمـن الأوسـط ابـن الحكـم الأمـوي وكتـب عليهـا أبياتـاً هـي[119]:

قـد تمَّ مـا حمّلتنـي من آلـةٍ ... أعيا الفلاسفة الجهابذ دوني
لو كان بطليمـوس أُلهمَ صنعةً ... لم يثَّقلْ بجداول القـانونِ
فإذا رأتْهُ الشَّـمسُ في آفـاقها ... بعثَتْ إليـه بنورها الموزونِ
ومنازل القمر التي حجبتْ معاً ... دونَ العيون بكلِّ طالعِ حين
يبدون فيهـا بالنَّهـار كما بدَتْ ... بالّليـل في ظلماتهـنَّ الجُونِ

ويتَّضـح مـن هـذه الأبيـات بجـلاءٍ أنَّ عبدالرَّحمـن بـن الحكـم هـو الـذي كلَّـف ابـن فرنـاس صناعـة هـذه الآلـة لمعرفـة حركـة الكواكـب السَّـماويَّة.

ورابعهـا: أنَّ عبّـاسَ بـن فرنـاس عندمـا صَنـعَ المنقانـة «عـلى غـير رسـمٍ ومثـالٍ» لمعرفـة الأوقـات رفعهـا للأمـير مُحَمَّـدٍ بـن عبدالرَّحمـن ونقـش عليهـا أبياتـاً هـي[120]:

ألا إنّني للدِّيــن خَيْرُ أداةِ إذا غابَ عنكُم وقتُ كلِّ صلاةِ

ولم تُر شمسُ بالنَّهار ولم تُنَرْ كــواكبُ ليلٍ حالكِ الظُّلُماتِ

بيُمنِ أمير المُسلمين مُحَمَّدٍ تجلّتْ عن الأوقاتِ كــلّ صلاةِ

ويُفهَـم مـن هـذه الأبيـات أنَّ الأمـيرَ مُحَمَّـد بـن عبدالرَّحمـن بـن الحكـم قـد شَـجَّع عبّـاسَ بـن فرنـاس عـلى صناعـة هـذه الآلـة الفلكيَّـة، ولمّـا أتمَّهـا رفعهـا لـه.

ويتَّضح كذلك مـن وصـف آلـة ذات الحَلَـق أنَّهـا ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالقُبَّـة الفلكيَّـة التـي أنشـأها ابـن فرنـاس، فـذات الحَلَـق تُمثِّـل حركـة الكواكـب السَّـماويَّة، والقُبَّـةُ الفلكيَّـة تـودّي الغـرض نفسـه مـع أغـراضٍ أخـرى كالرَّعـد والـبرق والغيـوم. وفي ظنّـي أنَّ الـذي كلَّـف ابـن فرنـاس صناعـة ذات الحَلَـق كلَّفـه بعـد ذلـك إنشـاء القُبَّـة الفلكيَّـة، وأنَّ إقامـة هـذه القُبَّـة جـاء تاليـاً لصناعـة ذات الحَلَـق.

لقـد تَعـرَّضَ عبّـاسٌ بـن فرنـاس لظلـمٍ شـديدٍ في حياتـه نتيجـةَ ابتكاراتـه المُتميِّـزة، ولم تشـفع لـه علاقتـه الحميمـة بأمـراء عـصره ولا مـا اخترعـه مـن إبداعـاتٍ لم يسـبقه إليهـا أحـدٌ، كـما تعـرَّض للظُّلـم مـن المؤرِّخـين والدَّارسـين اللاحقـين الذيـن لم ينصفـوه، وأنَّ مـا أوردوه عنـه في كتبهـم لم يكـن بدافـع إنصافـه، بـل بدافـع التَّعبـير عـن الدَّهشـة مـن محاولتـه الطَّـيران.

الرَّقصُ على الحِبالِ في الأندلس

مـن الأمـورِ التـي تقـترن بهـا الحضـارة مراعـاة الدِّقَّـة والإتقـان والتَّركيـز، فـإذا اجتمعـت هذه العنـاصر الثَّلاثـة في أي سـلوكٍ أو تفكيـرٍ أو صنعـةٍ ضمنـت لـه النَّجـاح، وإذا كان المجتمـع يتَّخـذ مـن هـذه العنـاصر نهجـاً حياتيـاً، فإنـه يغـدو بالنَّتيجـة مجتمعـاً يتَّسـمُ بالتَّحـضُّر والتَّمدُّن.

ومـا دام المجتمـع الأندلـسي قـد اشـتهر بتَحـضُّره فليـس مسـتغرباً أن نجـدَ مـن أبنائـه مـن تبلـغ مراعاتـه للدِّقَّـة والتَّركيـز في أدقِّ التَّفاصيـل للأشـياء والأمـور التـي يتعامـل بهـا أن يرقـص عـلى الحبـال بمهـارةٍ بالغـةٍ يشـهد لـه بهـا الشُّـعراءُ إلى حـدِّ الإعجـاب الشَّـديد.

والرَّقـصُ عـلى الحبـال عنـد الأندلسـيّين كان صـورةً مـن صـور الألعـابِ البهلوانيَّـةِ التـي اشـتهرتْ عندهـم، فقـد وصـف ابـن بسّـام الشـنتريني (ت 542هــ) في كتابـه «الذَّخـيرة في محاسـن أهـل الجزيـرة» مشـهداً لأحـد العـروض البهلوانيّـةِ جَـرَتْ في قـصر المعتصـم بـن صـمادح ملـك المريّـة في عـصر ملـوك الطَّوائـف، واشـترك في هـذا العـرض لاعـبٌ مـصريٌّ وفتـاةٌ مهدويّـةٌ بأنـواعٍ مـن اللّعـب المُطـرب والسِّـحر، فقـال: واصطبـح المعتصـم يومـاً مـع ندمائـه، وأظهـر صبيَّـةً مهدويّـةً في أنـواعٍ مـن اللّعـب المُطـرب، وحـضر أيضـاً لاعـبٌ مـصريٌّ هنالـك، فارتجـل ابـن الحَـدَّاد[121] يصـف ذلـك:

كــذا فلتلُــحْ قمــراً زاهــــرا ... وتجني الهوى ناظراً ناضِرا

وأســــــمعْتَنـا لاحنــاً فـاتناً ... وأحضـرتنا لاعـباً سـاحرا

يزفّن[122] فوقَ رؤوس القيانِ ... فتنظر ما يُذْهِلُ النَّـاظِـرا

ويخطفـــهـــا ذيلُ سربالـه فتبصِرُ طالِعَـهـــا غائـرا
فظـــاهـرهـــا ينثني باطناً وباطنُـهـا ينثني ظـاهـرا
وثنّـــاهُ ثـــانٍ لألعـــــابه دقائق تثني الحِجا حائرا
....الخ[123]

ويُفهَم من هذا الخبر أنَّ الأندلسيّين كانوا يطربون لهذا اللّون من الألعاب البهلوانيّة وكانت تثير لديهم الدَّهشةَ والحيرةَ لما تحتويه من حركاتٍ عجيبةٍ، ولذلك فإنَّهم كانوا يستدعون مثل هؤلاء اللاعبين من بلدانٍ خارج الأندلس، فالفتاة من المهديّة، واللاعب من مصر.

وفي حديث الشَّقُنْدي (ت 629هـ) في رسالته «تفضيل الأندلس على برِّ العدوة» عن مدينة أبدة[124] يقول إنَّ فيها «من أصناف الملاهي والرَّواقص المشهورات بحُسن الانطباع والصَّنعة، فإنهنَّ أحذقُ خلق الله باللّعب بالسّيوفِ والدّكّ وإخراج القرويّ والمرابط والمتوجّه»[125].

ويُلاحَظُ في هذا الخبر أنَّه يبيّن مدى شيوع الرَّقص في مدن الأندلس بين الرِّجال والنِّساء على السَّواء، وأنَّه كان يوجد نساءٌ مشهوراتٌ بذلك،، وأنَّ هذا الرَّقص كان يرتبط بالألعاب البهلوانيَّة كاللّعب بالسّيوف والدّكّ وهو السِّحر. ومن أشهر الألعاب التي عُرِفت عند أهل الأندلس ممّا يدخل في باب الألعاب البهلوانيَّة الرقص على الحبال، وهو أن يمشي اللاعبُ على الحبل ويحمل خشبةً على إصبعه، أو يجعل على جبهته خشبةً كبيرةً، ثمّ يركبها إنسانٌ آخر وهي على جبهته[126].

ولا يختلف هذا الوصف للمشي على الحبال وما يرافقه من مهاراتٍ أخرى عن صورة هذه اللّعبة في الوقت الحاضر في عروض (السِّيرك) المختلفة.

ويتحدَّث ابن الدرَّاج السَّبتي عن نوعٍ من الرَّقص البهلواني يقول إنَّه يصدر عن اللاعب المُسمّى «السّنديّ» وهو جامعٌ بين الخِفَّة والشِّدَّة[127].

ويورد ابن الدرَّاج أبياتاً لأبي الحسن علي بن يوسف بن خروفٍ القرطبي (ت 620هـ)[128] في وصف راقصٍ يؤدِّي مجموعةً من الحركات، وهي[129]:

ومنوّعِ الحركاتِ يلعبُ بالنُّهى ... لبِسَ المحاسنَ عند خلعِ لباسِه

متأوِّداً كالغُصْنِ وسط رياضِهِ ... متلاعباً كالظَّبي عند كِناسه

بالعقلِ يلعبُ مُقبلاً أو مُدْبِراً ... كالدَّهرِ يلعبُ كيف شاءَ بناسِهِ

ويضمُّ للقدمين منه رأسه ... كالسّيف ضُمَّ ذُبابه لرياسه

وقد عُنيَ بنو الأحمر إبَّان حكمهم لمملكة غرناطة (635 - 897هـ) بالاحتفال بالمناسبات الوطنيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة، وكانوا ينظمون ألواناً من العروض العسكريَّة والرياضيَّة، وكان من بين العروض الرياضيَّة مصارعة الثِّيران وألعاب الفروسيَّة ورياضة (الطَّبلة) أو (الطَّلبة) وسباق الخيل وركوب العربات المجرورة والرَّقص على الحبال.

وقد وصف شعراء ذلك العهد عروض الرَّقص على الحبال، فمن ذلك أبياتٌ للسان الدِّين ابن الخطيب (ت 776هـ)، حيث يقول: وقلْتُ في بحريٍّ يتلاعبُ على شريطٍ صاعداً ونازلاً في الفضاء ممّا قضي منه العَجَب:

وبحريٍّ تلاعَبَ في شريطٍ ... وحيَّ الفِعْلِ متّصلَ الصُّموتِ

تدلّى وارتقى وسما وأهوى ... فأعجَبَ في التَّماسُك والثُّبوتِ

فقلنا: إن يكُنْ بشراً سويّاً ... ففيه غريزةٌ من عنكبوتِ[130]

ويلاحظ أنَّ ابن الخطيب يذكر الحبل (أو الشَّريط) في هذه الأبيات، ويصف اللّعب على الحبال وصفاً حيّاً ودقيقاً يجعل القارئ يحسُّ بأنَّه يشاهد عرضاً للرَّقص على الحبال بأدقِّ تفاصيله وحركاته.

ومـن الشُّـعراء الذيـن وصفـوا الرَّقـص عـلى الحبـال في عـصر بنـي الأحمـر الشَّـاعر ابـن زمْـرَك الغرناطـي[131]، فقـد نظـم قصيـدةً طويلـةً مطلعهـا:

أرسلته دمعاً تضرَّجَ بالدَّمِ ألِلَمْحةٍ من بارقٍ مُتبسِّمِ

وذلـك بمناسـبة الاحتفـال الـذي أقيـم للأميريـن سـعدٍ ونـصرٍ ابنـي السُّـلطان الغنـيِّ باللـه، يقـول مـن بعـض أبياتهـا في وصـف راقـصٍ عـلى الحبـال[132]:

ومنوّعِ الحركاتِ قد ركبَ الهوا يمشـــي على خـــطٍّ به مُتَوَهَّـمِ

فإذا هوى من جوِّهِ ثُمَّ استوى أبصرْتَ طيْراً حلَّ[133] صورةَ آدمي

يمشـــي على فَنَنِ الرِّشاء كأنَّهُ فيـــه مُســـاوِرُ ذابلٍ أو أرْقـــمِ

ويظهـر مـن هـذا الوصـف أنَّـه يتشـابه إلى حـدٍّ كبـيرٍ مـع أبيـات ابن الخطيـب السَّـابقة في وصـف اللاعـب (منـوّع الحـركات) والحبـل (فنـن الرِّشـاء) والحـركات، وكذلـك في التَّشـبيهات المختلفـة لهـذه اللاعـب، ممّا يـدلُّ عـلى أنَّ ابـن الخطيـب وابـن زمـرك كان كلاهـما يحـضر هـذه الاحتفـالات مـع سـلطان غرناطـة في أيامهـما الغنـيّ بالله مُحَمَّـد الخامـس (ت 793هـ).

ويعـود ابـن زمـرك بعـد ذلـك لوصـف اللاعـب عـلى الحبـال في مُخَمَّسـةٍ أخـرى نظمهـا بمناسـبة الصَّنيـعِ المُختـصِّ بالأمـراء أبي الحسـن وأبي العبّـاس وأبي عبداللـه، ومـن أبيـات هـذه المُخَمَّسـة:

ومضطربٍ في الجوّ أثبتَ قامةً تقدَّم يمشـي في الهواءِ كرامةً

تطلَّعَ في غُصْنِ الرِّشـاء كِمامةً وتحسبه تحتَ الغمامِ غمامةً

يسيلُ على أعطافِها عَرَقُ الندى

هوى واستوى في حالـه وتقلّبا كـخـــاطِف برْقٍ قـد تألّـقَ خُـلَّبا

وتحسبُه قد دارَ في الأُفْقِ كوكباً ومهما مشى واستوقَفَ العَقْلَ مُعْجِبا

تُقلِّبُ فيه العينُ لحظاً مردّدا

لقـد رامَ يرقى للسّـمَاءِ بسُــلّمِ فيمشـي على خطٍ بـه متوهّمِ

أجِلْ في الذي يُبديه فكر توسُّمِ ترى طائراً قد حلَّ صورة آدمي

وجِنّاً بمهـواةِ الفضاءِ تمـرَّدا (134)

والنّاظـر في هـذه المُخمَّسـة يجـد فيهـا تكـراراً لبعـض مفـردات الأبيـات السَّـابقة وصورهـا وأوصافهـا، مـمّا يزيـد مـن تجليـة صـورة تلـك اللعبـة التـي تصفهـا الأبيـات.

ويتَّضـحُ مـمّا سـلف أنَّ رياضـة الرَّقـص عـلى الحبـال كانـت شـائعةً في الأندلـس، وأنَّ شـعراء الأندلـس قـد وصفـوا مـا شـاهدوه مـن عـروض هـذه الرِّياضـة. ويتَّضـح مـن خلال الوصـف أنَّ هـذه الرِّياضـة لم تكـن تختلـف بكثـيرٍ أو قليـلٍ عنهـا في الوقـت الرَّاهـن، إذ كانـت تعتمـد عـلى نصـب حبـالٍ رفيعـةٍ في الهـواء لا تـكاد العـين تراهـا، حتّـى وصفهـا الشُّـعراء بالخَـطِّ المتوهَّـم، وأنَّ اللاعبـين لم يكونـوا يمشـون عـلى هـذه الحبـال فقـط بـل كانـوا يـؤدّونَ حـركاتٍ مختلفـةٍ عليهـا صعـوداً وهبوطـاً وتَقلُّبـاً كأنَّهـم الجِـنّ أو العنكبـوت أو غـير ذلـك. وقـد يحمـل لاعـبٌ لاعبـاً آخـر في أثنـاء مشـيه عـلى الحبـل.

وقـد كانـت هـذه الرِّياضـة تُمـارَسُ في الاحتفـالات التـي يُجريهـا ملـوك الأندلـس في المناسـبات المختلفـة ضمـن ألـوانٍ أخـرى مـن العـروض الفنّيّـة والرِّياضيّـة المختلفـة.

الزُّرْزورُ النَّاطِق

عُرِفَ عن الأندلسيّين عنايتُهم بالطُّيور وتربيتها في منازلهم واستخدامها في تسليتهم ورياضتهم ووصفها في أشعارهم ورسائلهم، ولعلَّ خِصْبَ الأندلس وجمال طبيعتها وكثرة مياهها وأشجارها وتنوّع بيئاتها ومناخها جعل منها موطناً مناسباً لصنوفٍ شتّى من الطيور. وقد نقل المقّري في نفح الطِّيب[135] عن كتاب المُسْهِب للحجاريّ في وصف نهر قرطبة، وهو نهر الوادي الكبير أنَّه «مُكْتَنَفٌ بديباج المروج، مُطرَّزٌ بالأزهار، تَصْدَحُ في جنباتِهِ الأطيار...».

ولم يغفل الأندلسيّون في وصفهم لجزيرتهم ولمدنهم ذكر الطُّيور، إذ كانت عنصراً ملازماً لأوصافهم، فعندما وصف ابن سَفَرٍ المريني المدَّ والجزر في نهر إشبيلية قال[136]:

شقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِهِ فانْسابَ من شَطَّيْه يطلُبُ ثارَهُ

فتضاحكَتْ وُرْقُ الحمامِ بدَوْحِهِ هـُزْءاً فضمَّ من الحياءِ إزاره

ويقول ابن سَفَرٍ أيضاً من قصيدةٍ أخرى له في وصف الأندلس[137]:

لذاك يبسِمُ فيها الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ والطَّيْرُ يشدُو وللأغصانِ إصغاءُ

و يقول المقّري عن الطُّيور في الأندلس[138]: «ولها من الطُّيورِ الجوارحِ وغيْرِها ما يكثرُ ذكْرُهُ ويطول».

و يقولُ شاعرٌ آخر[139]:

وتجاوبتْ فيها شَوادي طيْرِها والتفَّت الأغْصانُ بالأغصانِ

وقد خصَّص الكتَّاني في كتاب «التَّشبيهات من أشعار أهل الأندلس» باباً لوصف الطُّيور في أشعار الأندلسيّين عنوانه: بابٌ في تغريد الطَّير في الرِّياض ووصف الحَمام[140]. أورد فيه أشعاراً في وصف أنواعٍ مختلفةٍ من الطُّيور المعروفة في الأندلس.

وقد أشار ابن شهيدٍ في رسالته المعروفة «التَّوابع والزَّوابع» إلى عناية الأندلسيّين بتربية الطُّيور واستخدامها في التَّسلية والرِّياضة حيث يقول[141]: «وأنا الذي هِمْتُ بالإوزِّ صبابةً، واحتملْتُ في الكَلَفِ بها عَضَّ كلِّ مقالةٍ، وأنا الذي استرجعتُها إلى الوطَنِ المألوف، وحبَّبْتُها إلى كلِّ غِطْريفٍ، فاتَّخذتْها السَّادةُ بأرضنا، واستهلكَ عليها الظُّرفاءُ منّا، ورُضيَتْ بدلاً من العصافير، ومتكلِّمات الزّرازير، ونُسِيتْ لذَّة الحمام، ونِقارُ الديوك، ونِطاح الكُباش».

ويتَّضح من حديث ابن شهيدٍ مدى عناية الأندلسيّين من العامَّة والخاصَّة بالطُّيور، وأنّهم كانوا يجدون لذَّةً في اقتنائها والتَّسلّي بها.

ومن أهمِّ ما يُستَفاد من حديثه هذا ما كان شائعاً عند الأندلسيّين من اقتناء «متكلِّمات الزّرازير»، وهو ما يحاول هذا المبحث رصده ومعالجته.

وإلى جانب ذلك كان الأندلسيّون يتهادون الطُّيور،ومن أمثلة ذلك أنَّ الوزير الكاتب أبا بكرٍ عبد العزيز بن سعيدٍ البطليوسي (ت 520هـ) استهدى المنصور بازيّاً[142].

وورد في كتاب مفاخر البربر[143] أن زيري بن عطية أهدى للمنصور مُحَمَّدٍ بن أبي عامرٍ سنة 384هـ هديةً مشهورةً كان منها «طائرٌ فصيحٌ عجيبُ الصَّوت، بديعُ المنظر والخلقة».

وفي ترجمته للأديب أبي عبد الله مُحَمَّد بن السَّرّاج المالقي، شاعر بني حمّود،

يذكر صاحب الذَّخيرة[144] «أنَّ مُغنِّيةً تُدعى حُسْن الورد قد أرسلت له رسولاً ومعه قفصٌ فيه طائرٌ يُغرِّد، فأقرأه سلامها، ودفع إليه القفص هديَّةً منها إليه».

وقد نال طائر الزُّرزور اهتماماً خاصَّاً لدى الأندلسيّين، إذ كانوا يربّونه في منازلهم ويُدرِّبونه على النُّطق بكلماتٍ وجُملٍ وأدعيةٍ وبعض أبياتِ الشِّعر، وهذا ما أشار إليه ابن شهيدٍ في قوله «ومُتكلِّمات الزّرازير»، فإنَّه لم يذهب مذهب التَّعبيرِ المَجازيِّ عن تغريد هذا النَّوع من الطُّيور، بل ذهب مذهب الوصف الحقيقيِّ لطائر زُرزورٍ يَتكلَّم.

والزُّرزور طائرٌ أكبر من العصفور قليلاً، وله ريشٌ بنفسجيٌّ مائلٌ إلى الخضرة، ولريشه بعض اللّمعان، وجناحاه طويلان مدبَّبان، ومنقاره أسود طويلٌ ذو قاعدةٍ عريضةٍ، ويُغطّي فتحة الأنف غشاءٌ قرنيٌّ، وهو يُزرزر بصوته، ومعروفٌ بجمال صوته وخِفَّة حركته، وذكائه، ويستوطن أوروبا، وشماليّ آسيا وإفريقيا. ويجمع الزُّرزور على زرازير[145].

وكان الأندلسيّون يسمّونه: زُرْزُلْ، وصحَّحه أبو بكرٍ مُحَمَّد بن الحسن الزُّبيدي في كتابه «إصلاح لحن العامَّة بالأندلس» قائلاً[146]: «والصَّوابُ زُرْزُور، والجمعُ: الزّرازير. يقال: قد زَرْزَرَتْ بأصواتها».

وفي الرَّسائل التي عُرِفَتْ باسم الزّرزوريّات «وهي مجموعة من الرَّسائل أدارها كُتَّابُ الأندلس حول شخصٍ كان يُلَقَّبُ بالزُّريزير، ويتعيَّش من الكُدية واستجداء الأغنياء والأعيان، ووجدوا تشابهاً واضحاً بين أوصافه وأوصاف طائر الزُّرزور الذي يتميَّز بخفَّته ونهمه وإقباله الشَّديد على الأكل، وجمال صوته»[147] نجد أوصافاً لطائر الزُّرزور وأحواله واهتمام الأندلسيّين به، وقد كشف لنا كُتَّابُ هذه الرَّسائل، من خلال محاولتهم التَّقريب بين صورة الشَّخص المُلقَّب بالزُّريزير وصورة طائر الزُّرزور، كثيراً من الخصائص والصِّفات التي كانوا يألفونها في هذا الطَّائر.

ففي الرِّسالة التي كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم مُحَمَّد بن عبدالله

بـن الجـدِّ (ت 515هـ) يقـول عـن طائـر الـزُّرزور[148]: «ومعلـومٌ أنَّ هـذا الطَّائـر الصَّافـر يفـوقُ جميـع الطُّيـور في فهـم التَّلقـين، وحُسْـن اليقـين، فـإذا عُلِّـم الـكلام لَهَـجَ بالتَّسـبيح، ولم ينطلـق لِسـانُه بالقبيـح، ثـمّ تـراه يقـومُ كالنَّصيـح، ويدعـو إلى الخـيْر بلسـانٍ فصيـحٍ، فمـن أحـبَّ الاتعـاظ، لقـيَ منـه قـسَّ بـن إيـادٍ بعُـكاظ، أو مـالَ إلى سـماع البسـيط والنَّشـيد، وَجَـدَ عنـده نُخَـبَ الموصـليِّ للرَّشـيد، فطـوْراً يُبكيـك بأشْـجى مـن مـراثي أرْبَـد (يعنـي مـراثي لبيـد في أخيـه أربـد)، وحينـاً يُسـلّيك بأحـلى مِـنْ أغـاني مَعْبَـد، فسـبحان مـن جعلـه هاديـاً خطيبـاً، وشـادياً مُطْرِبـاً مُطيبـاً».

وهـذا النَّـصُّ مُهـمٌّ في بيـان قابليَّـة هـذا الطَّائـر لتعلُّـم الـكلام مـن خـلال التَّلقـين وتفوّقـه في هـذه الصِّفـة عـلى جميـع الطُّيـور، وأنَّ الأندلسـيّين كانـوا يلقِّنونـه عبـارات التَّسـبيح والمواعـظ والأشـعار والأغـاني.

ويتحدَّث عن نعومة ريشه عندما يقول «حيث يكتسي ريشه حريراً»[149].

ولابـن الجـدِّ نفسـه رسـالةٌ أخـرى في الموضـوع ذاتـه، يقـول في بدايتهـا: «إنَّ عَجَبـاً بِـرُّ الوزيـر بالزَّعانـف والزّرازيـر»[150]، ثَـمَّ يقـولُ في وصـف طائـر الـزُّرزور: «ثـمّ نبـدأ في شـأن الحيـوان بـزرزور، لا يعـرفُ حقّـاً مـن زور، مشـهورٍ في الطـيْر بالـضَّرَع (الضعـف ونحـول الجسـم)، كثـير العاديـة قليـل الـوَرَع، كأنّمـا رهطـه عبيـدٌ للبلابـل، ولغْطُـهُ وَقْـعُ الحـصى بالمتقابـل، وفي غـيره مـن ذوات الرِّيـش، النَّازحـةِ بـكلِّ ضراءٍ وعريـشٍ، أنجـبُ منـه عـلى اللّغْـن (الـكلام)، وأحْسَـنُ تصريـف لسـانٍ وذقْـنٍ، كبّغـا لا تعلثَـمُ في عويـص اللُّغـى، وشَـفْنين (اليـمام)، يثـير اللّوعـة بالرَّنـين، كأنّمـا عاسَرَتْـهُ عنـد التَّلقـين الـرَّاءُ، وداخَلَـهُ بعـد الظَّفـرِ بهـا امـتراء، فاسـتظهرها بالنَّكـير، خُضِبَـتْ أرجُلُهـا بالعقيـان، فـوارت لآلـئ في الأجيـاد، وزبرجـداً أنعلـتْ بـه حوافـرَ الأجيـاد، تتسـتَّر بـورق الغصـون، وتُشَـهَّرُ بحُـرقِ الوجْـدِ المصـون، ويصقـع مشـتاقُها كالخطيـب، ويقـع عـلى قـاسٍ مـن الأيْـكِ ورطيـب، فيلـينُ لشـجوه ويميـد، ويـكاد يـذوب لـه العميـد. وربَّ عُصْفـورٍ، صَفَـر لـذاتِ سُـفور، فحكَـتْ نَقْـرَ الزّيـر، وبعثَـتْ العَـيْنَ عـلى الدمـع الغزيـر، وبُلْبُـلٍ حَـرَّك بلابـل واقـداتٍ،

وشكّ القلوبَ بمعابل (نصول) نافذاتٍ، وكائِن مِنْ غَرِدٍ، حرّان قلْبٍ أو صَرد، يفوتُ مدى العَدّ، ويملأ ديارَ مَعَدّ، ولو تقصّينا لما أحصْينا....»[151].

ومع أنّ النَّصّ يدعو إلى البحث عن بدائل للزّرازير، إلاّ أنَّه يكشف عن أمرين مهمَّين يتصلان بها، وهما: العناية الخاصَّة من الوزراء بتربية الزّرازير، وعناية الأندلسيّين بتلقين الطُّيور وتدريبها على الكلام.

ولابن الجدّ هذا رسالةٌ في الشَّفاعة للزّريزير، يقول فيها في وصف طائر الزُّرزور[152]: «ولربَّما نَطَقَ بالتَّوحيد، ويحيد عن سجدة الشُّكْرِ كُلَّ محيد، ويهزج ويسنح، وإلى رهطين من الطَّير يجنح، مرهوب الصّقع في الدِّيار، ومحبوب السَّجع بأعالي الأشجار، يُمْتعُ بشتّى أفانين، ويُخْجل البلابل والشّفاينن».

وفي فصْلٍ منها: «حتّى اشتدَّ مِنْهُ الفقار، واسودَّ فرعُهُ والمنقار، ولم يكُنْ به إلى العَوْلِ افتقار، فنهضَ وكسب، وأعرب عن نجرته وانْتَسَب، وأخذ بالطِّباع في التَّوليد، وصَدَح غرداً ببيت الوليد (البحتري)، إلّا ما غيّر منه وأحال، ولا يعرفُ الممكن ولا المُحال:

لكَ الله عُشَّاً غصَّ ليلاً بأفْرُخٍ بعلياءِ فرْعِ الأثْلةِ المتهدّلِ

فيا للعجب العجيب، ولسانِ هذا الزُّرزور النَّجيب، أنطقه فضْلُ الوزير بلسان، نقله من نوعِ الزّرازير إلى نوع الإنسان، فشكر وشعر.....».

ومع أنَّ ابن الجدِّ كتب هذه الرِّسالة في وصف حال الشَّخص المعروف بالزّريزير إلاّ أنَّه يُكثِر من استعارة أوصاف طائر الزّرزور، حيث يُفهَم من هذا النَّصِّ أنَّ الزّرزور يجمع في صفاته بين نوعين من الطُّيور هي البلابل واليمام، وأنَّ جناحيه ومنقاره سُود، وأنَّ أهل الأندلس كانوا يُعلِّمونه النُّطق بعبارة التَّوحيد (لا إله إلاّ الله)، وعبارات الشُّكر وبعض أبيات الشِّعر، حتّى كأنَّه تحوَّل بسبب النُّطق من طائرٍ إلى إنسانٍ.

وكتب أبو بكرٍ عبد العزيز بن سعيدٍ البطليوسي ابن القبطُرْنة (ت 520هـ) وزير

بنـي الأفطـس في بطلْيَـوْس، رسـالةً في الموضـوع ذاتـه يخاطـب بهـا أبـا الحسـين ابـن سرّاج، يقـول في بدايتهـا[153]: «أمَّلـكَ أبـا الحسـن الأحْـرار، وأمَّـكَ الكبـار، وانتجعَـتْ قطـرَكَ الأقطـار، وشـكرتْك حتّـى بترجيعهـا الأطْيـار، ويصـلُ بـه -وَصَـل اللـه سُـعودَك- مـن الطَّير نطّـاق، مـن غـير ذواتِ الأطْـواق، يميـس مـن المِسْـك في حَـبْرةٍ أو طـاق....، مهّدَتْـهُ العـذارى بالرُّضـاب، وسـقَتْهُ بأفواههـا العِـذاب، فـما خَلَـع الشَّـكير (الزّغـب) حتّـى رفَـضَ الصَّفـير، وهجـر الـرَّاء الدَّائمـة التَّكريـر، وتحـلّى في المنطـق بحليـة الإنْسـان، ودَخَـلَ في مَـنْ عَلِـمَ البيـان، وزايـل عَميَّةَ البُلبُـلِ والوَرْشـان، وأفصـح تسـبيحاً وتكبـيرا، وخـرج مـن جُملـةِ مَـنْ قـال تعـالى فيـه ﴿ ولكـنْ لا تفقهـون تسـبيحهم إنّـه كانَ حليـماً غفـورا﴾ (الإسراء 44)، فـإنْ طلبْـتَ -أعـزّك اللـه- اسـمه مكـبّراً، وَجَدْتَـهُ لفظـاً مـن الزيـادة مُكـرّراً، أقـام عندنـا زمانـاً، لا يتألّـفُ إلاّ رَنْـداً أو بانـاً، ولا يلتقـطُ إلاّ عُنّابـاً أو سيسـباناً، يتـدرَّج في البسـاتين، يتطلّـبُ العنـبَ المُنقّـى والتّـين....».

لقـد حـاولَ منشـئُ هـذه الرِّسـالة أن يُوهـم الوزيـر المخاطـب أنَّـه يتحـدَّث عـن طائـر زُرزورٍ حقيقـيٍّ قبـل أن يكشـف لـه عـن مقصـده في الرِّسـالة، واسـتعار الصِّفـات التـي وصـف بهـا ذلـك الطَّائـر مـمّا يألفـه الأندلسـيّون في حياتهـم، فهـو طائـرٌ نَطّـاقٌ يسـتطيع الـكلام بالإضافـة إلى ترجيـع الألحـان، وهـو ليـس مـن الحمائـم، بـل مـن العصافـير، ثـمّ يصـفُ كيـف يُـدرِّب الأندلسـيّون هـذا الطَّائـر عـلى الـكلام، فحينـما يفقـس عنـه البيـض تأخـذه النِّسـاء وتربّيـه في حجورهـا وتطعمـه وتسـقيه وتواصـل الحديـث معـه، حتـى إذا كـبر وزال الزَّغـب عـن ريشـه نشـأ لا يعـرف الصَّفـير، بـل تعلّـم الـكلام بـدلاً منـه، وصـار يتكلّـم كالإنسـان، وتعلّـم التَّسـبيح والتَّكبـير.

ويُلاحَـظ أنَّ ابـن الجـدِّ وابـن القبطرنـة قـد أشـارا في رسـائلهما إلى صعوبـة تعليـم الـزُّرزور حـرف الـرَّاء.

وفي رسـالةٍ كتبهـا الوزيـر أبـو عامـر بـن عبـد العزيـز بـن أرقـم النميـري الـوادي آشي في وصـف الـزرزور[154]، يقـول: «ويلقُـطُ بمنقـار، كأنّـه مِـنْ قـار، أطبـق عـلى لسـانٍ تخالـه إغريضـة، في جـوف إحريضـة، يسـلّي المحـزون بالمقطـع والمـوزون، وينفّـس عـن المكظـوم،

بالمنثور والمنظوم، مسكيّ الطَّيلسان، تولّد بين الطَّائر والإنسان....».

وفي هذا النَّصّ إشارةٌ إلى منقاره الأسود، وإلى نطقه بالشِّعر والنَّثر، وأنَّه بذلك يجمع صفات الإنسان وصفات الطَّائر. ومن الرَّسائل في هذا الموضوع أيضاً رسالةٌ لذي الوزارتين أبي عبد الله مُحَمَّدٍ بن مسعودٍ ابن خلصة ابن أبي الخصال (ت 540هـ) يقول في جزءٍ منها أبياتاً في وصف الزُّريزير والزُّرزور منها [155]:

عَـوّدَ مِنقـارَهُ ثنـاءً ... في نَشْـرِه للعُلا نُشورُ

يحفظُ إحسانكم بشكْرٍ ... ما ضيّعَ النعمةَ الشَّكُورُ

ثمّ يقولُ [156]: «وقد أعفاكم زُرْزُروكم من النَّصَب، ومدّ إلى السَّماءِ من ألفاظ الدُّعاء بسبب».

ويؤكِّد ذلك ما اعتاده الأندلسيّون من تدريب طائر الزُّرزور على النُّطق بعبارات الشُّكر والدُّعاء.

وفي رسالةٍ أُخرى لابن أبي الخصال يصف الزُّرزور قائلاً[157]: «إنّما هو زُرزور، عليه الليلُ مَزْرُور، رَشّتْهُ النجومُ بأندائها، وذرّت عليه من صفائها، فهو منمنم الدواج (الثِّياب)، بديعُ الائتلاف والازدواج، يباسطكم البعيدَ والقريب، ويطارحكم المُستعملَ والغريب، يلقطُ الإحسان حَبّاً، ويُضْمِرُهُ حُبّاً، ويلفظُهُ لؤلؤاً حَبّاً!..... ويَسْري إلى الأرواح بألطف مِنْ سُراها، بنغمةٍ تُغني عن الزَّمْر، وتَعْدِلُ حلاوة النَّهي والأمر، فالأيّام معه أُنْسٌ وأجْر، والليالي شَفَقٌ وفجر.....».

ثمّ يقول شِعراً[158]:

هل كُنْتَ تعلَمُ قَبْلَ اليوم زُرزورا ... هدي لك السِّحْرَ منظوماً ومنثورا

مُنعّم الصَّوت، من يأذَنْ لنغمته ... لم يقترح بعدهـــا بمّاً ولا زيرا

ثمّ يقول[159]:

ولقّنوا زُرزوركم شـــــكركم ليَلْقَنا
وزوّدوا ضيفكُمُ ذكراً جميلاً حَسَنا
وأنطقوه بالّتي في نشرها نيْلُ المُنى
... الخ

ويُستَشفُّ من هذه المُقتطفات من رسالة ابن أبي الخصال بعض صفات طائر الزُّرزور، فهو أسود منقّطٌ ببياضٍ كالنُّجوم في الليل ومنمنمٌ الرِّيش وجميلُ التَّغريد الذي يُغني عن الغناء والزَّمر، وهو يتعلّمُ الشِّعر والنَّثر ويُلقَّنُ عباراتِ الشُّكر فيعيدها.

وهذه الرَّسائل الزُّرزورية جميعها أُنشئت في عقب رسالةٍ كتبها أبو الحسين سراج بن أبي مروان بن سراج (ت 508هـ) يصف فيها الشَّخص المعروف بالزُّريزير (تصغير زرزور) ويُشبِّهه بالزُّرزور ويقول عنه[160]: «وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريد ولحوناً».

ولم يأْتِ وَصَفُ الزّرازير في هذه الرَّسائل على هذا النَّحو وتكرار الحديث عن تلقينها الكلام والنُّطق بالتَّوحيد والشُّكر والتَّسبيح والشِّعر والنَّثر من فراغٍ، فقد ورد في مصادر التُّراث الأندلسيّ ما يُثبِت انتشار عادة تربية الزّرازير في منازل الأندلسيّين وتعليمها الكلام.

ومن أوائل الأخبار عن تدريب الزّرازير على الكلام ما ورد في نفح الطِّيب[161] عن الخليفة الأمويّ عبد الرَّحمن النَّاصر (ت 350هـ): «ومن غريب ما يُحكى عن أمير المؤمنين النَّاصر المذكور أنّه أرادَ الفَصْدَ (الحجامة)، فقعد بالبهْوِ في المجلس الكبير المُشْرِفِ بأعلى مدينته بالزَّهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيبُ الآلةَ وجسَّ

يـدَ النَّـاصر، فبينـما هـو إذ أطـلّ زُرْزُورٌ، فصعـدَ عـلى إنـاءٍ ذهـبٍ بالمجلـس، وأنشـد:

أيّها الفاصِدُ رفْقاً بأمـيرِ المـؤمنيـنا

إنّما تفصِدُ عِرْقـاً فيه مَحْيا العالمينا

وجَعَـلَ يكـرِّرُ ذلـك المَـرَّة بعـد المَـرَّة، فاسـتظرفَ أمـيرُ المؤمنـين النَّـاصرُ ذلـك غايـةَ الاسـتظرافِ، وسُرَّ غايـة السُّرور، وسـألَ عَمَّـن اهتـدى إلى ذلـك وعَلَّـمَ الـزُّرزور، فذُكـرَ لـه أنّ السـيّدة الكـبرى مَرْجانـة أمَّ ولـده وليّ عَهْـدِهِ الحكـم المسـتنصر باللـه صَنَعَـتْ ذلـك، وأعدّتْـهُ لذلـك الأمـر. فوهـبَ لهـا مـا ينيـفُ عـلى ثلاثـين ألـف دينـارٍ».

ويتَّضـح مـن هـذا الخـبر أنَّ الطَّائـر الـذي أنشـد البيتـين طائـرٌ حقيقـيٌّ وأنَّـه عُلِّـم ذلـك حتّـى أتقنـه، وأنَّ الخاصَّـة مـن الأمـراء والأمـيرات كانـوا يُعنَـونَ بتربيـةِ هـذه الزّرازيـر وتدريبهـا عـلى الـكلام.

وقـد أشـار ابـن شُـهيدٍ -كـما ذكرنـا سـابقاً- إلى مـا أُطلـق عليـه في الأندلـس «مُتكلِّـمات الزّرازير»[162].

وقـد التفـتْ ابـن حـزمٍ الأندلـسي (384 - 456هــ) في رسـالته «التَّقريـب لحـدِّ المنطـق» إلى ظاهـرة تدريـب الطُّيـور عـلى الـكلام، فقـال[163]: «فـإن شـغِبَ مُشـغّبٌ بمـا يظهـر مـن بعـض الحيـوان غـير النَّاطـق مـن كلامٍ مفهـومٍ كالـذي يُعلّمُـهُ الـزُّرزور والببّغـاء والعقعـقُ مـن حكايـة كلامٍ يُـدرَّبُ عليـه قائـم المعنـى، فليـس ذلـك كلامـاً صحيحـاً ولا مقصـوداً بـه إفهـام معنـىً، ولا يَعْـدو مـا عُلّـمَ، ولا يضعُـهُ موضعـه، ولكـنْ يكـرِّره كـما يكـرِّر سـائر تغريـده كـما عُـوّده».

ويُفْهَـمُ مـن قـول ابـن حـزمٍ هـذا أنَّ تدريـب الطُّيـور عـلى الـكلام كان أمـراً شـائعاً في الأندلـس، وأنَّ مـا يتعلّمـه الطَّـير يكـون واضحـاً عندمـا ينطقـه، إلاّ أنَّـه لا يَفْهـم معنـاه، وإنّمـا يكـرِّره كـما تعلّمـه مـن النَّـاس.

كـما أوردتْ المصـادر الأندلسـيّة أبياتـاً لـذي الوزارتـين أبي الحسـن جعفـر بـن إبراهيـم بـن الحـاجِّ يصـف فيهـا زُرزوراً لُقِّـن الـكلام، وهـي[164]:

يا رُبَّ أعْجَـــمَ صـامتٍ لقّنتُهُ	**طَرَفَ الحديثِ فصارَ أفْصَحَ ناطِقِ**
جوْنِ الإهابِ أُعيرَ فـوهُ صُفـرْةً	**كاللّيْـلِ طرّزَهُ وميـــضُ البارِقِ**
حِكَمٌ من التَّدبير أَعجزتِ الورى	**ورأى بهـا المخلوقُ لُطْفَ الخالقِ**

ويُلاحَـظ في هـذه الأبيـات أنَّ ابـن الحـاجِّ لم يكتَـفِ بالحديـث عـن تلقـين الـزُّرزور الـكلامَ حتـى أصبـح ناطقـاً فصيحـاً، بـل أخـذ في وصـف هـذا الطَّائـر فجعـل لونـه أسـود وفمـه أصفـر، وشـبَّهه مـن جهـةِ لونـه بالليـل المُعتـم وقـد لمـع فيـه الـبرق. ولـئن وَرَدَ وصـف الـزُّرزور في نصـوصٍ سـابقةٍ بـأنَّ لـه منقـاراً أسـود، فـإنّ ذلـك يَـدلُّ عـلى أنَّ الزّرازيـر ذات أصنـافٍ وألـوانٍ.

ومـن الأشـعار التـي اشـتهرت عنـد الأندلسـيّين في وصـف الـزُّرزور المُتكلِّـم، أبيـاتٌ للوزيـر الأديـب أبي القاسـم المنيـشي رواهـا عنـه أبـو مُحَمَّـدٍ بـن مُحَمَّدٍ بـن عيـسى التَّادلي، وعنـه رواهـا بمدينـة فـاس ابـن دحيـة صاحـب كتـاب المطـرب، وهـي[165]:

أمنْبَرٌ ذاكَ أم قضيـب	**بفرعه مِصقَعٌ خطيبُ**
يختالُ في بُرْدَيْ شبابٍ	**لم يتوضَّحْ بها مَشيبُ**
أخْرَسُ لكنّـه فصيـحٌ	**أبله لكنـــّه لبيـبُ**
جَهْمٌ على أنّه وسـيمٌ	**صَعْبٌ على أنّه أريبُ**

وقد وَرَدَ البيتُ الرَّابع في أزهار الرِّياض فقط.

ويشـير المنيـشي في البيـت الثَّـاني إلى اللـون الأسـود لهـذا الطَّائـر وخلـوِّه مـن أيِّ بيـاضٍ،

كـما يشـير في البيـت الثَّالـث إلى مـا ذكـره ابـن حـزمٍ مـن أنَّ هـذا الطَّائـر قـد يكـون ناطقـاً لكنَّـه ليـس مفكِّـراً، فهـو فصيـحٌ عندمـا يعيـد الـكلام الـذي جـرى تلقينـه إيّـاه، وهـو لبيـبٌ في قدرتـه عـلى التعلُّـم إلاّ أنَّـه يبقـى مـع ذلـك أبلـه غـير قـادرٍ عـلى التَّفكـير.

ومـن الأشـعارِ الأندلسـيّة في وصـفِ الـزُّرزور قـول لسـان الدِّيـن بـن الخطيـب يُداعـب مـن لـه علاقـةٌ بغـلامٍ أسـمر اللـون[166]:

وقالوا: حكى الزُّرزورَ لوناً وخفّةً وصوْتاً ونفْعـاً من شـكـايا خفيّةِ

فقلت: لهـذا أو لما قد جهلتُمُ نصبْتُ لذا الزُّرزورِ سُبّيط لحيتي

ومـن الحكايـات التـي تـدور حـول تدريـب الزّرازيـر عـلى الـكلام في حـضرة السَّـلاطين، مـا أوردتـه المصـادر[167]، عـن الخليفـة الموحِّـدي عبـد المؤمـن بـن عـليّ أنَّ ابـن حـمّاد صاحـب بجايـة سـاق لـه في بعـض الأيّـام شـبل أسـدٍ صغـيرٍ، وأدخلـه إلى الخليفـة في مجلسـه، فأمـر بحـلِّ الشِّـبل مـن عقالـه، فمـشى الشِّـبلُ بـين النَّـاس يخـترق الصُّفـوف، حتّـى وصـل إلى الخليفـة فربـض بـين يديـه، وسَـكَنَ لا يتحـرّك مـن موضعـه، فعجـب النَّـاسُ مـن ذلـك. وكان قـد سـبق إليـه في ذلـك المجلـس زُرْزورٌ، فتكلّـم بـين يديْـه بأنـواعٍ مـن الـكلام. فارتجـل أبـو عـليّ الأشـيري التّلمسـاني (كان حيّـاً سـنة 569هـ) أبياتـاً مـن الشِّـعر في صفـة الحـال بالمجلـس المذكـور، وهـي:

أنِسَ الشِّبلُ ابتهاجاً بالأسَدْ ورأى شِـــبْـهَ أبيـــه فَقَصَدْ

ودعـا الطـَّائرُ بالنَّصْر له فـقـضـى حقـكُـمُ لمّـا وَرَدْ

أنْطَـــقَ الخالقُ مخلوقاتِهِ بالشَّـــهاداتِ فكلٌّ قد شـهِدْ

أنّك القـائمُ بالأمْرِ لـــه بعد ما طال على النَّاسِ الأمَدْ

ومـمّا يثـير الاهتـمام أنَّ الأندلسـيّين لم يكتفـوا بتدريـب الزّرازيـر عـلى الـكلام مـن خـلال التَّعليـم والتَّلقـين، بـل إنَّهـم نجحـوا في صناعـة تماثيـل ناطقـةٍ؛ فقـد ورد في رسـالةٍ كتبهـا أبـو جعفـر بـن أحمـد الـدَّاني عـلى لسـان القـصر المُكـرَّم مـن قصـور إشـبيلية، موجّهـةٍ إلى القـصر المُبـارك حـين انتقـل المُعتمـد بـن عبَّـاد ملـك إشـبيلية عنـه إلى القـصر المُكـرَّم، وَرَدَ وصـفٌ لمجلـس المُعتمـد في القـصر المبـارك منـه قولـه[168]: «فلتماثيلـه صُـورٌ يُسْـحَرُ منهـا النَّظـر، مـن ناطـقٍ لبـقِ الحـركات، وصامـتٍ مألـوف النَّزعـات». ولـئن كان مـن المُحتمـل أن يكـون وصْـفُ هـذه التَّماثيـل بالنَّاطقـة مـن بـاب التَّعبـير المجـازي، فـإنَّ صناعـة التَّماثيـل النَّاطقـة بالفعـل لم تكـن عنـد الأندلسـيّين فقـط، فقـد وَرَدَ في كتـاب «الأنيـس المُطـرب» لابـن أبي زرعٍ الفـاسيّ[169] أنَّ الأمـير يوسـف بـن يعقـوب بـن عبـد الحـقِّ المرينيّ قـد قَـدِم عليـه سـنة 691هــ وهـو بتازوطـة «رومـيٌّ جنـويٌّ مـن صاحـب جنـوة بهدّيـةٍ جليلـةٍ، فيهـا شـجرةٌ مموّهـةُ بالذَّهـب عليهـا أطيـارٌ تصـوِّت بحـركاتٍ هندسـيّةٍ مثـل التـي صُنِعَـتْ للخليفـة العبّـاسي».

وإذا مـا أضفنـا إلى ذلـك هندسـة التَّماثيـل النَّاطقـة إلى مـا كان عبّـاسُ بـن فرنـاس قـد ابتدعـه مـن أصـوات رعـودٍ في قُبَّتـه الفلكيَّـة المذكـورة سـابقاً، فإنَّـه يتبـيّن لنـا أنَّ الأندلسـيّين قـد تعاطـوْا أنشـطةً هندسـيَّةً تُحـاكي أصـوات الإنسـان والطُّيـور والطَّبيعـة.

ولا أظـنُّ أنَّ تطويـر مثـل هـذه الهندسـة أكـثر صعوبـةً وتعقيـداً مـن تلقـين الزّرازيـر عبـارات شُـكْرٍ وتسـبيحٍ وحمـدٍ وتعليمهـا أبياتـاً مـن الشِّـعر. ولكـنَّ الأمريـن، عـلى كلِّ حـالٍ، يُعـدّان صورتـين مـن صـور نـزوع الأندلسـيّين للإبـداع والإتيـان بـكلِّ جديـدٍ، كـما يُعـدّان دليـلاً عـلى نشـاط الخيـال والفكـر عنـد الأندلسـيّين.

ولا بـدَّ في الختـام مـن الإشـارة إلى أنَّ الأندلسـيّين لم يكونـوا أوّل مـن اشـتغلوا بتدريـب الطُّيـور عـلى الـكلام، وأنّـه لم يقتـصر عليهـم دون غيرهـم، فقـد أوردَ الجاحـظ في رسـالته المشـهورة «في المعلّمـين»[170] مـا نصّـه: «نعـم حتّـى علّمـوا البلابـل وأصنـافَ الطَّـيْر الألحـان. وناسـاً يُعلِّمـون القـرود والدّببـة والـكلاب والظِّبـاء المَكيَّـة، والببغـاء، والسَّـقر،

وغـراب البـين، ويُعلِّمـون الإبـل، والخيـل، والبغـال، والحمـير، والفيلـة، أصنـاف المَـشي، وأجنـاس الحُـضْر، ويُعلِّمـون الشَّـواهين والصُّقـور والبـوازي والفهـود والـكلاب وعنـاق الأرض، الضَّيْـد...».

وفي وصفـه لبـلاد الصَّقالبـة يقـول أبـو عُبيـدٍ البكـري (ت 487هــ) في كتابـه «المسـالك والممالـك»: «وفيهـا طائـرٌ غريـبٌ تعلـوه خـضرةٌ يحـكي كُلَّ مـا يَسْـمَعُهُ مـن أصـوات النَّـاس والـدَّوابِّ، وقـد يوجـد..... فيصيدونـه، ويسـمى بالصَّقلبيـة سـبا»[171].

ولـئن كان تدريـب الطُّيـور عـلى الـكلام موجـوداً قبـل الأندلسـيّين، ومعروفـاً عنـد أمـمٍ أخـرى غيرهـم، إلاّ أنّـه يُسـتفاد مـن مُجمَـل مـا أوردنـاه مـن الأخبـار والحكايـات المُتَّصلـة بذلـك، أنَّـه كان أكـثر شـيوعاً وأوسـع انتشـاراً في الأندلـس، وأنَّ هـذه الظاهـرة بـدأت عندهـم في وقـتٍ مبكـرٍ، أيّـام عبـد الرَّحمـن النَّـاصر (30 -0 350هــ) وربّمـا قبـل ذلـك.

ويُسـتفاد كذلـك مـن هـذه الأخبـار أنَّ عنايتهـم بتدريـب الزّرازيـر عـلى الـكلام كانـت أكـثر مـن عنايتهـم بسـائر الطُّيـور، وربّمـا كان ذلـك بسـبب سـهولة اسـتجابة الـزُّرزور للتَّلقـين فضـلاً عـن حسـن صورتـه وجـمال صوتـه وخِفَّـة حركتـه وصغـر حجمـه.

استخدامُ المدافعِ والبارودِ في الأندلس

ليس الهدف من هذا المبحث تأكيد نسبةِ اكتشافِ البارودِ والمدافعِ إلى أمَّةٍ من الأُمم، فقد تناول هذه المسألة باحثون كثيرون ونسبوا اكتشافهما للصّينيين تارةً وللإنجليز تارةً ثانيةً وللألمان تارةً ثالثةً وللعرب تارةً أخرى، ولكنَّهم لم يصلوا إلى نتيجةٍ مُحقَّقةٍ بَعْدُ. ولا أسعى كذلك إلى إثبات أسبقيَّة أهل الأندلس على جيرانهم الأوروبيّين في استخدام هذا السِّلاح، لأنَّ هذه المسألة لم تُحْسَم بَعْدُ أيضاً[172].

ولكنَّ ما أسعى إليه ها هنا هو أن أُثبتَ معرفة الأندلسيّين للبارودِ والمدافعِ واستخدامهم لها بالاستنادِ إلى النُّصوص التاريخيَّة والنَّثريَّة والشِّعريَّة، وهي نصوصٌ تصلحُ في الغالب أن تكونَ شواهد ذات مصداقيَّةٍ على تلك المعرفة وذلك الاستخدام.

لقد كان من أهمِّ عوامل عناية الأندلسيّين بالبارود والمدافع ما كانوا يواجهونه من الخطر المُحدق بهم طوال مُدَّة حكمهم للأندلس، فكانوا يسعون دائماً إلى تطوير أسلحةٍ تُعينهم على الدِّفاع عن مدنهم وأنفسهم، ولمّا كان العربُ والمسلمون قد عرفوا أنواعاً من الأسلحة قديماً كالمنجنيقات والنَّار الإغريقية والأنفاط وملح البارود، فقد انشغل المهندسون وعلماء الكيمياء في الأندلس بتطوير هذه الأسلحة، ومن أشهرهم أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن علي بن عبدالله بن مُحَمَّدٍ بن الحاجِّ الإشبيلي (ت 714هـ) فقد «كان أبوه نَجَّاراً من مُدجّني مدينة إشبيلية، وكان من العارفين بالحيل الهندسيَّة، بصيراً باتّخاذ الآلات الحربيَّة الجافية والعمل بها»[173].

ولئن كان ابن غانم الرّياش الأندلسيّ في كتابه «العزُّ والرِّفعةُ والمنافع للمجاهدين

في سـبيل اللـه بالمدافـع» الـذي ألّفـه سـنة (1042هـ/ 1633م)، يقـول إنَّ الأصـل الأوّل في ابتـداء العمـل بالبـارود كان «في ألمانيـا عـام سـتةٍ وسـتين وثلاثمائـة وألـفٍ (ميلاديـة) وبالهجـرة 768»[174] إلّا أنَّ ثمّـة نصوصاً تاريخيَّـةً وأدبيَّـةً تُشـير إلى معرفـة الأندلسـيّين لـه واسـتخدامه قبـل هـذا التَّاريـخ.

ويشـير ابـن غانـم بذلـك إلى بارتولـد شـوارتز (1310- 1384) ويقـول ابـن غانـم كذلـك: «والصَّحيـح عنـد المؤرِّخـين أنَّ القدمـاء لم يكـن لهـم بـآلات البارودِيَّـة، بـل كانـت لهـم حيـلاتٌ عـلى وجـوهٍ، ويَضرّون بهـا مـن كان في الحصـون المانعـة البعيـدة، وذلـك بالنِّيران والكـور الثِّقـال مـن حجـارةٍ، وبالنِّـيران المُركَّبـة مـن أشـياءٍ لحـرق السُّـفن والدِّيـار...»[175].

ومـن الأدلّـة عـلى اسـتخدام الأندلسـيّين للمدافـع البارودِيَّـة قبـل التاريـخ الـذي حـدَّده ابن غانـم الأندلسـيّ مـا أورده لسـانُ الدِّيـن بـن الخطيـب في ترجمتـه للأمـير إسـماعيل بـن فـرجٍ بـن إسـماعيل ابـن نـصرٍ المتـوفّى سـنة 725هـ في سـياق الحديـث عـن غزوتـه لحصـن إشـكر (Huescar) سـنة (724هـ/ 1325م)، حيـث يقـول: «وأعمـل القصْـدَ إلى بـلاد العـدوِّ، ونـازل حصـن إشـكر، الشّـجى المعـترض في حلْـقِ بسـطةٍ (Baza) فأخـذ بمخنّقـه، ونـشر الحـرب عليـه، ورمـى بالآلـة العُظمـى المُتَّخـذة بالنَّفـط كـرةَ حديـدٍ مُحّـماةً طـاقَ البرجِ المنيـعِ مـن معقلـه، فاندفعـت يتطايـر شررهـا، واسـتقرَّت بـين محصوريـه، فعاثـت عيـاث الصَّواعـق السـماويَّة، فألقـى اللـه الرُّعـب في قلوبهـم، وأتـوْا بأيديهـم... وأنشـد الشُّـعراءُ في هـذه الوجهـة قصائـدَ أشـادتْ بفضلهـا، وشـهرت مـن ذكرهـا، فمـن ذلـك عـن كاتـب سرِّه[176]:

أمّا مداكَ فغايةٌ لم تُلْحَقِ أعْيَتْ على غُرِّ الجيادِ السُّبَّقِ

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هذيل[177] قصيدةً أوّلها:

بحيثُ القبابُ الحُمْرُ والأسدُ الورْدُ كتائب سُكّان السَّماء لها جُنْدُ

أنشدني منها في وصف النَّفط قوله:

وظنوّا بأنَّ الصَّعْقَ والرَّعْدَ في السَّما فحاق بهم من دونها الصَّعْقُ والرَّعْدُ

غرائبُ أشكالٍ سما هِرْمِسٌ بها مهندمة تأتي الجبالَ فتنهدُّ

ألا إنّها الدُّنيا تريكَ عجائباً وما في القوى منها فلا بدَّ أن يبدو»[178].

ويتَّضح ممّا وصف به ابنُ الخطيب هذه الآلة ومقذوفاتها، وممّا وصف به أبو زكريا ابن هذيلٍ هذه القذائف وتأثيرها، أنَّ الحديث عن مدافع وقذائف بارودية، بدليل أنَّ ابن هذيلٍ اعتبرها من عجائب الدُّنيا وأنّها من القوى الكامنة التي لا بدَّ لها من الظُّهور.

ولئن كانت كلمة الأنفاط قبل ظهور المدافع تُطلق على المواد الحارقة التي كانت تلقى على الحصون والأبراج والسُّفن إلاّ أنَّها أصبحتْ بعد ذلك تُطلق على المقذوفات التي تطلقها المدافع والمنجنيقات[179]. ولذلك فإننا نجد هذه الكلمة ترد كثيراً في المصادر التَّاريخيَّة والأدبيَّة الأندلسيَّة، إلاّ أنَّ الباحث لا يستطيع أن يَجزمَ إن كان المراد بها المعنى القديم أم المعاني الجديدة ما لم يقترن ذكرها بوصفٍ يُقرِّبُها من المعنى المقصود.

ووردتْ في المصادر الأندلسيَّة كلماتٌ كثيرةٌ توحي أسماؤها بما يشبه فعل البارود والمدافع، مثل كلمة (زلزال)[180] والرَّجف[181] والرَّعّادات[182] والملمومة[183] والهندام[184] والصَّواعق[185] والأنفاط ذات البرق والرَّعد[186].

وورد وصف النّفط في بيتين للأسعد بن بلّيطة شاعر المعتصم بن صمادح في عصر ملوك الطَّوائف (في القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ) حيث يقول[187]:

والنّفطُ مهما افترّ فوه فاغراً أجرى لسانَ النَّارِ فوقَ الماءِ

فكأنّه ذهبٌ بدا في صارمٍ أو رجْعُ بَرْقٍ في أديمِ سماءِ

كـما ورد الحديـث عـن الصَّواعـق القاصفـة في أحـداث سـنة 587هـ حـين تأهَّـبَ المنصـور الموحّـدي لغـزو مدينـة شـلب وحـلَّ بقـصر أبي دانـس بإشـبيلية، فقـد ورد في كتـاب «البيـان المغـرب» مـا نصّـه[188]: «فنَصَـبَ في يـومٍ وليلـةٍ أربعـة عـشر منجنيقـاً، إذ كانـت مُعـدَّةً بعـد الفـراغ مـن عملهـا فأحـدق منهـا بالبلـد منايـا زاحفـةٌ وصواعـقُ قاصفـةٌ». ويتابـع قائـلاً[189]: «ثـم كان الإقـلاع... إلى مدينـة شـلب... فسـوّيت خنادقهـم بالـرّدوم، وقرعـت أسـوارهم بالرّجـوم، والبـلاءُ يطرقهـم بالصَّواعـق سـحابُه....».

ويصـف ابـن خلـدون في تاريخـه السِّـلاح الـذي اسـتخدمه السُّـلطان أبـو يوسـف يعقـوب بـن عبـد الحـقِّ المرينـي في حصـاره لمدينـة سجلماسـة سـنة 672هـ قائـلاً[190]: «نصـب عليهـا آلات الحصـار مـن المجانيـق والعـرّادات وهنـدام النّفـط القـاذف بحـصى الحديـد ينبعـث مـن خزانـةٍ أمـام النَّـار الموقـدة في البـارود بطبيعـةٍ غريبـةٍ تـردُّ الأفعـال إلى قـدرة بارئهـا».

ويعلِّـق السّـلاوي في كتابـه (الاسـتقصا) عـلى مـا أورده ابـن خلـدون قائـلاً[191]: «وقلـت وفيـه فائـدةٌ: إنَّ البـارود كان موجـوداً في ذلـك التَّاريـخ وإنَّ النَّـاس كانـوا يقاتلـون بـه ويسـتعملونه في محاصراتهـم وحروبهـم يومئـذٍ، وفيـه ردٌّ لمـا نقلـه أبـو زيـدٍ الفـاسي في شرح منظومتـه الموضوعـة في العمـل الجـاري بفـاس قـال: كان حـدوث البـارود سـنة 768هـ حسـبما ذكـره بعضهـم [192] في تأليـفٍ لـه في الجهـاد وأنّـه اسـتخرجه حكيـمٌ كان يعمـل الكيميـاء ففرقـع لـه، فأعـاده، فأعجبـه، فاسـتخرج منـه هـذا البـارود. وقـد صرَّح الشَّـيخ أبـو عبداللـه بنـاني في حاشـيته عـلى مُختَـصر الشَّـيخ خليـلٍ بـأنَّ حدوثـه كان في وسـط المائـة الثامنـة، وهـو غـير صـوابٍ، لمـا علمـت مـن كلام ابـن خلـدون أنَّـه كان موجـوداً قبـل ذلـك بنحـو مائـة سـنةٍ، ويغلـب عـلى ظنّـي أنَّ لفـظ السـتمائة تصحَّـف بالسـبعمائة، فـسرى الغلـط مـن ذلـك، واللـه أعلـم».

إنّ قصيـدة أبي زكريـا ابـن هذيـلٍ في وصـف انتصـار إشـكر سـنة 725هـ وحديـث ابـن خلـدون عـن حصـار يعقـوب المرينـي مدينـة سجلماسـة سـنة 672هـ تؤكِّـدان مـا ذهـب

إليه السّلاوي في «الاستقصا» من أنَّ استخدام البارود والمدافع في المغرب والأندلس كان قبل منتصف القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ بكثيرٍ.

وفي تعليقه على حصار إسماعيل بن فرج ابن الأحمر لمدينة باجة سنة 1325م، يقول ماكابي[193]: «استخدم المحاصرون بعض الآلات المعدنية التي كانت تقذف كراتٍ معدنيَّةٍ ثقيلةٍ وحجارةٍ على الحصون مُسبِّبةً حرائق وأدخنةً، وكانت الانفجارات تُمثِّل خطوةً نحو استخدام البارود».

ويقول غوستاف لوبون في كتابه: حضارة العرب[194]:

«وتثبت مخطوطات ذلك الزمن أنَّ الأسلحة النَّارية شاعت بين العرب بسرعةٍ وأنَّهم استخدموها للدِّفاع عن مدينة الجزيرة التي هاجمها الأذفونش الحادي عشر سنة 1342م، وجاء في تاريخ الأذفونش الحادي عشر أنَّ مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيراً من الصَّواعق على الجيش، فيرمون عليه عدّة قنابلَ كبيرةٍ من الحديد كالتفّاح الكبير، وذلك إلى مسافةٍ بعيدةٍ من المدينة فيمر بعضها من فوق الجيش ويسقط بعضها عليه. وحضر كونت دربي وكونت سالسبري الإنجليزيان ذلك الحصار، وشاهدا نتائج استخدام البارود، ونقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم من فورهم».

ومع أنَّ الأندلسيّين استخدموا كلمتي «البارود» و«المدافع» كما سيظهر لنا بعد قليلٍ، إلّا أنّهم استمرّوا إلى جانب ذلك في إطلاق اسم «الأنفاط» أو آلة النّفط على المدافع، وظهر ذلك في شعرهم ونثرهم. ومن ذلك أبياتٌ قالها أبو سعيدٍ فرج بن قاسم بن لبّ الغرناطي في وصف محاولة الغنيّ بالله مُحَمَّد الخامس ابن الأحمر استخلاص جبل طارق من أبي بكرٍ بن غازي بعد سنة 772هـ[195]:

أيّا جبل الفتح استملْتَ نفوسَنا فلا قلْبَ إلاّ نحو مغناكَ قد سَبَقْ

فأرسلْتَ إذ جئناك فينا صواعقاً تخالُ بها جوّ السَّماءِ قد انطبَقْ

وفي قصيدة الاستنجاد التي وجهها مسلمو الأندلس إلى بايزيد الثَّاني بعد سقوط غرناطة، ورد البيتان التاليان في الإشارة إلى (الأنفاط)[196]:

فلمّا ضعفنا خيّموا في بلادنا ... ومالوا عليْنا بلدةً بعد بَلْدَةِ

وجاءوا بأنفاطٍ عِظامٍ كثيرةٍ ... تُهدِّم أسوارَ البلادِ المَنيعة

وفي كتاب «نبذة العصر» لمؤلفٍ مجهولٍ من الموريسكيين شهد سقوط غرناطة والمدن التَّابعة لها، يراوح المؤلف بين استخدام كلمة «أنفاط» وكلمة «مدافع»، فمّما قاله عن السِّلاح الذي كان يستخدمه الإسبان سنة 891هـ[197]: «وكانت له أنفاطٌ يرمي بها صخوراً من نارٍ، فتصعد في الهواء وتنزل على الموضع وهي تشتعل، فتُهلك كلَّ ما نزلتْ عليه وتحرقه، فكان ذلك من جملةِ ما كان يُخْذَلُ به أهل المواضع التي كان ينزل عليها».

واستخدم صاحب النّبذة كلمة «الأنفاط» مقترنةً بكلمة «البارود» في مواضع عديدةٍ خلال وصفه للمعارك التي سبقت سقوط غرناطة[198] ويُفهَم ممّا أورده أنَّ الجانبين الغرناطي والإسباني قد استخدما البارود في هذه المعارك، ممّا دفع واشنطون إيرفنج إلى وصف المعارك التي دارت حول مُكْلين سنة 890هـ بالقول «إنّها كانت معركة مهندسين ومدفعيّة أكثر ممّا كانت معركة فرسان»[199].

وهي المعركة نفسها التي ذكر صاحب «نبذة العصر» أنه استُخدِمت فيها الأنفاط[200]، ممّا يدلُّ على أنَّ المقصود بالأنفاط هي المدافع. ويذكر صاحب النّبذة أيضاً[201] أنَّ المسلمين قد انتصروا في تلك المعركة واستولوْا على العُدَدِ والأنفاطِ والبارود.

وفي كتابهما «منتخبات عربيَّة إسبانيَّة» يورد ليرشوندي وسيمونيه نصّاً عربيّاً من «نفح الطِّيب» يصف احتلال مدينة مالقة من قبل الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا سنة 892هـ ورد فيه[202] «وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعُدتهم

وخيلهـم ورَجِلِهـم، وطـال الحصـار حتّـى أداروا عـلى مالقـة مـن البرِّ الخنـادق والسّـور، والأجفـان مـن البحـر ومنـع الدَّاخـل إليهـا، ولم يدخلهـا غـير جماعـةٍ مـن المرابطـين حـال الحصـار، وحاربـوا حربـاً شـديداً، وقرّبـوا المدافـع، ودخلـوا الأربـاض...».

وفي ديوانـه يذكـر ابـن فُركـون أبـو الحسـين بـن أحمـد بـن سـليمان القـرشي شـاعرُ السُّـلطان يوسـف الثّالـث بـن الأحمـر (810 - 820هـ)، إنَّـه في سـنة 812هـ ركـب السُّـلطان إلى حصـن المُتْلـين (المُكْلـين) برسـم البنـاء في الزّيـادة بقصبتـه وطلـب حضـور ابـن فركـون فذهـب إليـه[203]، وقبـل وصولـه إليـه يقـول ابـن فركـون[204] «وصلتنـي براءةٌ بخـطِّ يـده الكريمـة يأمـرني فيهـا بوصـف المبنـى وذكـر معـدن البـارود الـذي عُـثِر عليـه بالموضـع، ووافـق ذلـك سـاعة ركوبـه إلى الصَّيـد، فتلقيتُـه عنـد رجوعـي بمـا نصّـه» ثـمّ يـورد ابـن فركـون القصيـدة ومطلعهـا:

هي الهضبةُ الشمّاءُ بادٍ وقارُها تحامى حِماها ليلُها ونهارُها

ومن أبياتها في وصف معدن البارود[205]:

وفي مَعْدِن البـارودِ أعظم آيةٍ بَدَتْ فالنُّهى فيها يطولُ اعتبارُهاا
نصبْتَ بها للنّفْطِ أبراجَها التي يُضـاهي بروجَ النيّرات جـدارُهـا
فكيّـفَ منه الله للحَرب عُدَّةً ففي القَفْـرِ منه ما إليه افتقارُها

ويتَّضـح مـن هـذا الخـبر وهـذه الأبيـات معرفـة الأندلسـيّين للبـارود، وأنّهـم كانـوا يسـتخدمونه في الأنفـاط لخـوض الحـروب والدِّفـاع عـن الحصـون.

ووَرَدَ ذِكـرُ المدافـع في الأخبـار التـي سـاقها المقّـري في كتابيـه «نفـح الطّيـب» و «أزهـار الرّيـاض» في وصـف المعـارك التـي سـبقت سـقوط غرناطـة، فمـن ذلـك قولـه[206]: «وفي جـمادى الأولى مـن السَّـنة 882هـ تواتـرت الأخبـار أنَّ صاحـب قشـتالة أتى في جنـودٍ لا

تُحصى ولا تُحْصَر، فاجتمع النَّاس بغرناطة، وتكلّموا في ذلك، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصْداً أن يضيفها إلى الحامّة، وجاء بالعُدَّة والعدد، وأغارتْ على النَّصارى جملةٌ من المسلمين، فقتلوا من لحقوه، وأخذوا جملةً من المدافع الكبار، ثمّ جاءتْ جماعةٌ أخرى من أهل غرناطة، وناوشوا النَّصارى، فألجأوهم إلى الخروج عن الخيام، وأخذوها وغيرها، فهرب النَّصارى، وتركوا طعاماً كثيراً وآلةً ثقيلةً....».

وقوله في حصار الإسبان مدينة بسطة سنة 894هـ[207]: «وقرَّب المدافع والآلات من الأسوار حتّى منع الدَّاخل والخارج بعْضَ مَنْعٍ...».

وكان من شروط معاهدة تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا سنة 897هـ: «وألّا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحُهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة والصَّغيرة فإنّها تُسلَّم»[208].

ويُفهَم من هذا الشَّرط أنَّ أهل غرناطة كانوا عند تسليم مملكتهم للملكين فردناند وإيزابيلا يعرفون المدافع والبارود ويستخدمونهما في حروبهم ودفاعهم عن مملكتهم، إلى الدَّرجة التي جعلت الإسبان يحسبون حساباً لتلك المدافع ويطالبون بتسليمها لهم. ويُستَفاد كذلك من هذا الشَّرط أنَّ هذه المدافع كانت ذات أحجامٍ مختلفةٍ فمنها الكبير الضَّخم ومنها الصَّغير الحجم.

وفي الختام فإنّه يُستَفاد من كلِّ ما سلفَ أنَّ الأندلسيّين عرفوا البارود والمدافع في وقتٍ مبكرٍ من وجودهم في الأندلس، وربّما يكونون بذلك قد سبقوا الأوروبيّين في تطوير هذا النَّوع من الأسلحة واستخدامه، وأنَّ أكثر استخدامهم لها كان في عصر بني الأحمر (635- 897هـ) وربّما يعود ذلك إلى كون مملكة بني الأحمر آخر ممالك المسلمين في الأندلس، ولذلك استمرَّ بنو الأحمر في تطوير هذا النَّوع من الأسلحة حتّى آخر يومٍ من أيّام حكمهم في الأندلس. وبعد حديثه عن معركة بسطة التي وقعت سنة 724هـ/ 1325م واستخدم فيها المسلمون المدفعيَّة، يقول سكوت[209] إنَّ هذه المعركة عُدَّتْ أول استخدامٍ للمدفعيَّة في حروب أوروبا.

الحَرَكَةُ العِلميَّةُ في قُرطبة في عَصْرِ الخلافةِ الأمويَّة ودورِها في حوارِ الثَّقافات

مَـرّتْ الأندلـس خـلال الحكـم الأمـويّ لهـا (92 - 422هــ/ 711 - 1030م) في ثـلاث مراحـل: مرحلـة عهـد الـولاة (92 - 138هــ/ 711 - 755م) وقـد حكـم فيهـا الخلفـاءُ الأمويّـون الأندلـس مـن عاصمتهـم دمشـق مـن خـلال ولاتهـم في الأندلـس والمغـرب، ويمكـن وصـف هـذه المرحلـة بأنّهـا مرحلـة الاسـتيطان وإحـكام السَّـيطرة العسـكريَّة وبدايـة التعـرُّف عـلى الأندلـس وجوارهـا الأوروبي، وقـد تواصلـت فيهـا الهجـرات مـن المـشرق العـربي إلى الأندلـس. وعُرِفَـت هـذه الهجرات باسـم الطَّوالـع.

أمّـا المرحلـة الثَّانيـة فهـي مرحلـة عهـد الأمـراء الأمويّـين (138 - 316هــ/ 755- 928م)، حيـث حكـم فيهـا الأمـراء الأمويّـون الأندلـس بأنفسـهم، بعـد أن انتهـى الحكـم الأمـويّ في دمشـق، وقـد اتّسـمت هـذه المرحلـة بالدِّفـاع عـن الحـدود والعمـل عـلى إخـماد الثَّـورات الدَّاخليّـة وبصـورةٍ خاصَّـةٍ ثـورة المولّديـن مـن بنـي حفصـون في بُبَشْـتَر، وتوطيـد الأمـور السِّياسـيّة والفقهيَّة والعمرانيَّـة والاقتصاديَّـة والاجتماعيَّـة والعلميَّـة والأدبيَّـة.

أمّـا المرحلـة الثَّالثـة فهـي مرحلـة عـصر الخلفـاء الأمويّـين (316- 422هــ/ 928 - 1030م)؛ فبعد قضائـه عـلى ثـورة عمـر بـن حفصـون التـي دامـت أكـثرَ مـن سـبعين عامـاً في بُبَشْـتَر، قـرّر الأمـير عبـد الرَّحمـن بـن مُحَمَّـدٍ أن يُعلِـن نفسـه خليفـةً بعـد أن حكـم الأندلـس أميـراً سـتة عـشر عامـاً (300 - 316هــ/ 912 - 928م)، وأرسـل إلى البـلاد بـأن يخاطبـوه بلقـب أمـير المؤمنـين، ولَقّـب نفسَـه مـن الألقـاب السُّـلطانية النَّـاصر لديـن اللـه. وبقـي خليفـةً عـلى الأندلـس إلى حـين وفاتـه

سـنة 350هـ/ 961م[210]. وقـد كان هـذا الإعـلان بدايـة مرحلـةٍ جديـدةٍ في الحيـاة الأندلسـيَّة صعـدت فيهـا الأندلـس صعـوداً واضحـاً في مختلـف المجـالات العمرانيَّـة والاقتصاديَّـة والاجتماعيَّة والسِّياسـيّة والعلميَّـة جعـل مـن قُرطبـة مدينـةً عالميـةً، حيـث انفتحـتْ عـلى أشـهر عواصـم العـالم في ذلـك الزَّمـن شرقـاً وغربـاً وشـمالاً وجنوبـاً مـن بغـداد إلى القسـطنطينية إلى ألمانيـا إلى المغـرب، ونَشَـطَتْ منهـا وإليهـا حركـة السُّـفراء والأمـراء والرَّحّالـة والعلـماء والتُّجّـار، بمـا في ذلـك حركـة التُّجّـار والسُّـفن مـن دول أوروبـا وإليهـا[211].

ولمّـا تـوفي الخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر سـنة 350هـ/ 961 م خلفـه ابنـه الخليفـة الحكـم المسـتنصر باللـه الـذي حافـظ عـلى مـا أسّسـه والـده، وأضـاف إليـه، واعتنـى بالحركـة العلميَّـة عنايـةً فائقـةً، وتـوفي سـنة 366هـ/ 976 م، ودخلـت قرطبـة بعـد وفاتـه بحالـةٍ مـن الاضطـراب السِّـياسي أدتْ إلى سـقوط الخلافـة سـنة 422هـ/ 1030م.

ويبـدو أن الخلفـاء الأمويّـين قـد أدركـوا أن نهضـة الـدّول لا تكـون إلاّ بالعلـم، لأنَّ العلـم يوفِّـر لهـم كلَّ مـا يحتاجـون إليـه مـن معرفـةٍ في مختلـف جوانـب الحيـاة، ولذلـك يقـول صاعـد الأندلـسيّ في كتابـه «طبقـات الأمـم» إنّـه بعـد أن توطَّـد المُلْـكُ لبنـي أميّـة «تحـرَّك ذوو الهمـم منهـم لطلـب العلـوم»[212].

ولذلـك نجدهـم قـد نهضـوا للبحـث عـن العلـوم في كلِّ مـكانٍ وفي الموضوعـات كافّـةٍ ومـن مصادرهـا المختلفـة، فنشـطت رحلـة العلـماء الأندلسـيّين نشـاطاً كبـيراً إلى المـشرق والمغـرب والشّـمال طلبـاً للعلـم، ونشـطت حركـة التَّرجمـة مـن اليونانيّـة واللاتينيّـة إلى العربيّـة، ونشـط التَّعليـم نشـاطاً ملموسـاً في قرطبـة وسـائر مـدن الأندلـس وأُنشـئت المـدارس والمعاهـد، كـما أُنشـئت المكتبـات العامَّـة والخاصَّـة، وإلى جانـب ذلـك كان خلفـاء بنـي أميّـة في الأندلـس «يتواضعـون لعلمائهـا ويرفعـون أقدارهـم ويصـدرون عـن آرائهـم، وكانـوا لا يقدّمـون وزيـراً ولا مشـاوراً مـا لم يكـن عالمـاً»[213]. ووَرَدَ في كتـاب «اقتبـاس الأنـوار للرّشـاطي واختصـاره لابـن الخـرّاط» عـن قرطبـة أنّهـا «كَـثَرَ بهـا العلـم والعلـماء واسـتقرَّ فيهـا الفضـلاء والنُّبـلاء وصـارت دارَ هجـرةٍ للعلـم ومـكانَ رحلـةٍ لأولي الفَهـم»[214].

ووصف أبو الحسن عليّ بن سعيدٍ المغربي قرطبة قائلاً: «وهي أكثر بلاد الأندلس كُتُباً، وأشدُّ النَّاس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات التعيّن والرّياسة، حتّى إنَّ الرَّئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفةٌ يحتفل في أن تكون في بيته خزانةُ كتبٍ»[215].

وكان الخليفة الحَكَم المُستنصر بالله أكثرَ هؤلاء الخلفاء عنايةً بالعلم والتَّعليم والمكتبات، حتّى إنّه أنشأ في قرطبة مدارسَ لتعليم الأيتام بلغت سبعاً وعشرين مدرسةً، كان بعضها عند المسجد وبعضها الآخر في سائر الأرباض[216].

وكان الحَكَم يبعث بالعلماء إلى سائر الأقطار لشراء الكتب «واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق عيون التَّواليف الجليلة والمصنّفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقيّة أيام أبيه ثُمَّ في مُدّة مُلكه من بعده، ما كاد يُضاهي ما جمعته ملوك بني العبَّاس في الأزمنة الطَّويلة، وتهيّأ له ذلك لفرط محبّته للعلم، وبُعد هِمَّته في اكتساب الفضائل، وسموّ نفسه إلى التَّشبّه بأهل الحكمة من الملوك، فكثر تحرُّك النَّاس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتَعلُّمِ مذاهبهم»[217].

وقد بَلَغَتْ مكتبة الحَكَم المُستنصر نتيجة ذلك أربعمائة ألف مُجلَّدٍ، وبلغ عدد فهارسها أربعةً وأربعين مجلّداً، كلّ مجلّدٍ خمسون ورقةً ليس فيها إلاّ أسماء الدَّواوين[218].

ولم يستثْنِ الأندلسيّون في عصر الخلافة الأمويّة علوم جيرانهم الأوروبيّين ولا العلوم القديمة، فقد كانوا حريصين أيضاً على اكتساب تلك العلوم والاستفادة منها، وكان ذلك من مُقتَضيات التَّعايش داخل المجتمع الأندلسيّ الذي كان يتألف من عناصر كثيرةٍ أخرى ذات أصولٍ مسيحيَّةٍ وأوروبيَّةٍ، كالإسبان والصَّقالبة واليهود، فضلاً عمّا يقتضيه التَّعامل مع السُّفراء والتُّجَّار والرَّحّالة وسواهم ممّن يَفِدون إلى الأندلس من تلك البلدان لأسبابٍ شتّى.

وقد كان الأندلسيّون من أصولٍ مسيحيَّةٍ إسبانيَّةٍ، والصَّقالبة، واليهودُ عناصرَ فاعلةً في تنشيط التَّبادل العلمي والثَّقافي وترجمة العلوم والمعارف بين الأندلسيّين والأوروبيّين في عصر الخلافة. وفي حديثه عن اليهود أيام الخلافة الأمويَّة يقول صاعد الأندلسي في كتابه[219]: «وكان بباب الأندلس منهم جماعةٌ، فممّن عُني بصناعة الطِّبِّ حسداي بن

إسحق خادم الحَكَمِ بن عبد الرَّحمن النَّاصر لدين الله، فكان متقفّياً بصناعة الطِّبِّ مُتقدِّماً في علم شريعة اليهود، وهو أوّل من فتح لأهل الأندلس منهم بابَ علمهم من الفقه والتَّاريخ وغير ذلك، وكانوا قبله يضطّرون في فقه دينهم وسنيّ تاريخهم ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد، فيستجلبون من عندهم حسابَ عدّةٍ من السّنين يعرفون به مداخل تاريخهم ومبادئ سنّتهم. فلمّا اتّصل حسداي بالحَكَمِ ونال عنده نهاية الحظوة بفضل دربته ونهاية براعته وأدبه وتوصّل به إلى استحلال ما شاء من تواليف اليهود بالمشرق، فعلم حينئذٍ يهود الأندلس ما كانوا قبلاً يجهلونه واستغنوا عمّا كانوا يتجشّمون الكلفة فيه».

وفي أيّام النَّاصر لدين الله والد الحَكَمِ، كان تسامح عبد الرَّحمن من السَّعة بحيث كان يُحضر مجالسه الخاصَّة الطَّبيبُ اليهوديُّ الذَّائعُ الصِّيت حسْداي بن شبروط، وكان من نتائج هذه الرِّعاية التي أضفاها النَّاصر على حسْداي أنْ بدأت الدِّراسات التّلمودية في إسبانيا، ولم تلبث هذه البلاد أن أصبحتْ مركز الدِّراسات العبريّة. وكان من نتائج عناية حسداي بهذه الدِّراسات العبريّة أن تحسَّن حال إخوانه في الدِّين، ممّا أتاح لليهود -فيما بعد- أن يقوموا بنصيبٍ كبيرٍ في الثَّقافة الأندلسيَّة[220].

وكان مؤلّفو بعض الكُتبِ العربيَّة في عصر الخلافة الأمويَّة من أصولٍ أوروبيَّةٍ، ومنهم أبو بكر مُحَمَّد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطيّة (ت 367هـ/ 977م) وهو حفيد سارة القوطيّة حفيدة غيطشة، وقد ألّفَ كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس».

ومنهم الأسقف ربيع بن زيدٍ المعروف بالأسقف ريكيموندو، وقد كان في خدمة عبد الرَّحمن النَّاصر، فقد ألف كتاب «تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان» وهو تقويمٌ فلكيٌّ مناخيٌّ زراعيٌّ، وفيه ذكر منازل القمر وما يتعلّق بذلك ممّا يُستحسن مقصده وتقريبه[221]. وقد ألّفه باللغتين اللاتينيَّة والعربيَّة[222]، إذ كان ربيع بن زيدٍ يُجيد اللغتين العربيَّة واللاتينيَّة[223]. ومنهم أيضاً: إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي، وعنه نقل البكري في كتابه جغرافية الأندلس وأوروبا[224].

مظاهرُ حوار الثَّقافات في عصر الخلافة الأمويَّة

وقـد بـرز عـددٌ مـن الظَّواهـر، في الحركـة العلميَّـة في الأندلـس، في عهـد الخلافـة الأمويَّـة تُمثِّـل حـواراً للحضـارات وتفاعـلاً للثَّقافـات، منهـا: حـرص الأندلسـيّين عـلى اقتنـاء الكتـب اليونانيَّـة واللاتينيَّـة وترجمتهـا إلى العربيَّـة، ومنهـا: الاحتفـاء بالعلـماء اليونـان والرّومـان ومؤلّفاتهـم والاسـتفادة مـن هـذه المؤلّفـات، ومنهـا: الاهتـمام بإيـراد أخبـار الـرّوم والفرنْجـة واليونـان وسـواهم في المصـادر العربيَّـة التَّاريخيّـة والجغرافيَّـة والعلميَّـة، ومنهـا ترجمـة المؤلّفـات مـن العربيَّـة وإليهـا.

أمـا حـرص الأندلسـيّين عـلى اقتنـاء الكتـب اليونانيَّـة واللاتينيَّـة وترجمتهـا إلى العربيَّـة، فتـدلُّ عليـه الهديَّـة التـي بعـث بهـا أرمانيـوس ملـك القسـطنطينية (905 - 959م) إلى عبـد الرَّحمـن النَّـاصر، واشـتملت مـن ضمـن مـا اشـتملت عليـه كتـاب ديسـقوريدس مصـوِّر الحشـائش بالتَّصويـر الرومـي العجيـب، وكان مكتوبـاً بالإغريقيـة، وبعـث معـه كذلـك كتـاب هروسـيوس صاحـب القصـص، وهـو تاريـخٌ للـرّوم عجيـبٌ، فيـه أخبـار الدُّهـور وقصـص الملـوك الأُول وفوائـدُ عظيمـةٌ. وكتـب أرمانيـوس في كتابـه إلى النَّـاصر أنَّ كتـاب ديسـقوريدس لا تُجتنـى فائدتـه إلاّ برجـلٍ يُحْسِـنُ العبـارة بالّلسـان اليونـاني ويعـرفُ أشـخاص تلـك الأدويـة، فـإن كان في بلـدك مـن يُحسِـن ذلـك فُـزْتَ أيّهـا الملـكُ بفائـدة الكتـاب، وأمّـا كتـاب هروسـيوس فعنـدك في بلـدك مـن اللاطينيـين مـن يقـرأه باللسـان اللاطينـي، وإن كشـفتهم عنـه نقلـوه لـك مـن اللطينـي إلى الكتـاب العـربي.

ولم يكـن يؤمئـذٍ بقرطبـة مـن نصـارى الأندلـس مـن يقـرأ الّلسـانَ الإغريقـيّ الـذي

هـو اليونـانيُّ القديـم، فبقـيَ كتـاب ديسـقوريدس في خزانـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر بالّلسـان الإغريقـيّ، ولم يُترجَـم إلى الّلسـان العـربيّ، وبقـي الكتـاب بالأندلـس، فلـما جـاوب أرمانيـوس الملـك سـأله أن يبعـثَ إليـه برجـلٍ يتكلَّـمُ بالإغريقـي واللطينـي ليعلِّـم عبيـداً لـه يكونـون مترجمـين، فبعـث أرمانيـوس الملـك إلى النَّـاصر براهـبٍ كان يسـمّى نقـولا، فوصـل إلى قرطبـة سـنة أربعـين وثلاثمائـةٍ، وكان يومئـذٍ بقرطبـة مـن الأطبـاء قـومٌ لهـم بحـثٌ وتفتيـشٌ وحـرصٌ عـلى اسـتخراج مـا جُهـل مـن أسـماء عقاقـير كتـاب ديسـقوريدس إلى العربيَّـة، وكان أبحثهـم وأحرصهـم عـلى ذلـك مـن جهـةِ التَّقـربِ إلى الملـك عبـد الرَّحمـن النَّـاصر، حسـداي بـن شـبروط الإسرائيـلي، وكان نقـولا الرَّاهـب عنـده أحظـى النَّـاس وأخصَّهـم بـه. وفَـسَّرَ مـن أسـماء عقاقـير كتـاب ديسـقوريدس مـا كان مجهـولاً»[225].

ويذكـر آنخـل جنثالـث بالنثيـا أنَّ الإمبراطـور الـذي أهـدى الكتابـين إلى عبـد الرَّحمـن النَّـاصر هـو قسـطنطين السَّـابع المعـروف ببورفيروجينيـت، أي لابـس الأرجـوان، وذلـك سـنة 337هـ/ 948 - 949م[226].

أمّـا كتـاب هروسـيوس (هروشـيوش) (Paulus Orasius) فقـد ألّفه باولوس أوراسـيوس باللاتينيَّـة، وعـاش مؤلّفـه في القرنـين الرَّابـع والخامـس الميلاديـين. وقـد سـمّاه ابـن خلـدون مـؤرِّخ الـرّوم واعتمـد عليـه في عـشرات المواضـع مـن كتابـه العِـبَر، وذكـر أنَّ الـذي نقلـه إلى العربيَّـة قـاضي النَّصـارى وترجمانهـم بقرطبـة[227].

ويَذكُـرُ محقِّـقُ كتـاب «طبقـات الأطبـاء والحكـماء» لابـن جلجـل[228] أنّـه توجد نسـخةٌ وحيـدةٌ مـن التَّرجمـة العربيَّـة لكتـاب هروسـيوس محفوظـةٌ بمكتبـة جامعـة كولومبيـا بنيويـورك.

ويُفهَـم مـن أخبـار الخليفـة المسـتنصر أنّـه اجتهـد في الحصـول عـلى كتـب علـوم الإغريـق وترجمتهـا إلى العربيَّـة[229]. وبعـد ترجمـة كتـاب ديوسـقوريدس إلى العربيَّـة أصبـح في قرطبـة عَـددٌ مـن العلـماء الذيـن يعرفـون الإغريقيَّـة ويترجمـون عنهـا منهـم

أبـو عبدالله الصقـلّي الـذي وصفـه ابـن أبي أصيبعـة بأنّـه «كان يتكلـم باليونانيَّـة ويعـرف أشـخاص الأدويَّـة»[230].

ومـمّا يَـدلُّ عـلى شِـدَّة عنايـة الأندلسـيين بالكتـب مـا ذكرتـه المصـادر عـن ضيـاعِ مُصحَـفِ الخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر بجلّيقيـة في إثـر هزيمتـه في معركـة الخنـدق سـنة 327هـ/ 938م، فقـد «اشـتدَّ لـه قلقُـه وندمُـه عـلى تغريـره بـه، في إدخالـه إلى دار الحـرْب، خلافـاً لسَـنَنِهِ، لم يـزل مسـتغفراً اللـه خالقـه، مـن تلـك الحَوْبـة، بـاذلاً في افتكاكـه كلَّ رغيبـةٍ، وكان قـد رُدَّت عليـه أكـثر أجزائـه دفْعـاً، إلاّ قليـلاً، أعيـا عـلى المُلتمسـين لهـا بجلّيقيـة وجدانهـا، فتضاعَـفَ وجْـدُهُ بهـا، ومـضى عـلى رأيـه في البحـث عنهـا والتَّقـصّي عليهـا والبعـثرِة دونهـا بـكلِّ جهـةٍ، حتـى عـثر عليهـا الطَّاغيـةُ رُذْمـير في بعـض زوايـا جلّيقيـة، فأرسـلها إلى النَّـاصر لديـن اللـه، فكملـت بـه مسرَّتـه، وصـار عليـه في افتـكاك مصحفـه هـذا مـالٌ جسـيمٌ.

وذكـر أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ الـرَّازي أنَّ الطَّاغيـة رُذْمـير بـن أُردون، أهـدى هـذا المُصحَـف أجمعـه إلى النَّـاصر لديـن اللـه، فكملـت بـه مسرَّتـه، في جملـة هديّتـه التـي هـاداه بـه إثـرَ انعقـاد سـلمه، وورد عليـه بهديّتـه تلـك رسـوله فتْـح المعـروف بالحجرملـه، وحريـز صاحبـه مـن أهـل سـمّورة»[231].

ومثلـما كان الأندلسـيّون حريصـين عـلى اقتنـاء كتـب اليونـان والرّومـان والاسـتفادة منهـا، كان الأوروبّيـون كذلـك يسـعون إلى الحصـول عـلى الكتـب العربيَّـة والاسـتفادة منها، ومـن الأدلّـة عـلى ذلـك مـا ذكـر عـن هوتـو Otto ملـك ألمانيـا، فقـد أرسـل سـفارةً إلى الأندلـس سـنة 342هـ/ 953م قادهـا John of Gorze بهـدف معرفـة مـدى التقـدُّم الثَّقافي والعلمـي الـذي كانـت تَشـهَدُه الأندلـس، وأنَّ هـذا السَّـفير قـد تعلَّـم العربيَّـة خـلال إقامتـه في قرطبـة وحمـل معـه عنـد عودتـه إلى ألمانيـا بعـض المخطوطـات العربيَّـة[232].

ويقـول آنخـل جنثالـث بالنثيـا في كتابـه تاريـخ الفكـر الأندلـسي «إنَّ يوحنـا أسـقُفْ جُرتْـزْ سـفير الملـك هوتـو إلى بـلاط عبـد الرَّحمـن النَّـاصر وضـع تاريـخ حياتـه بعنـوان:

.Vita Joannis Corgiensis auctore videtur Abbate S. Arnulpho Metis

وإنّـه وصـف فيـه رحلتـه إلى قرطبـة سـفيراً للإمبراطـور هوتـو لـدى عبـد الرَّحمـن النَّـاصر، وقـد أورد في ثناياهـا مـن الملاحظـات مـا يـدلُّ عـلى اتجـاه المُسـتعربين نحـو الإسـلام اتجاهـاً شـديداً»[233].

وكان يوحنـا أسـقف جُرْتْـزْ هـذا عـلى علاقـة موصولـةٍ بربيـع بـن زيـدٍ الأسـقف الـذي كان بـدوره سـفيراً للنَّـاصر لـدى الإمبراطـور هوتـو (Otto1) إمبراطـور ألمانيـا[234]. وكان ربيـع يجيـد العربيَّـة واللاتينيَّـة[235]. وقـد وضـع ربيـعُ بـن زيـدٍ هـذا كتابـاً عنوانـه «كتـاب تفصيـل الأزمـان ومصالـح الأبـدان» وهـو تقويـمٌ فلـكيٌّ مناخـيٌّ زراعـيٌّ. وقـد ترجمـه إلى اللاتينيَّـة جـيرارد الكريمـوني[236]. ويقـول الدُّكتـور عبـد الرَّحمـن عـلي الحجّـي إنَّ ربيـعَ بـن زيـدٍ ألّفـه للحَكَـمِ المُسـتنصر باللغتـين العربيَّـة واللاتينيَّـة[237].

ومـن الكتـب الأخـرى التـي وضعهـا مؤلِّفوهـا باللغتـين العربيَّـة واللاتينيَّـة في عـصر الخلافـة الأمويَّـة بالأندلـس كتـاب «التَّقويـم القرطبـي» لعريـب بـن سـعدٍ القرطبـي، وهـو عـن تقويـم قرطبـة سـنة 961م[238].

إنَّ عمليـة تأليـف الكتـب باللغتـين العربيَّـة واللاتينيَّـة لهـا دلالـةٌ مهمَّـةٌ، إذ إنّهـا تراعـي وجـود اهتمامـاتٍ علميَّـةٍ ومعرفيَّـةٍ مشـتركةٍ بـين أهـل الأندلـس وجيرانهـم الأوروبيـين، وتُمثِّـلُ شـكلاً مهـماً مـن أشـكال التَّلاقـي والمشـترك الحضـاري، فضـلاً عـن كونهـا تُراعـي تنـوّع الثَّقافـات وتَعـدُّد الألسـنةِ داخـل المجتمـع الأندلـسيّ.

ومـن الكتـب العربيَّـة في الأندلـس في عـصر الخلافـة الأمويَّـة التـي حظيـت باهتـمامٍ كبـيرٍ لـدى الأوروبيـين منـذ وقـتٍ مبكـرٍ، كتـاب «التَّصريـف لمـن عجـز عـن التَّأليـف» لأبي القاسـم خلـف بـن عبّـاس الزَّهـراوي (ت 403هـ/ 1013م)، قـال عنـه أبـو مُحَمَّـدٍ بـن حـزمٍ في رسـالته في فضـل الأندلـس: «ولـئن قلنـا إنّـه لم يؤلِّـف في الطـبِّ أجمـع منـه ولا أحسـن للقـول والعمـل في الطَّبائـع لنصدقـنَّ»[239]. ويقـع الكتـاب في مجلّـداتٍ عديـدةٍ، وتوجـد منـه نسـخٌ خطّيّـةٍ في خزائـن عِـدّةٍ. وقـد عـرف الأوروبيّـون مؤلّفـه باسـم

Abul Kasis. وقد وصفه آنخل جنثالث بالنثيا بأنّه موسوعةٌ طبِّيّةٌ، وقد ترجمه إلى اللاتينيَّة جيرارد الكريموني الإيطالي، وكَثُرَ اعتماد النَّاس عليه في العصور الوسطى. والجزء الثَّلاثون منه في الجراحة، قال عنه آنخل جنثالث بالنثيا إنّه كان أهمَّ كتابٍ ذائعِ الصّيت في تاريخ الطبِّ كلّه، وقد ارتفع به الزَّهراوي في أعين النَّاس إلى طبقة أبقراط وجالينوس[240].

إنّ انتقالَ الكُتبِ العربيَّة واللاتينيَّة عبر الحدود بين أوروبا والأندلس وحرص كلا الجانبين على اقتناء مؤلّفات الآخر هي صورةٌ مشرقةٌ من صور التَّفاعل الثَّقافيِّ والحضاريِّ بينهما، ودليلٌ على إدراك الخلفاء الأندلسيّين أنَّ الحضارة لا يُمكن أن تنشأ في معزلٍ عن الحضارات الأخرى ولا سيّما المجاورة.

ومن مظاهر حوار الحضارات في الأندلس في عصر الخلافة الأمويَّة اعتماد المؤلّفين الأندلسيّين على مصادر يونانيّةٍ ورومية، والعناية بتلك الكتب شرحاً وتفسيراً واختصاراً وتقليداً وترجمةً. فعندما ألّف ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسي) كتابه طبقات الأطباء والحكماء سنة 377هـ/ 987م، قال في مُقدِّمة كتابه موضِّحاً مصادره: «ولم أصلْ أيّها الشَّريف إلى عِلْم ما قيّدتُهُ لك في رسالتي هذه، إلّا بعد النَّظر والبحث للكتب القديمة، ككتاب الألوف لأبي معشرٍ المُنجِّم، وككتاب هروشيُش صاحب القصص، وككتاب القراونقة (Chronica) ليرونم التّرجمان، وكأخبار رأيتها لحكماء اليونانيّة استدللتُ منها على مكان كلِّ حكيمٍ منهم ودرجته، وفي دولةِ مَنْ كان من الملوك»[241].

كما رَجَعَ ابن جلجل إلى كُتُبٍ يونانيَّةٍ ورومية كثيرةٍ لبقراط وجالينوس وأفلاطون وسواهم، كما اعتمد على كتاب هروشيوش، وكتاب إيسدور الإشبيليّ، ممّا يدلُّ على انتشار هذه الكُتب في الأندلس بالعربيَّة أو بالإغريقيَّة، ويؤكد دور الأندلسيّين في زمن الخلافة الأمويّة في نقل التُّراث الإغريقي من المشرق العربي إلى أوروبا من خلال العربيَّة واللاتينيّة.

ويشير ابن جلجل إلى أنّه قبل عصر الخلافة «كان يُعَوّلُ في الطبِّ بالأندلس على كتابٍ مترجمٍ من كتب النَّصارى، يقال له: الإبريشم، ومعناه: المجموع أو الجامع»[242].

ومن الكتب التي ترجمها الأندلسيّون إلى العربيَّة كتاب قُبَّة الفلك Planisphaerium لبطليموس ترجمه أبو القاسم مسلمةُ بن أحمد المجريطي (ت 394هـ/ 1004م)، ونُشِرت ترجمته اللاتينيّة في بازل (سويسرا) سنة 1536[243]، ولذلك وصفه صاعد الأندلسيّ بقوله: «أبو القاسم مسلمةُ بن أحمد المعروف بالمجريطي، كان إمامَ الرياضيّين في الأندلس في وقته وأعلمَ ممّن كان قبله بعلم الأفلاك، وكانت له عنايةٌ بأرصاد الكواكب، وشغف بتفهُّم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي»[244].

ويذكر آنخل جونثالث بالنثيا أنَّ فرانشيسكو خافيير سيمونيت يرى «أنَّ البكري لا بدَّ أن يكون قد عَرَفَ كتابَ أصول الكلمات Etimologias لإيزودور الإشبيليّ مترجماً إلى العربيَّة، لأنَّ أوصاف بعض النَّواحي في كتاب إيزودور تنطبق على أوصاف البكري لها. فالجزء الذي يصف فيه البكري جزائر فُرْطُناطَشْ (Islas Fortunatas) المُسمّاة بالسَّعادات أو جزائر كناريا، يبدو كأنّه مأخوذٌ من إيزودور»[245].

وبَعدَ ترجمةِ كتاب الحشائش لديسقوريدس إلى العربيَّة، عُنيَ الأندلسيّون بهذا الكتاب، وممّن عُني به ابن جلجل صاحب كتاب طبقات الأطبَّاء والحُكماء، فألّفَ كتاباً سمّاه: تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس. وله أيضاً: مقالةٌ في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه ممّا يُستعمل في صناعة الطبِّ ويُنتَفعُ به، وما لا يستعمل كي لا يغفل عن ذِكرِه[246].

كما عُنوا بإقليدس ومؤلفاته، ففي ترجمته لأبي عبد الملك الثَّقفي الذي خَدَمَ النَّاس والمُستنصر بصناعة الطبِّ، يقول ابن جلجل: وكان أديباً عالماً بكتاب إقليدس وبصناعة المساحة[247].

وكذلك كان أبو القاسم أصبغ بن مُحَمَّدٍ المعروف بابن السّمح الغرناطي (ت 425هـ/

1034م): «لـه تواليـفُ حسـنةٌ منهـا: المدخـل إلى الهندسـة في تفسـير كتـاب إقليـدس»[248]. وقـد لُقِّـب عبـد الرَّحمـن بـن إسـماعيل بـن زيـدٍ بالإقليـدي، أو إقليـدس الأندلـس لأنـه كان مُتقدِّمـاً في علـم الهندسـة مَعنيّـاً بصناعـة المنطـق، ولـه تأليـفٌ مشـهورٌ في اختصـار الكتـب الثَّمانيـة المنطقيَّـة[249]. كـما عُنـيَ الأندلسـيّون في عـصر الخلافـة الأمويّـة بكتـب جالينـوس، ومـن أشـهرهم عمـر وأحمـد ابنـا يونـس بـن أحمـد الحـرّاني، رحـلا إلى المـشرق في أيّـام الخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر، وأقامـا هنالـك عـشرة أعـوامٍ، ودخـلا بغـداد، وقَـرآ فيهـا عـلى ثابـت بـن سـنان بـن ثابـت ابـن قـرّة الصابـئ كتـب جالينـوس عرْضـاً، وخدمـا ابـن وصِيـف في عمـل عِلـل العـين، ثـمّ انصرفـا إلى الأندلـس ودخلاهـا في دولـة الحَكَـمِ المسـتنصر في سـنة إحـدى وخمسـين وثلاثمائـةٍ، وغـزوا معـه غزوتـه إلى شَـنْتْ إسـتبين، وانصرفـا، وألحقهـما لخدمتـه بالطـبِّ، وأسـكنهما مدينـة الزَّهـراء... وبعـد أن تـوفِّي عُمَـرُ تـولّى أخـوه أحمـد خزانةً للطـبِّ في القـصر لم يكـن قـطّ مثلهـا، ورتَّـب لهـا اثنـي عـشر صبيّـاً صقالبـةً طبّاخـين للأشربة، صانعـين للمعجونـات، وأسـتأذنَ أمـيرَ المؤمنـين أن يُعطـي منهـا مـن احتـاجَ مـن المسـاكين والمـرضى، فأبـاح له ذلـك[250].

كـما ألّـف يحيـى بـن إسـحق أحـد وزراء الخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر كُنّاشـاً في الطـبِّ «مـن خمسـة أسـفارٍ ألّفـه عـلى مذهـب الـرّوم يسـمّى الإبريشـم»[251] وكان أبـوه نصرانيًّـاً، أمّـا يحيـى فقـد أسـلم.

ولم تقتـصر اسـتفادة الأندلسـيّين مـن الإغريـق والـرّوم عـلى كتـب الحشـائشِ والطـبِّ والهندسـةِ بـل نجـد مـن الأندلسـيّين في عـصر الخلافـة الأمويَّـة مـن حـذا حذوهـم في مجـال الفلسـفة، ومنهـم أبـو عبـد اللـه مُحَمَّـدٌ بـن عبداللـه بـن مسـرّة الجبـلي القرطبـي (ت 319هـ/ 931م) فقـد كان كلفـاً بفلسـفة أنباذُقليـس دؤوبـاً عـلى دراسـتها، وهـو مذهـبٌ أفلوطينـي يقـول بوجـودِ مـادّةٍ روحيَّـةٍ يشـتركُ فيهـا جميـع الكائنـات عـدا الـذَّات الإلهيّـة، واعتُـبِرتْ هـذه المـادّة أوّل صـورةٍ بـرزت للعـالم العقـلي الـذي يتألـف مـن الجواهـر الخمسـةِ الرَّوحانيّـة[252].

ومـن مظاهـرِ التَّفاعـل الثَّـقـافيّ والحضـاريّ في الأندلـس في عهـد الخلافـة الأمويّـة مـا نجـده في المصـادر الأندلسـيّة في هـذه الحقبـة المذكـورة مـن اهتـمامٍ بأخبـار الأندلـس قديمـاً وأخبـار أهـالي البـلاد المجـاورة مـن اليونـان والـرّوم والفرنّجـة وسـواهم.

ومـن هـؤلاء ابـن جلجـل في كتابـه «طبقـات الأطبـاء والحكـماء»، فقـد خَصَّـص نحـو ثلـث الكتـاب للتَّعريـف بعلـماء اليونـان والـرّوم. وبلـغ عـدد مـن ترجـم لهـم منهـم خمسـة عـشر عالمـاً مـن علـماء الطـبِّ والرّياضيـات والفلـك والفلسـفة والهندسـة وغيرها، وعَـرَّف بأخبارهـم ومؤلّفاتهـم.

وقـد حـذا صاعـد الأندلـسيُّ حـذوه في كتابـه «طبقـات الأمـم» وتحـدَّث في فصـلٍ طويـلٍ عـن العلـم في اليونـان(253). وفي فصـلٍ آخـر عـن العلـم في الـرّوم[254].

وقـد ألّـف إسـحق بـن سـلمة في زمـن الخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر كتابـاً سـمّاه «تفضيـل الأندلـس» تَحـدَّث فيـه عـن أخبـار دولـة القـوط، وعنـه نقـل ابـن حيّـان في كتـاب المقتبـس[255].

كـما ألّـف أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن مـوسى الـرَّازي (ت 324هـ/ 936م) كتابـاً عـن كبـار المـوالي الأندلسـيّين، وألّـفَ كتابـاً في التَّاريـخ جعـل عنـوان القسـم الثَّـاني منـه «تاريـخ إسـبانيا منـذ وصـول إشـبان بـن يافـث إليهـا إلى دون رودريجـو»[256].

كـما أورد إبراهيـم بـن يعقـوب الإسرائيـلي الطرطـوشي الـذي ذهـب وربيـعَ بـن زيـدٍ الأسـقف القرطبـي سـفيرين لعبـد الرَّحمـن النَّـاصر إلى هوتـو ملـك ألمانيـا، أورد كثـيراً مـن أخبـار الجليقيـين والإفرنـج وغيرهـم مـن قبائـل النَّصـارى إلى بلـد الصَّقالبـة وغيرهـم، وقـد اعتمـد أبـو عبيـد البكـري في كتابـه جغرافيـة الأندلـس وأوروبـا عـلى مـا أورده الطّرطـوشي[257].

ويظهـر مـمّا تقـدَّم أنَّ عنايـة كلٍّ من خلفـاء بني أميّـة في الأندلس وملوكِ القسـطنطينيّة وألمانيـا وقشـتالة، كلٍّ بمـا لـدى الطَّـرف الآخـر مـن كتـبٍ ومخطوطـاتٍ وتبـادل هـذه الكتـب أو التَّهـادي بهـا وترجمتهـا، هـي أدلّـةٌ عـلى الرَّغبـة لـدى هـؤلاء الملـوك بتبـادل

المعرفة واكتشاف كلٍّ منهم للآخر من خلال ما لديه من إنتاجٍ علميٍّ أو فكريٍّ.

كما أنَّ اهتمام الأندلسيّين وجيرانهم الأوروبّيين بكتب الطبِّ والهندسة والفلسفة على وجوه الخصوص، له دلالةٌ إنسانيَّةٌ وحضاريَّةٌ، فالتَّوسع في معرفة الطبِّ والأدوية هو دليلٌ على النُّزوع نحو خدمةِ الإنسانِ وتخفيفِ آلامِهِ، والتَّوسّع في الفلسفةِ هو تعبيرٌ عن الميلِ إلى بناءِ العقلِ والفكرِ، وهذه المجالات الثَّلاثة هي العناصر الأساسية في نجاحِ أيّ حضارةٍ.

ولقد كان أرمانيوس ملكُ القسطنطينيَّة ذا نباهةٍ وفطنةٍ عندما أهدى عبد الرَّحمن النَّاصر كتاباً في الأدوية والطبِّ، فهو يدرك أهميَّة هذا الجانب لدى الخليفة الأمويّ، وهو إشارةٌ من أرمانيوس إلى أهميَّة الجانب الإنساني في العلاقات بين الدَّولتين. كما أنَّ إهداءه كتاباً في التَّاريخ الأوروبي وهو كتاب هروشيوش مع كتاب الطبِّ لم يكن اختياراً عَفويّاً، بل هو إشارةٌ أخرى تحمل دعوةً لصناعة تاريخٍ حافلٍ بالسِّلم والرِّعاية الإنسانيَّة.

إنّ تبادلَ الكتبِ وانتقالها عبر الحدود وترجمتها بين العربيَّة واللاتينيَّة واليونانيَّة واستفادة كلِّ طرفٍ منها تطبيقاً أو تقليداً أو تدريساً هي صورٌ من حوار الثَّقافات في ذلك الزمن، الذي كانت سُبُل انتقال المعرفة فيه تبقى مفتوحةً وسالكةً مهما أوصدت أبواب التَّواصل السِّياسيّ. فعلى الرغم من الخلافات السِّياسيّة العميقة بين الخلافة الأمويَّة في الأندلس والخلافة العباسيَّة في بغداد إلّا أنَّ علماء الأندلس كانوا يتدفَّقون إلى بغداد لشراء الكتب وإدخالها إلى الأندلس حتى أصبحت مكتبة الحَكَمِ المستنصر من أعظم مكتبات العالم في ذلك الزَّمن. وعلى الرغم من النِّزاعات والحروب والخلافات السِّياسيّة بين الأندلس والجلالقة خلال عهد الخلافة الأمويَّة إلّا أنَّ طُرقَ التُّجار والسُّفن والسُّفراء والعلماء كانت سالكةً وآمنةً ومكفولةً بموجب الاتفاقيات والمعاهدات المُبرمة بين الطَّرفين. ففي سنة 328هـ/ 939م عقد حَسْداي بن إسحق الإسرائيلي الكاتبُ السِّلمَ مع شُنْيير بن غيفريد الإفرنجي صاحب

برشلونة وأعمالها على الشُّروط التي ارتضاها النَّاصر لدين الله... وقد طلب بعض عظماء برشلونة واسمه أُنجُه تأمين تُجَّار أرضه على الاختلاف إلى الأندلس، فأجيب إلى ذلك... ونفذ العهد إلى عُمّال الجزائر الشرقيَّة والمراسي الساحليَّة بأرض الأندلس بتأمين جميع المختلفين (القادمين) من بلدِ أُنْجُه، وغيره ممّن سُولِم من هذه الأمّة، على دمائهم وأموالهم وكلِّ ما تضمّنَتْهُ سُفُنُهم، يتصرَّفون بتجارتهم حيث شاؤوا، فوردت مراكبهم إلى الأندلس من هذا الوقت، وعظم الانتفاع بهم[258].

إنَّ انتشار كتب اليونان بين الأندلسيّين واليونان والدّول الأوروبيَّة المجاورة للأندلس واهتمام هذه الأمم بها اهتماماً كبيراً، وظهور كتبٍ باللغتين العربيَّة واللاتينيَّة يؤسِّس لقاعدةٍ معرفيَّةٍ مشتركةٍ بين الأندلسيّين والأوروبيّين ويُمهِّد لحوارٍ ثقافيٍّ وحضاريٍّ يستند إلى هذه المعرفة المُشتركة وينطلق منها، ويكشف عن أنَّ

العلـم كان أسـاس التَّفاعـل الثَّقـافي وحـوار الحضـارات.

شَخصيةُ المرأةِ الأندلسيَّة الشَّاعِرَة في السِّياق الحضاريّ الأندلسيّ

للتَّعـرُّف عـلى شَـخصيَّة المـرأة الأندلسـيّة مصـادرُ كثـيرةٌ مثـل كتـب التَّاريـخ الأندلـسيِّ وكتـب الأدب وكتـب الفقـه في الأندلـس، ومـا وصفهـا بـه الشُّـعراء، ومـا وَرَدَ عنهـا مـن أخبـارٍ مُتفرِّقـةٍ تتحـدَّث عـن سـلوكها ولباسـها وزينتهـا وأوصافهـا الجسـميَّة والخَلقيَّـة وغـير ذلـك، إلّا أنَّ أهـمَّ مصـدرٍ مـن مصـادر التَّعـرُّف عـلى تلـك الشَّـخصيّة هـو مـا صـدر عنهـا مـن أقـوالٍ وأشـعارٍ، ففـي هـذه الحالـة تظهـر لنـا المـرأةُ الأندلسـيَّةُ وهـي كائـنٌ نابـضٌ بالحيـاة، عـلى خـلافِ الصُّـورة التـي تظهـر لنـا فيهـا مـن خـلال الأخبـار، إذ نـرى صورتهـا في تلـك الأخبـار مـن خـلال وسـيطٍ أو طـرفٍ ثالـثٍ، فـلا تبـدو الصُّـورة لنـا واضحـةً كـما لـو كانـت حـاضرةً بشـكلٍ مبـاشرٍ تتحـدَّث إلينـا بمـا تشـعر بـه وتُظهِـر لنـا أفكارهـا وانفعالاتهـا وسـائر حالاتهـا الإنسـانيَّة.

وقـد ظَهـرتْ المـرأة الأندلسـيَّة في ميادِيـن الحيـاة والعمـل المختلفـة، ربّـةَ منـزلٍ ومعلِّمةً وطبيبـةً ومتصوِّفـةً وكاتبـةً وناسـخةً وخطّاطـةً وراقصـةً بالسِّـيوف وشـاعرةً، حتّـى إنَّ الخلفـاء في عـصر بنـي أميّـة في الأندلـس كانـوا يتَّخـذون منهـنَّ كاتبـاتٍ لهـم، فقـد كانـت مُزنـةُ كاتبـةً للخليفـة عبـد الرَّحمـن النَّـاصر، وكانـت حاذقـةً مـن أخـطِّ النِّسـاء، وتوفِّيـت سـنة ثمـانٍ وخمسـين وثلاثمائـة[259].

وكانـت لبنـى كاتبـة الحَكَـمِ المُسـتنصر، وصفهـا ابـن بشـكوال في كتابـه «الصِّلـة» بقوله:

«كانت حاذقةً بالكتابة، نحويةً شاعرةً، بصيرةً بالحساب، مشاركةً في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضيّةً خطّاطةً جدّاً، وتوفّيت سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة»[260]. وكانت النِّساء الأندلسيّات تَطلبُ الأعمال الدِّيوانية كالذي نَجدُهُ في شِعرِ حفصة الرّكونية[261].

وورد في كتاب «المُعجب» لعبد الواحد المرّاكشي نقلاً عن ابن فيّاض في تاريخه أنّه قال: «كان بالرّبض الشَّرقيِّ في قرطبة مائةٌ وسبعون امرأةً كلّهنَّ يكتبن المصاحف بالخَطِّ الكوفيِّ، هذا في ناحيةٍ من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟»[262].

أمّا النِّساء الشَّواعر في الأندلس فقد تحدَّثتْ كتب الأدب والتَّراجم الأندلسيَّة عن نحو سبعٍ وعشرين شاعرةً، أشهرهنَّ ولاّدة بنت المستكفي (ت 484هـ) ونزهون بنت القلاعي الغرناطية، وحفصة بنت الحاجِّ الركونيّة، ونُضار بنت أبي حيّان الغرناطيّ.

ومِمّا يلفت النَّظر في أشعار النِّساء الأندلسيّات أنّه كان لأكثرهنَّ قصصُ عشقٍ لم يتردَّدن في البوح بها في أشعارهنَّ، فكانت ولاّدة تربطها قصةُ عشقٍ بأبي الوليد ابن زيدون، وكانت حفصة بنت الحاجِّ الرّكوني تربطها علاقةُ عشقٍ مع أبي جعفر ابن سعيدٍ الغرناطي، وكانت أمُّ الكرام بنت المُعتصم بن صُمادح على علاقةٍ مع الفتى المعروف بالسّمار.

وتَكشِفُ سيرُ تلك الشَّاعرات عن أنَّ اختلاطهنَّ بالرِّجال وبأقرانهنَّ من الشُّعراء لم يكن مُستنكراً ولا مُستهجناً، حتى إنَّ ولاّدةَ بنت الخليفة المستكفي كان لها مجلسٌ أدبيٌّ يرتاده الأدباء والكُتَّاب من أنحاء الأندلس وتجري فيه مساجلاتٌ أدبيّةٌ ومطارحاتٌ نقديّةٌ، وكانت ولاّدةُ تتلقّاهم بالتِّرحاب وحُسنِ الاستقبال[263].

وكذلك كانت حفصةُ بنت الحاجِّ تَحضرُ المجالس الأدبيَّة التي يعقدها الشُّعراء الرِّجال حتى في منازلهم، كما كانت تذهبُ إلى زيارة عشيقها أبي جعفر ابن سعيدٍ في منزله وتساجل الشُّعراء الذين تلتقي بهم هناك[264].

وأمّا نزهون بنت القُلاعي الغرناطيّة فلم تكن تكتفي بحضور مجالس الشُّعراء،

بـل كانـت تُبادِلهـم الهجـاء المُقـذع، وتَذكُـرُ المصـادر أنّهـا كانـت تقـرأ يومـاً عـلى أبي بكـرٍ المخزومـي الأعمـى، فدخـل عليهـا أبـو بكـرٍ الكتنـدي، فقـال مخاطبـاً الشَّـاعر المخزومـيّ[265]:

لو كُنْتَ تُبْصرُ مَنْ تجالسُهُ

فصَمَتَ المخزوميّ برهةً يُفكِّرُ، ولم يُجِرْ جواباً، فأجابتْ نزهون:

لغدوْتَ أخْرَسَ من خلاخله

البدْرُ يطْلُعُ من أزرَّته والغُصْنُ يَمرحُ في غلائله

إنّ شِـعرَ المـرأةِ الأندلسـيّة يَكشِـفُ لنـا بوضـوحٍ عـن جوانـبَ مـن حياتهـا وشـخصيتها ولا سـيّما جرأتهـا وتحرّرهـا واعتدادهـا برأيهـا واسـتقلاليتها.

ولـو أمعنّـا النَّظـر في مـا وصَلَنـا مـن أشـعارِ ولاّدة بنـت المُسـتكفي لوجدنـا بـكلِّ جـلاءٍ بعـض ملامـح شـخصيتها، ومـن ذلـك جرأتهـا في التعبـير عـن عشـقها لابـن زيـدون ومبادرتها في الإفصـاح عـن حبِّهـا وطلـبِ الالتقـاء بـه ليـلاً، حيـث كتبـت إليـه تقـول[266]:

ترقَّـبْ إذا جـنّ الظّـلامُ زيـــارتي فـإنّي رأيْتُ الليْلَ أكْتَـمَ للسـرِّ
وبي منكَ ما لو كانَ بالشمسِ لم تلُحْ وبالبْدرِ لم يطلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

وكذلك ما يقال إنّها طرَّزته على عاتقيْ ثوبها[267]:

أنا واللـــــهِ أصلـُحُ للمعـالي وأمشـي مشيتي وأتيه تيها
أمكّن عاشقي من صحنِ خدّي وأُعطي قُبلتي من يَشتهيها

ولم تكـن ولاّدة تعنـي ذلـك حقّـاً بمقـدار مـا كانـت تُريـدُ أن تُجاهِـر بتمرُّدهـا، إذ إنّهـا في أبيـاتٍ أخـرى تقـول مـا معنـاه إنّ رقَّتها ولينهـا وسـهولةَ تعامُلِهـا مـع الرِّجـال لا تعنـي

تفريطها بأخلاقها، حيث تقول[268]:

إنّي وإنْ نَظـــرَ الأنامُ لبهجتي ... كظبـاء مكّة صيدُهُنَّ حرامُ

يُحْسَبْنَ من لينِ الكلام فواحشاً ... ويَصدُّهُنَّ عن الخنا الإسلامُ

إنّها شخصيةٌ ذات ثقةٍ عاليةٍ بالنَّفس، وقدرةٍ على تحدّي المجتمع وإثبات صحَّة موقفها.

ومثـل ولاّدة في ذلـك، الشَّـاعرة حفصـةُ بنـت الحـاجِّ الركونيّـة الغرناطيّـة، فقـد كانـت تُجاهِـر بحبِّهـا لأبي جعفـر بـن سـعيدٍ وتـزوره في منزلـه وتطلـبُ لقـاءه في شِـعرها، وقالـتْ فيـه أشـعاراً تتغـزَّل بـه فيهـا، ومـن ذلـك قولهـا[269]:

أغارُ عليك من عَيْنَيْ رقيبي ... ومنك ومن زمانِك والمكانِ

ولـو أنّي خبأتُكَ في عيـــوني ... إلى يوم القيــامةِ ما كفاني

وقولها[270]:

ثنائي على تلك الثَّنايا لأنني ... أقولُ على علمٍ وأنطِقُ عن خُبْرِ

وأنصِفها لا أكذبُ الله إنني ... رشفْتُ بها ريقاً ألذّ من الخمْرِ

ومما كتبته له تدعوه إلى الاجتماع بها[271]:

أزورك أم تزورُ فـإنَّ قلبي ... إلى ما مِلْتُـمُ أبداً يميــلُ

فثغــري مَوردٌ عَــذْبٌ زُلالٌ ... وفـرْع ذوائبي ظلٌ ظليلُ

وقد أمّلتُ أن تظما وتضحى ... إذا وافى إليك بي المقيــلُ

فعجِّل بالجوابِ فما جميلٌ ... أناتُكَ عن بثينةَ يا جميلُ

وكانتْ الشَّاعرةُ الأندلسيّة تَمزجُ هذه الجرأة والصَّراحة بشيءٍ من الفكاهة وخفّةِ الرُّوح. وتتجلّى خفّةُ الرُّوح أكثر ما تتجلّى في شِعرِ الهجاء الذي صَدَرَ عن شاعراتِ الأندلس، ولا سيّما ولاّدة في هجائها لابن زيدون، ونزهون القلاعية في هجائها لكثيرٍ من شعراء عصرها. فعندما هجا الشَّاعرُ أبو بكرٍ المخزومي الأعمى الشَّاعرة نزهون بقوله:

على وجْهِ نزهون من الحُسْنِ مِسْحةٌ وإنْ كان قد أمسى من الضَّوءِ عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها ومن قَصَدَ البحر استقلّ السواقيا

ردّتْ عليه قائلةً[272]:

إنْ كانَ ما قُلتَ حقّاً مِنْ نَقْض عهدٍ كريم
فصارَ ذكْري ذميماً يُعزى إلى كلِّ لومِ
وصِرْتُ أقبح شيءٍ في صورةِ المخزومي

ومعظمُ ما ورد من الشِّعرِ النِّسوي الأندلسيّ في الهجاء مفرطٌ في الفُحشِ.

وتُظهِر كثيرٌ من أشعار النِّساء الأندلسيّات أنّه كان لتلك الشَّاعرات استقلالٌ في الرّأي وحُريّةٌ في اختيار ما يُناسبهنَّ، ولا سيّما في مجالِ اختيارِ الأزواجِ، فمن ذلك ما جرى مع الشَّاعرة عائشة بنت أحمد القرطبية (ت 400هـ)، فقد طلب أحدُ الشُّعراء يدَها، فلم ترضَ، فألحَّ في الطَّلب، فكتبتْ إليه تقول[273]:

أنا لبْوةٌ لكنني لا أرتضي نَفسي مُناخاً طُول دهري من أحدْ
ولو انّني أختار ذلك لم أُجبْ كلباً وكم غلَّقْتُ سمعي من أسَدْ

وممّن وقَعَ لها مثل ذلك نزهون القلاعية إذ خطبها رجلٌ دميمُ الصُّورة بشعٌ،

فقالـت تُسـفِّه أحلامَـه وآمالَـه وتُعـدِّد معايبَـهُ[274]:

عذيريَ مِنْ عاشقٍ أنْوَكٍ ... سـفيه الإشـارة والمنزعِ

يروم الوصـالَ لما لو أتى ... يرومُ به الصَّفْعَ لم يُصْفعِ

برأس فقـيرٍ إلى كـيّـةٍ ... ووجـه فقـيرٍ إلى بُرْقُـعِ

ووقـع مثـل ذلـك للشَّـاعرة أمِّ العـلاء بنـت يوسـف الحجاريّـة، مـن شـاعرات عـصر الخلافـة الأمويّـة، فقـد هـام بهـا رجـلٌ أشـيب، فطلـب يدهـا، فكتبـت إليـه[275]:

يا صُبحُ لا تبْـدُ إلى جُنْحِ ... والليـلُ لا يبقى مع الصُّبْحِ

الشّـيْبُ لا يُخْدَعُ فيه الصبّا ... بحيلـةٍ فاسـمعْ إلى نصحي

فلا تكُنْ أجْهَلَ مَنْ في الورى ... تبيتُ في الجهْلِ كما تُضحي

وفي مقابـل ذلـك، نظـرتْ الشَّـاعرة قسـمونة بنـت إسـماعيل اليهـوديّ الغرناطيّـة مـن شـاعرات القـرن السَّـادس الهجـري إلى نفسـها في المِـرآةِ، فـرأت جمالهـا وقـد بلغـتْ أوان التَّزويـج ولم تتـزوّج، فقالـت[276]:

أرى روضةً قد حانَ منها قطافُها ... ولسـتُ أرى جـانٍ يمدُّ لهـا يدا

فوا أسفي يمضي الشَّبابُ مُضيَّعاً ... ويبقى الذي ما إن أسمّيه مُفرَدا

فسمعها أبوها فنَظَرَ في تَزويجها.

وإلى جانـبِ هـذا النَّـوع مـن الشَّـاعراتِ اللـواتي لا يتورَّعـنَ عـن البـوحِ بمشـاعِرهنَّ، ويتمتَّعـنَ بالجـرأة والثِّقـة بالنَّفـس واسـتقلال الـرَّأي والاسـتقلال بالقـرار، فإننـا نجـد طائفـةً أخـرى مـن النِّسـاء الشَّـواعرِ يقُلـن الشِّـعر في مُختلـفِ الأغـراضِ كالمَـدحِ والتَّهنئـةِ والشَّـكوى والتَّصـوّف والمديـحِ النَّبـويِّ والفخـرِ والرِّثـاءِ ووصـفِ الطَّبيعـةِ، ولكـن أيضـاً بمـا

يـدل عـلى قـوّة الشَّـخصيةِ والثِّقـةِ بالنَّفـسِ وحُريّـةِ الفِكْـرِ والاختيـارِ.

وتَـدلُّ الأشـعارُ الصَّـادرة عـن الشَّـاعراتِ الأندلسـيّاتِ عـلى جوانـبَ أُخـرى مـن حيـاةِ هـؤلاء الشَّـاعرات في السِّـياقِ الحضـاريّ الأندلـسيّ.

ومـن هـذه الجوانـب أنَّ هـذا الشِّـعر يكشـفُ عـن تنـوّعٍ في ثقافـةِ المـرأةِ الأندلسـيّةِ مـن خـلالِ الوقـوفِ في ذلـك الشِّـعر عـلى إشـاراتٍ فقهيَّـةٍ ودينيَّـةٍ وتاريخيَّـةٍ وعلميَّـةٍ وفلكيَّـةٍ وإداريَّـةٍ ولغويَّـةٍ وغيرهـا. ومـن ذلـك قـول ولاّدة بنـت المسـتكفي[277]:

لحاظُكـم تَجرحُنا في الحشا ولحـظُنا يَجـرَحُـنا في الخـدود
جُرْحٌ بجْرحٍ فاحملوا ذا بذا فما الذي أوْجَبَ جُرْحَ الصُّدود؟!

وقولها في الردِّ على البيتين السَّابقين[278]:

أوْجَبَهُ منّيَ يا سيّدي جُرْحٌ بخـدٍّ ليس فيه الجحود
وأنْتَ فيما قلْتَهُ مُدّعٍ فأين ما قلت؟ وأين الشُّهود؟

فهـذه الأبيـات حافلـةٌ بالإشـارات الفقهيَّـة والقانونيَّـة: جُـرْحٌ بجـرحٍ، ومُـدّعٍ، والشُّـهود. وهـي صـدى للنِّظـام القضـائي الـذي كان سـائداً في الأندلـس.

ومـن الشِّـعر الـذي يحمـل إشـاراتٍ إداريَّـةٍ مـا قالتـه حفصـة بنـت الحـاجِّ الرّكونيـة تُخاطِـبُ الخليفـة الموحّـدي عبـد المؤمـن بـن عليّ وتَطلـبُ منـه وظيفـةً ديوانيَّةً قائلـةً[279]:

يا سيّد النَّاسِ يا مَنْ يؤمّـل الناسُ رِفْـدَه
امنُنْ عـليَّ بصـكٍّ يكـون للدَّهـر عُدّة
تخـطُّ يُمناكَ فيـــه «والحمد لله وحدَه»

وهي تشير بذلك إلى العلامة السُّلطانيَّةِ لخلفاءِ الموحِّدين وهي «والحمد لله وحده».

ومـمّا يَكشِـفُ عنـه شِـعرِ المـرأةِ الأندلسـيّةِ عنايتُهـا الفائقـة بالزّينـةِ مـن حـليٍّ وذهـبٍ وفضَّةٍ وملابـس يُطـرَّز عليهـا الشِّـعر، كثـوبِ ولاّدة بنـت المسـتكفي الـذي كان مُطـرَّزاً عـلى عاتقيـه أبيـاتٌ شـعريَّةٌ لهـا. ويَكشِـفُ الشِّـعرُ أيضـاً عـن اتّخـاذ النِّسـاءِ الأندلسـيّات للجـواري والعبيـد، فقـد كانَ لـكُلٍّ مـن ولاّدة وحفصـة بنـت الحـاجِّ وحفصـة بنـت حمـدون الحجاريّـة جـوارٍ وعبيـدٌ، وفي وصـف عبيدهـا والشَّـكوى منهـم تقـول حفصـة بنـت حمـدون الحجاريّـة[280]:

يا ربّ إنّي من عبيدي على ... جَمرِ الغَضا ما فيهمُ من نجيب
إمّـا جهـولٌ أبلـهٌ متعِـبٌ ... أو فَطِـنٌ من كيـــده لا أخيب

ولـولاّدة بنـت المسـتكفي أبيـاتٌ تتَّهـمُ فيهـا عشـيقَها ابـن زيـدون بميلـه إلى جاريتهـا عُتبـة بعـد أن طلـب منهـا إعـادة غنـاء بيتـين غنّتهـما[281]. والبيتـان هـما:

أحـبّتنا إنّي بلغْتُ مـؤمّلي ... وساعدني دهري وواصلني حِبّي
وجاء يهنّيني البشيرُ بقربه ... فأعطيته نفسي وزْدتُ له قلبي

ولمّا استعادهما ابن زيدون غضبتْ ولاّدة، فقالت[282]:

لو كُنْتَ تنصِفُ في الهوى ما بيننا ... لم تَهْـوَ جـاريتـي ولم تتخـيَّرِ
وتركْـتَ غصناً مُثمِـراً بجمـــاله ... وجنحْتَ للغُصْنِ الذي لم يُثْمِرِ
ولقد علمْـتَ بأنّني بَدْرُ السّمَا ... لكـنْ دُهِيـتُ لشقوتي بالمشتري

كـما يَكشِـفُ شِـعرُ المـرأةِ الأندلسـيّةِ عـن ميلهـا إلى الـتَّرَفِ والاسـتمتاعِ بالطَّبيعـةِ والقيـامِ برحـلاتٍ ونزهـاتٍ والقيـامِ برياضـةِ السِّـباحة وغيرهـا.

ومـمّا يَـدلُّ عـلى ذلـك أبيـاتٌ لحمـدة بنـت زيـادٍ حيـث خرجـتْ إلى نهـرٍ مُنقَسـمِ الجداول بين الرّياض مع نسائها في بعض هوىً فسبحنَ في الماءِ وتلاعبن[283]، فقالت:

أباحَ الدمـعُ أسراري بـوادٍ ... لـه في الحُســن آثـارٌ بَوادِ

فمن نهرٍ يطوفُ بكلِّ روْضٍ ... ومن روضٍ يطوفُ بكلِّ وادِ

ومن بين الظِّباءِ مهـاةُ أُنْسٍ ... سَبَتْ لُبيّ وقد سَلَبَتْ فؤادي

لهـا لحظٌ ترقّـدُهُ لأمـرٍ ... وذاك الأمْرُ يمنعُني رُقادي

إذا سَدَلَتْ ذوائبها عليها ... رأيْتَ البَدْرَ في جُنْحِ السَّوادِ

كأنَّ الصُّبْحَ ماتَ له شقيقٌ ... فمن حزنٍ تسرْبَلَ بالسَّوادِ

وكانـتْ المـرأةُ الأندلسـيّةُ تَفخَـرُ بعلمهـا وبجـودةِ خطِّهـا، وذلـك مـن المـؤشِّرات عـلى رُقـيِّ الحضـارةِ الأندلسـيّةِ، ومـن الأدلّـة عـلى ذلـك أنَّ الشَّـاعرةَ صفيّـة بنـت عبدالله الريّـي ردّتْ عـلى امـرأةٍ عابـتْ خطَّهـا، فقالـت[284]:

وعائبةٍ خطّي فقلْتُ لها اقصري ... فسوْفَ أُريكِ الدرَّ في نَظْم أسْطُري

ونـاديتُ كَفّي كي تجـودَ بخطّها ... وقَـرَّبْتُ أقـلامي وَرَقّـي ومِحـْبَري

فخطَّتْ بأبياتٍ ثلاثٍ نظمتُها ... ليبدو بها خطّي وقلت لها: انظري

إنَّ مـن يتأمّـل شِـعرَ المـرأةِ الأندلسـيّةِ في موضوعاتـهِ المختلفـةِ مـن مـدحٍ وهجـاءٍ وفخـرٍ ووصـفٍ وغـزلٍ وغـيره، فإنّـه يقـفُ عـلى جوانـبَ عديـدةٍ مـن صـورةِ تلـكَ المـرأة وشـخصيَّتها وطباعهـا وأخلاقهـا ودورهـا في البنـاء الحضـاريّ الأندلـسيّ، كـما يقـف بـكلِّ جـلاءٍ عـلى نظـرةِ المجتمـعِ الأندلـسيّ للمـرأةِ واحترامِـهِ لهـا ولحُرِّيتهـا وشـخصيّتها.

وفي الختـام، فـإنَّ هـذه لقطـاتٌ عجـلى ومختـصرةٌ لبعـض ملامـحِ شـخصيَّةِ الشَّـاعرةِ الأندلسـيّةِ، وهـي إلى جانـب أهمّيتهـا في الكشـفِ عـن شـخصيّةِ المـرأةِ الأندلسـيّةِ فإنهـا تكشـفُ عـن جوانـبَ مـن شـخصيَّةَ المُجتمـعِ الأندلـسيّ الـذي لم يتنكّـر لحريّـةِ المـرأةِ، ولم يكـن مُتزمِّتـاً.

وفي رأيـي أنَّ هـذه الملامـح في شـخصيَّةِ الشَّـاعرةِ الأندلسـيّةِ هـي نتيجـةٌ لكـونِ الشِّـعر يرقـى بوعـي صاحبـه ويجعلـه قـادراً عـلى مواجهـةِ الحيـاةِ بحريّـةٍ وثقـةٍ، فالشَّـاعرُ الحقيقـيُّ يـرى الحيـاة عـلى صـورةٍ تختلـفُ عـمّا يـراهُ بهـا النَّـاس العاديّـون، ولذلـك

نَجِـدُهُ يقـفُ مـن قضايـا الحيـاةِ مواقـفَ تَنسَـجِمُ مـع وعيـهِ ورؤيتـهِ.

كريمةُ المروزيّة:
شَيخةُ علماءِ الأندلس في مَكّةَ المُكرّمة
في القرن الخامس الهجريّ

مُقدِّمة:

عندمـا يُذكَـرُ الحـجُّ الأندلـسيُّ ويُذكَـرُ القـرنُ الخامـس الهجـريّ ويُذكَـرُ لقـاءُ العلـماء، تَحـضرُ في الحـال صـورة كريمـةَ المروزيّـة، وهـي في مجلسـها بجـوارِ الحَـرم المـكّي الشَّريـف، وحولهـا تلامـذةٌ وعلـماءٌ مـن مختلـف الأقطـار الإسـلاميّة تُمـلي عليهـم ويقـرأون عليهـا ويُدوِّنـون مـا يسـمعونه منهـا، وحـين تنظـر في وجـوه هـؤلاء الطَّلبـة والعلـماء فإنّـك تَجِـدُ في كثـيرٍ منها الملامـح الأندلسـيّة والمغربيّـة، ملامـح الذيـن اغتنمـوا فرصـة مجيئهـم لأداء فريضـة الحـجِّ لـكي يجلسـوا إليهـا ويحملـوا عنهـا صحيـحَ البُخـاري بروايتهـا لـه عـن شـيخها وبلديّهـا أبي الهيثـم الكُشْـمَيْهَنيّ المـروزيّ، الـذي رواه بـدوره عـن أبي عبداللـه الفِرَبْـري الـذي رواه عـن البُخـاري، ويحملـوا عنهـا الأحاديـث النَّبويّـة الشَّريفـة.

لقـد كان الأندلسـيّون الذيـن يقومـون بـأداء فريضـة الحـجِّ يتناقلـون أخبـارَ كريمـةَ المروزيّـة في بلدهـم الأندلـس وأخبـار رواياتهـم عنهـا، حتـى أصبحـت زيـارةُ مجلسـها والجلـوس إليهـا والأخـذ عنهـا تقليـداً أندلسـيّاً لا يسـتطيع أيُّ حـاجٍّ أو مُعتَمـرٍ أندلسـيٍّ أن يتحاشـاه، وحتّـى وجدنـا علـماء الأندلـس يحتفـون بهـذه العالمـة التـي عاشـتْ نحـو مائـة عـامٍ أمضـتْ شـطراً طويـلاً منهـا مجـاورةً بمكّـة تـروي الحديـثَ النَّبـويَّ حتّـى وفاتهـا. وقـد بلغـتْ كريمـةُ المروزيّـة مـن الشُّـهرة عنـد الأندلسـيّين حَـدّاً جعـل المصـادر الأندلسـيّة تكتفـي في أحيـانٍ كثيـرةٍ بإيـراد اسـمها الأوّل (كريمـة) فقـط مُجـرَّداً مـن سـائر الأسـماء في

اسمها ونسبها، وحتّى لو استبعدنا ما وَرَدَ من أخبارها في المصادر الأندلسيّة لما بقيَ من أخبارها وشهرتها إلّا القليل. كما أنَّ أشهر روايات صحيح البُخاري في الأندلس هي تلك التي رويتْ عن طريق السَّند المعلوم المنسوب لكريمةَ المروزيّة.

ونظراً لشُهرة كريمةَ ومكانتها لدى الأندلسيّين ودورها في رواية الحديث النَّبويِّ، فقد سعتْ هذه الدِّراسة إلى التَّعريف بها وإيراد أخبارها -على قلّتها- وبيان سندها في رواية صحيح البُخاري، والتَّعريف بشيوخها، وبمن رووا عنها من المَشارقة ومن الأندلسيّين والمغاربة. مُبيّناً دور المرأة المسلمة في العِلم وإنتاجه وحِفظه وحَمله وتعليمه للرِّجال والنِّساء على السَّواء وللأقارب والأباعد على السَّواء، ولا سيّما إن كان في مكانٍ شريفٍ طاهرٍ مثل مكّة المُكرَّمة وفي خدمة الحديث النَّبويّ الشَّريف وعلوم الشَّريعة.

اسمُها وكنيتها:

هي أمُّ الكِرام[285] كريمةُ بنت أحمد بن مُحَمَّد[286] بن حاتم[287] المروزيّة[288].

أصلُها ومولدُها ووفاتُها:

أصل كريمةَ المروزيّة من قريةِ كُشْمَيْهَن، وهي قريةٌ من قرى مرو، خرجت منها جماعةٌ وافرةٌ من أهل العلم[289] يقول ابن الجوزي في المُنتظم عن كريمةَ: «من أهل كشميهن قريةٍ من قرى مرو»[290]. ويوردُ الذَّهبي في سير أعلام النُّبلاء[291] قولاً لأبي بكرٍ مُحَمَّدِ بن منصورٍ السَّمعاني إنّه سمع بنت أخي كريمةَ تقول عن كريمةَ «وكان أبوها من كُشْمَيْهن وأمُّها من أولاد السيّاري، وخرج بها أبوها إلى بيت المقدس، وعاد بها إلى مَكّةَ».

وعلى الرّغم من شُهرتها إلّا أنَّ المصادر لم تذكر سنة ولادتها أو مكان ولادتها، وإن كنت أستشفُّ من كلام ابنة أخيها عنها بأنَّها ربّما تكون وِلِدتْ في كشميهن في مرو. أما تاريخ ميلادها فربّما يكون بحدود سنة 363هـ وذلك لأنَّ أكثر المصادر ذكرتْ أنّها توفّيت بمكّة سنة 463هـ عن مائة عامٍ[292]، بينما ذكر قليلٌ من المصادر أنها

توفّيت سنة 465هـ[293].

أخبارُها:

لم تُسعفنا المصادر بما يشفي الغليل من أخبار كريمةَ المروزية ومولدها ونشأتها وأسرتها، ولم تعرض لأحدٍ من أقاربها غير والدها ووالدتها وابنة أخيها الذين ذُكروا عَرَضَاً في الحديث عنها.

أمّا والدها فهو من كُشْميهن من قرى مرو، وقد رافقها إلى بيت المقدس وعاد بها إلى مَكّةَ المُكرّمة حيث أقامتْ هنالك ومكثتْ مجاورةً حتى وفاتها.

وأمّا ابنة أخيها فهي التي ذكرت أنّها «لم تتزوّج قطُّ، وكان أبوها من كُشْمَيْهن، وأمُّها من أولاد السيّاري، وخرج بها أبوها إلى بيت المَقدس، وعاد بها إلى مَكّةَ»[294].

أمّا سائر أخبارها فقد دارتْ حول عدم زواجها ووفاتها عن مائة عامٍ في مكّةَ، وانشغالها برواية الحديث ولا سيّما صحيح البُخاري.

أمّا عدم زواجها فقد أجمعتْ عليه المصادر[295]. كما لم تختلف هذه المصادر على أنّها عاشتْ مائة عامٍ وأنّها توفّيت في مكّة[296].

وأمّا روايتها لصحيح البُخاري عن أبي الهيثم الكشميهني، فإن كشميهن هي القرية التي تنتمي إليها، وربّما يكون ذلك ممّا سهّل أخذها عنه ودراستها على يديه.

وأمّا صفاتها وأخلاقها فتظهر من خلال ما وصفتها بها المصادر المختلفة، فقد: «كانت عالمةً صالحةً» حسب بعض المصادر[297].

ووصفها الذَّهبي في تاريخ الإسلام بأنها «كانت كاتبةً فاضلةً عالمةً... ولها فهمٌ ومعرفةٌ»[298] ووصفها في «العِبَر في خَبَر من غَبَر» بقوله: «ولها فهمٌ ونباهةٌ»[299]. ووصفها في «سير أعلام النبلاء» بـ «الشَّيخة العالمة الفاضلة المُسْندة»[300]، وأضاف «ولها فهمٌ ومعرفةٌ مع الخير والتَّعبّد»[301]. وذكر ابن العماد الحنبلي في كتابه «شذرات الذَّهب» أنّ ابن الأهدل عَدّها من الحُفَّاظ[302]. ووصفها أبو عبد الله الحسين بن

عـليّ بـن الحسـين الطَّـبري بـ «الحُـرّة الزّاهـدة»[303]. ووصفهـا ابـن عطيّـة في فهرسـه بـ «الأسـتاذة»[304] وبـ «الحـرّة الزّاهـدة»[305]. أمّـا زينـب بنـت عـليّ العامـليّ في كتابهـا «الـدرّ المنثـور» فقـد وصفتهـا قائلـةً: «وهـي مـن الفهـم والنَّباهـة وحِـدّة الذِّهـن بحيـث تَرحَّـلَ إليهـا أفاضـلُ العلـماء. وكان لهـا مجلـسٌ بمكّـةَ المُكرَّمـة تجتمـع فيـه الطَّلَبـة والأفاضـل في رجـالِ كلِّ علـمٍ، وهـي تُلقـي عـلى كلِّ نـوعٍ مـمّا يطلبـه، بعبـارةٍ فصيحـةِ المأخـذ مفهومـة المعنـى، وكان أكـثر ميلهـا إلى الحديـث، حتّـى بلغـت فيـه حَـدّاً لم يبلغـه غيرهـا»[306].

فهـي إذن: عالمـةٌ صالحـةٌ كاتبـةٌ فاضلـةٌ ذات فهـمٍ ومعرفـةٍ ونباهـةٍ وخـيرٍ وتعبُّـدٍ، شـيخةٌ مُسْـنِدةٌ حافظـةٌ حُـرّةٌ زاهـدةٌ أُسـتاذةٌ. وهـذه الصِّفـات هـي التـي جعلـت منصـور السَّـمعاني يقـول فيهـا: «وهـل رأى إنسـانٌ مثـل كريمـةَ؟!»[307] حسـبما سـمعه منـه ابنـه أبـو بكـر. وقـد أجمعـت المصـادر عـلى مجاورتهـا بمكّـةَ، ولذلـك وصفتهـا بالمجـاورة[308].

أمّـا مجلسـها الـذي كانـت تسـتقبل فيـه الطَّلَبـة والعلـماء فربّمـا كان في مسـجد الخيـف مـن مِنـى، فقـد روت بعـض الأحاديـث في ذلـك المسـجد[309] ويُفهَـم مـن مروياتهـا أنّهـا لم تقتـصر عـلى روايـة صحيـح البُخـاري، وإن كان صحيـح البُخـاري هـو أكـثر مـا اشـتهرتْ بروايتـه وفـق سـندها المعلـوم.

ونظـراً للمكانـة العلميّـة المشـهورة لكريمـةَ المروزيّـة، فقـد قـال الشَّـيخُ فالـح الظّاهـريّ لمّـا تكلّـم في كتابـه «صحائـف العامـل» عـلى إمامـة المـرأة: «ولـو حـضرت قريـشَ الطبريّـة أو عائشـةَ المقدسـيّة أو كريمـةَ المروزيّـة، وهـنَّ مـن النِّسـوة المُسـنِدات، لصلّيـت وراءهـنَّ غـير مُرتـابٍ ولا مُتشـكّكٍ»[310].

شيوخها:

أخَذَتْ كريمةُ المروزيّة العِلمَ على عددٍ من الشُّيوخ منهم:

أبـو الهيثـم مُحَمَّـدٌ بـن المَـكّي الكُشْـميهني المـروزي، وهـو أشـهر شـيوخها، وعليـه سـمعتْ صحيـح البُخـاري، وحدّثـت بـه عنـه بمكّـة[311].

زاهـر بـن أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن عيـسى السَّرْخـسي الفقيـه الشَّـافعي المُحـدِّث (ت 389هـ). وقـد عَـدّهُ الحاكـم النّيسـابوري شـيخَ عـصره بخُراسـان، وأخـذ عـن أبي الحسـن الأشـعري عِلـمَ الـكلام[312]. وقـد سـمعتْ كريمـةُ المروزيّـة منـه، وروتْ عنـه الأحاديـثَ[313].

عبدُ الله بن يوسف بن بامُويه الأصبهاني[314].

ويُلاحَـظُ أنَّ شـيوخها كُلَّهـم مـن بـلاد فـارس، مـمّا يُرجِّـح أنّهـا روتْ عنهـم أيـامَ كانـت في بلدتهـا كشـميهن في مـرو.

من روى عنها:

يقـول الأمـيرُ الحافـظُ ابـن ماكـولا (ت 475هـ) عـن كريمـةَ المروزيّـة: «وحدّثـتْ كثـيراً»[315]. وأكـثر مـا حدّثـتْ بـه هـو صحيـح البُخـاري. ويقـول الفـاسي عنهـا: «سَـمعَ منهـا جماعـةٌ مـن الأعيـان...»[316]. ويقـول الذَّهبـي في «العِـبَر في خَـبَر مـن غَـبَر» عنهـا: «وسَـمعَ منهـا خلْـقٌ»[317]. ويقـول عنهـا في كتابـه «تاريـخ الإسـلام ووفيّـات المشـاهير والأعـلام»: «وحمـل عنهـا خلْـقٌ مـن المغاربـة والمجاوريـن»[318].

وتَـدلُّ هـذه الإشـارات عـلى كَـثرةِ مـن سـمع منهـا وأخَـذَ عنهـا مـن أهـلِ المَـشرقِ والمَغـربِ خـلال مُـدّةِ مجاورتِهـا في مكّـةَ المُكرَّمـة.

من روى عنها من أهلِ المَشرقِ:

وقـد أوردتْ المصـادر أسـماءَ عـددٍ مـن العلـماءِ المَشـارقةِ الذيـن أخـذوا عنهـا، ومـن هـؤلاء العلـماء:

الحافـظُ الخطيـبُ البغـداديُّ، أبـو بكـرٍ أحمـد بـن عـليّ بـن ثابـت بـن أحمـد بـن مهـدي الخطيـب البغـداديّ (ت 463هـ) صاحـب تاريـخ بغـداد، سـمعَ منهـا صحيـح البُخـاري[319]، ويقـول ابـن كثـيرٍ في «البدايـة والنِّهايـة» إنَّ الخطيـب قـرأ صحيـح البُخـاري عـلى كريمـةَ بنـت أحمـد في خمسـة أيّـامٍ [320].

ويقـول الذَّهبـي في «سـير أعـلام النُّبـلاء» إنّ كريمـةَ روتْ «الصَّحيـح» مـرّاتٍ كثـيرةٍ؛ مـرّةٍ

بقـراءة أبي بكـرٍ الخطيـب في أيـام الموسـم[321].

أبـو المظفّـر منصـور بـن مُحَمَّـدٍ بـن عبـد الجبـار بـن السَّـمعاني المـروزي (المتـوفّى سـنة 489هـ بمـرو)[322]، وقـد ذكـرتْ مصـادرُ عـدّةٌ أخـذه عـن كريمـةَ المروزيّـة[323]. وقـد روى ابنـه أبـو بكـرٍ مُحَمَّـدٌ بـن منصـور غـير مَـرّةٍ مـا سـمعه منـه عـن كريمـةَ[324].

أبـو طالـب الحُسـين بـن مُحَمَّـدٍ الزّينبـيّ (ت 512هـ)[325]. ذكـر صـلاحُ الدِّيـن الصّفـدي في كتابـه «الـوافي بالوفيّـات» أنّـه «سَـمعَ البُخـاريَّ مـن كريمـةَ بنـت أحمـد المروزيّـة، وانفـرد بروايتـه عنهـا ببغـداد، وروى عنـه جماعـةٌ مـن الأكابـر والحُفّـاظ»[326]. وذكرتـه مصـادرُ أخـرى مـن الذيـن رووا عـن كريمـةَ[327].

المُقـرئ أبـو الغنائـم مُحَمَّـدٌ بـن عـليّ بـن ميمـون الملقَّـب بـأُبَيّ الـنّرسي الكـوفي (-424 510هـ). وكان مـن أشـهر المُحدِّثـين بالكوفـةِ[328]. وذَكَـرَ عَـددٌ مـن المصـادرِ أنّـه روى عـن كريمـةَ[329] وحَـدّثَ عنهـا أبـو الغنائـم في مُعجَـم شـيوخهِ[330].

عبد الله بن مُحَمَّدٍ بن صدقة الغزال[331].

أبو القاسم عليُّ بن إبراهيم النَّسيب[332].

أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن بركات بن هلال السّعيدي (520هـ)[333].

أبـو الحسـن عـليُّ بـن الحُسـين بـن عمـر الفَـرّاء الموصـليّ، مـن ثقـاتِ الـرّواةِ بمـصر (-433 519هـ). سَـمِعَ بمكّـة كريمـةَ وغيرهـا[334].

ابن المطلب[335].

أبـو الفـرج أحمـدُ بـن مُحَمَّـدٍ بـن إبراهيـم بـن سـعد بـن وردة النَّهاونـدي، مـن أجـلّاء شـيوخ قهسـتان، ولـد سـنة 416هـ قـال: وسـمعتُ الحديـث بمكّـةَ عـلى كريمـةَ [336].

أبـو التُّقـى صالـح بـن حميـد بـن مُلْهـم اللبّـان، مولـود سـنة 437هـ قـال: سـمعتُ نصـفَ صحيـح البُخـاري عـلى كريمـةَ المروزيّـة بمكّـةَ[337].

أبو عبد الله الحُسين بن عليّ بن الحُسين الطَّبري نزيل مكّة[338].

أبـو الفتـح سـلطان بـن إبراهيـم بـن مسـلم المَقـدسيّ الفقيـه ابـن الصَّابـونيّ، دخـلَ مـصر، وسَـمِعَ الكثـيرَ حتّـى صـار مـن أفقـهِ الفقهـاءِ في مـصر، روى عنـه السَّـلفي وأبـو القاسـم البوصـيري، وكان آخـرُ مـن روى عنـه البوصـيري، تـوفّي سـنة 518هـ[339]. وكان يُحـدِّث بصحيـح البُخـاري عـن كريمـةَ المروزيّـة، وعنـه حَـدَّثَ إبراهيـم بـن منبّـه بـن عمـر بـن أحمـد الغافقـي الأندلـسيّ مـن أهـل المريّـة[340].

أحمـدُ بـن خليفـة بـن قاسـم بـن منصور بـن عبـد اللـه الخُزاعي المـكّيّ. قـال القـاضي عياض: كتـب إليَّ مـن مكّـةَ يُجيـزني كتـابَ البُخـاري عن كريمةَ سـماعه منها بسـندها المعلـوم[341].

أبو صادق مُرشِد بن عبد الله المديني[342].

أبو القاسم خلف بن إبراهيم[343].

من روى عنها من الأندلسيّين والمغاربة:

إنَّ مـن يُتابـعُ أخبـارَ الأندلسـيّين والمغاربـة الذيـن أدّوا فريضـةَ الحـجّ أو أدوا العُمـرة أو جـاوروا في مكّـةَ المُكرَّمـة في القـرن الخامـس الهجـريّ، فإنـه يَجِـدُ أنَّ مـن النَّـادر أن تخلـو إقامـة أيٍّ منهـم مـن مـرورٍ عـلى مجلـس كريمـةَ وأخـذٍ عنهـا، وقـد لفـتْ هـذا الأمـر أنظـارَ القدمـاء، وفي ذلـك يقـول شـمسُ الدِّيـن الذَّهبـيّ عنهـا «وحمـل عنهـا خلْـقٌ مـن المغاربـة والمجاوريـن»[344]، والمقصـود بالمغاربـة أهـل الأندلـس والمغـرب. وأكـثر مـا حملـه عنهـا هـؤلاء المغاربـة هـو صحيـح البُخـاري.

وممّن روى عنها وسَمِعَ منها من هؤلاء الأندلسيين والمغاربة:

أبـو عبـد اللـه مُحَمَّـدٍ بـن أبي نـصر فتـوح بـن عبداللـه الأزدي الحميـدي (ت 488هـ) صاحـب كتـاب «جـذوة المُقتبـس في ذكـر ولاة الأندلـس»، مـن أهـل ميورقـة وأصلـه مـن قرطبـة مـن ربـضِ الرّصافـة منهـا، رحـل إلى المـشرق سـنة 448هـ فحـجَّ ولقـيَ بمكّـةَ كريمـةَ المروزيّـة وغيرهـا. ولـه كتـابٌ جمـع فيـه بـين صحيحـي البُخـاري ومسـلم، أخـذه النـاس عنـه. وتـوفّي ببغـداد سـنة 488هـ[345].

أبـو مُحَمَّـدٍ عبـد العزيـز بـن عبدالوهّـاب بـن أبي غالب القـيرواني (تـوفّي بالمريّة سـنة 495هـ)، أخـذ عنـه ابـن عطيّـة صاحـب الفهرس الجامـع الصَّحيح، رواه عن كريمـةَ المروزيّـة[346].

أبـو القاسـم خلـف بـن إبراهيـم بـن خلـف بـن سـعيدٍ بـن الحصّـار المعـروف بابـن النحّـاس، رحـل إلى المـشرق سـنة 454هـ رحلـةً حـجَّ فيهـا وكتـبَ عـن جماعـةٍ مـن أهـل العلـم بمكّـةَ، ثُـمَّ عـاد إلى الأندلـس وأقـرأ في جامـع قرطبـة وخَطَـبَ في منبرهـا مُـدّةً طويلـةً إلى أن تـوفّي بهـا سـنة إحـدى عـشرة وخمسـمائةٍ، لقـي بمكّـةَ كريمـةَ المروزيّـة وروى الجامـع الصَّحيـح للبُخـاري عنهـا[347].

الفقيـهُ المُحـدِّثُ أبـو العبّـاس أحمـدُ بـن عثـمانَ بـن مكحـول، سـمع في صبـاه بمدينـة بطليـوس عـلى أبي بكـرِ بـن الغـرّاب سـنة 438هـ ورحـل إلى المَـشرقِ سـنة 451هـ فحـجَّ، وكتـب عـن عـددٍ مـن جلّـة العلـماءِ، وتـوفّي بالمريّـة سـنة 513هـ وأخَـذَ بمكّـةَ الجامـعَ الصَّحيـح للبُخـاري عـن كريمـةَ المروزيّـة[348].

الفقيـهُ الرَّاويـةُ أبـو الأصبـغ عيـسى بـن مُحَمَّـد بـن عبـد اللـه بـن عيـسى بـن مؤمّـلِ بـن أبي البحـر الزّهـري، ثُـمَّ الشـنتريني، مـن أهـل شـنترين، وسَـكَنَ المغـرب، رَحَـلَ إلى المـشرقِ وأخَـذَ عـن كريمـةَ المروزيّـة صحيـحَ البُخـاري، وتـوفّي سـنة 530هـ[349].

أبـو العبّـاس أحمـدُ بـن مُحَمَّـدٍ بـن عبـد الرَّحمـن الأنصـاريّ الشَّـارقيّ البلنـسيّ الواعـظ، سَـمِعَ بالمـشرقِ في رحلتـه التـي حَـجَّ فيهـا مـن كريمـةَ المروزيّـة صحيـحَ البُخـاري، ودخـل العـراقَ وفـارسَ والأهـوازَ ومـصرَ، تـوفّي بـشرق الأندلـس في نحـو سـنة خمسـمائة[350].

أبـو إسـحق إبراهيـمُ بـن مُحَمَّـدٍ بـن سـليمانَ بـن فتحـون، مـن أهـلِ أُقْليـش وقاضيهـا، رَحَـلَ إلى المَـشرقِ وحَـجَّ وسَـمِعَ بمكّـةَ مـن كريمـةَ المروزيّـة وغيرهـا، وكان سـماعه منهـا مـع أبي عبـد اللـه الحميـدي سـنة 450هـ وعُنـيَ بالحديـثِ ونقلـهِ وروايتـهِ وجَمعـهِ[351].

أبـو بكـرٍ جُماهـر بـن عبـد الرَّحمـن بـن جُماهـر الحجـريّ، مـن أهـل طليطلـة، رَحَـلَ إلى المَـشرقِ حاجًّـاً سـنة اثنتـين وخمسـين وأربعمائـةٍ، ولقـيَ بمكّـةَ كريمـةَ المروزيّـة. تـوفّي سـنة 466هـ وهـو ابـن ثمانـين سـنةً[352].

مُحَمَّدٌ بن مُحَمَّدٍ بن عبد الرَّحمن بن جُماهر الحجريّ، من أهل طليطلة، يُكنّى أبا بكرٍ، رَحَلَ إلى المَشرقِ مع عمّه أبي بكرٍ جُماهر سنة اثنتين وخمسين وأربعمائةٍ، وأدّى الفريضةَ، وسمع بمكّةَ من كريمةَ المروزيّة، توفي بمدينة طليطلة سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة[353].

أبو العبّاس أحمدُ بن عبد الله العطّار، من أهل قرطبة، يُعرَف بالقونكي، له رحلةٌ حجَّ فيها ولقيَ كريمةَ المروزيّة وروى عنها صحيح البُخاري، توفّي سنة 518هـ[354].

أبو جعفر أحمدُ بن الحَسن بن أبي الأخطل، طليطليٌّ، له رحلةٌ حجَّ فيها وروى بمكّةَ شرَّفها الله عن كريمةَ المروزيّة، وكان من أهلِ الحفظِ والذِّكر للمسائل، واستُقضيَ[355].

أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن أحمد بن عبد الله النَّحويّ، من أهل المرّية، يُعرَف بابن اللجالش، رَحَلَ إلى المَشرِقِ واستوطنَ مكّة، وأخَذَ عن أبي المعالي الجويني وكريمةَ المروزيّة وغيرهما، وأخذ النَّاس عنه هنالك، وكان عالماً بالأصولِ والنَّحوِ، توفّي نحو التسعين وأربعمائة[356].

أبو الحَسن رزين بن معاوية العبدري، وصفه ابن الأبّار في التَّكملةِ بأنّه «من أصحابِ كريمةَ المروزيّة»[357].

الحافظ أبو عليّ الحُسين بن مُحَمَّدٍ بن أحمد الجيّاني الغسَّاني (427 - 498هـ)[358]، شيخ الأندلس في وقته، وكان له حظٌّ في الأدب والنَّسب والمعرفة بأسماء الرِّجال وسعة السَّماع، انتقل أبوه من جيّان إلى قرطبة وأقامَ بها، له كتابٌ «تقييد المهمل وتمييز المشكل»، وهو من شيوخِ القاضي عيّاض. ويقول الجيّاني عن صحيح البُخاري: «وكتَبَتْ إليَّ كريمةُ بنت مُحَمَّدٍ المروزيّة تُحدِّثني به عن أبي الهيثم»[359].

الفقيهُ أبو زيدٍ عبدالرَّحمن بن مُحَمَّدٍ بن طاهر، من أهل مرسية (ت 499هـ)، روى ببلدهِ عن أبي الوليد بن ميقل، وبقرطبة عن أبي القاسم الإفليلي وغيرهما، ورَحَلَ إلى المَشرِقِ وحجَّ وأخذَ عن أبي ذرّ الهروي وكريمةَ المروزيّة وغيرهما[360].

أبـو مُحَمَّـدٍ عبدالرَّحمـن بـن سـهل بـن مُحَمَّـدٍ بـن ثغـري، أخـذ بمـصر عـن أبي الحَسـن عـليّ ابـن بقـا وغـيره، وبمكّـةَ عـن كريمـةَ المروزيّـة وغيرهـا في سـنة 450هــ[361].

أبـو عمـرو عثـمان بـن أبي بكـرٍ بـن حمّـود بـن أحمـد الصّـدفي، يُعـرَف بالسّـفاقسي، وأصلـه منهـا، ويعـرف أيضـاً بابـن الضَّابـط، قَـدِمَ الأندلـس سـنة 436هــ وأسـمع النـاسَ بهـا، وكان قبـل ذلـك رَحَـلَ إلى المَـشرِقِ وأخـذَ مـن علمائهـا ومُحدِّثيهـا، روى عـن كريمـةَ المروزيّـة، وتـوفي بعـد سـنة 440هــ[362].

أبـو بكـرٍ مُحَمَّـدٌ بـن سـابق الصقـلّي، روى بمكّـةَ عـن كريمـةَ بنـت أحمـد المـروزي، وقَـدِمَ الأندلـس وأخـذ عنـه أهـلُ غرناطـة، وكان مـن أهـلِ الـكلام مائـلاً إليـه، وتـوفّي بمـصر سـنة 493هــ[363].

أبو الأصبغ عيسى بن أبي البحر الزّهري[364].

وإلى جانـبِ هـؤلاء العلـماء وغيرهـم ممّـن لم نقـفْ عـلى أسـمائهم، فقـد حـرصَ كثـيرٌ مـن الأندلسـيّين الذيـن لم يُدركـوا كريمـةَ المروزيّـة عـلى أن يأخـذوا روايتهـا لصحيـح البُخـاري عـن سـابقيهم الذيـن أدركوهـا وأخـذوا عنهـا.

سندُها في روايةِ صحيح البُخاري:

يقـول الإمـامُ القـاضي أبـو مُحَمَّـدٍ عبـد الحـقّ بـن عطيّـة المُحـاربي الأندلـسي (481 - 541هــ) صاحـب «فهـرس ابـن عطيّـة» في تعريفـه بوالـده أبي بكـرٍ غالـب بـن عبدالرَّحمـن (441 - 518هــ)[365]: «وقـرأت عليـه- رحمـه اللـه- كتـاب الجامـع الصَّحيـح المُخْتـصر مـن أمـور رسـولِ اللـه صـلّى اللـه عليـه وسـلّم وسُـننهِ وأيّامـهِ تصنيـف الإمـام أبي عبـد اللـه محمـد بـن إسـماعيل بـن إبراهيـم البُخـاري -رضي اللـه عنـه-، وأخـبرني أنّـه قـرأه بمكّـةَ- شرّفهـا اللـه- في المسـجدِ الحـرامِ عنـد بـابِ بنـي شَـيْبةَ سـنة سـبعين وأربعمائـةٍ عـلى الإمـام الـزكيّ العـدْل أبي عبـد اللـه الحسـين بـن عـليّ بـن الحسـين الطَّـبري نزيـل مكّـةَ، قـال: «حدَّثتنـا الحُـرَّةُ الزَّاهـدةُ كريمـةُ بنـت أحمـد بـن مَحَمَّـدٍ بـن حاتـم المروزيّـة، قـال: حدَّثنـا أبـو الهيثـم مُحَمَّـد بـن المـكّي بـن زُراع الكُشْـميهنيّ، قـال: حدَّثنـا أبـو عبـد اللـه مُحَمَّـدٌ

بـن يوسـف بـن مطـر بـن صالـح بـن بـشر الفِرَبْـري، عـن أبي عبـد اللـه محمّـدٍ إسـماعيل البُخـاري - رضي اللـه عنـه».

ويضيـف ابـن عطيّـة قائـلاً[366]: «قـال لي أبي -رضي اللـه عنـه-: وكانـت قـراءتي في أصـلِ كريمـةَ بعينـهِ».

وفي ترجمتـه لأبي مُحَمَّـدٍ عبدالعزيـز بـن عبدالوهـاب بـن أبي غالـب القـيرواني (ت 495هـ) يقـول ابـن عطيّـة في فهرسـه[367]: «فمـن مـا دخـل في إجازتـه لنـا... الجامـعُ الصَّحيـح لمُحَمَّـدٍ بـن إسـماعيل البُخـاري، أخـبرني بـه عـن الأُسـتاذة كريمـةَ بنـت أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن حاتـم المروزيّـة، عـن أبي الهيثـم مُحَمَّـد بـن المـكّي الكُشْـميهني، عـن مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف الفِرَبْـري، عـن البُخـاريّ».

وفي ترجمتـه لأبي القاسـم خلـف بـن إبراهيـم بـن الحصّـار القرطبـي (ت 511هـ) يقول ابـن عطيّـة في فهرسـه[368]: «وأجـازَ لي جميـع روايتـه، فمـن ذلـك... الجامـع الصَّحيـح لأبي عبداللـه البُخـاري، قـالَ لي بلفظـهِ: إنّ كريمـةَ بنـت أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن حاتـم المروزيّـة أخبرتـهُ بـه. وكريمـةُ ترويـه عـن أبي الهيثـم مُحَمَّـدٍ بـن المـكّي بـن زُراع الكُشْـميهني، عـن مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف الفربـري، عـن البُخـاري».

وفي ترجمتـهِ أيضـاً للفقيـهِ أبي العبّـاس أحمـد بـن عثـمان بـن مكحـول (ت 510هـ) يقـولُ ابـن عطيّـة[369]: «كَتَـبَ إليَّ بخطّـه يُخـبِرُني بجميـعِ روايتـه، وفي جملتهـا: الجامـع الصَّحيـح لأبي عبـد اللـه مُحَمَّـدٍ بـن إسـماعيل البُخـاريّ، روايتـه عـن الحُـرَّة الزَّاهـدة كريمـةَ بنـت أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن حاتـم المروزيّـة، عـن أبي الهيثـم مُحَمَّـدٍ بـن المـكّي بـن زُراع الكُشْـميهني، عـن الفِرَبْـري، عـن البُخـاري».

ويقـول الزُّبيـدي في تـاجِ العـروس[370]: «أبـو الهيثـم مُحَمَّـدٌ بـن مـكّي بـن زُراع، كغُـراب، الكُشـميهني، راوي صحيـح البُخـاريّ عـن أبي عبـد اللـه مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف الفِرَبْـريّ، وقـد حدَّثـت عنـه أمُّ الكـرامِ كريمـةُ بنـت مُحَمَّـدٍ المروزيّـة وغيرهـا».

وقـد حُـكِيَ عـن أبي ذرٍّعبـد بـن أحمـد بـن مُحَمَّـدٍ بـن غُفَـيْر الأنصـاريّ المالـكيّ المعـروف

بـأبي ذرٍّ الهـروي (ت 435هـ) أنّـه قـال عنـد موتـه: «عليكـم بكريمـةَ فإنّهـا تَحمِـلُ كتـابَ البُخـاريّ مـن طريـقِ أبي الهيثـم»[371].

وقـد روى أبـو صـادق مُرشِـدٌ بـن عبدالله المدينـيّ والسّـعيديّ والموصـليّ عـن كريمـةَ صحيـحَ البُخـاريّ وقالـوا: «أخبرتنـا أمُّ الكـرامِ كريمـةُ بنـت أحمـد المروزيّـة قالـت: أخبرنـا أبـو الهيثـم الكشـميهني قـال: أخبرنـا الفِرَبْـري»[372].

ويفهـم مـن هـذه الرِّوايـات جميعهـا أنَّ سَـنَدَ كريمـةَ في روايـة صحيـحِ البُخـاريّ عـلى النَّحـوِ التـالي:

كريمة المروزيّة عن:

أبي الهيثـم مُحَمَّـدٌ بـن المـكّي بـن زراع الكُشْـميهني (ت 389هـ)، وهـو أبو الهيثـم مُحَمَّدٌ بـن مـكّي بـن مُحَمَّـدٍ بـن مـكّي بـن زراع بـن هـارون الكُشـميهني المـروزي، حـدَّثَ بصحيـحِ البُخـاريّ غـير مـرَّةٍ، وكان يرويـه عـن مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف الفِرَبْـري، وتـوفي سـنة 389هـ وكان مـن الثِّقـاتِ[373].

ويُفْهَـم مـن تاريـخِ وفاتـه أنَّ كريمـةَ المروزيّـة قـد رَوتْ عنـه صحيـحَ البُخـاريّ قبـل أن تبلـغَ سـتّاً وعشريـن سـنةً مـن عمرهـا.

عـن أبي عبدالله مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف بـن مطـر بـن صالـح بـن بـشْر الفِرَبْـري (-231 320هـ). سَـمِعَ الصَّحيـح مـن البُخـاري بفِرَبْـر، كان ثقـةً ورعـاً، تـوفّي سـنة 320هـ[374] وهـو آخـر مـن روى الجامـع الصَّحيـح عـن البُخـاري[375]. ويَذكـرُ القـاضي عيـاض أنَّ صحيـح البُخـاري لم يصـل إلى المغـرب والأندلـس إلّا عـن طريـق النّسـفي عـن البُخـاري، والفِرَبْـري[376].

يقـول ابـن حجـرٍ عـن روايـة الفِرَبْـري: «والرّوايـة التـي اتّصلـت بالسَّـماع في هـذه الأعصـار ومـا قبلهـا هـي روايـة مُحَمَّـدٍ بـن يوسـف بـن مطـر الفِرَبْـري، لأنَّ صاحبَهـا آخـر مـن روى صحيـح البُخـاري، فهـو أتقـنُ الـرّواة عـنه، وآخرهـم سـماعاً عنـه

وحيـاةً بعـده»[377].

عن أبي عبدالله مُحَمَّد بن إسماعيل البُخاري- رضي الله عنه (194 - 256هـ).

وقـد وصـفَ القـاضي عيـاض في كتابـهِ «الغنيـة» هـذا السَّـنَد «بسـندها المعلـوم»[378] وذلـك لشُـهرةِ هـذا السَّـنَد.

كـما وصـفَ ابـن الـوردي في كتابـه «تتمّـة المُختـصر في تاريـخ البـشر» كريمـةَ بأنّهـا «عاليـة الإسـناد»[379]. ويقـول أبـو الفـداء في كتابـه «المُختـصر في أخبـار البـشر» في الحديـث عـن كريمـةَ: «وإليهـا انتهـى علـوّ الإسـناد الصَّحيـح»[380]. وكذلـك يقـول ابـن الأثـير في كتابـه «الكامـل في التَّاريـخ»: «وإليهـا انتهـى علـوّ الإسـناد للصَّحيـح إلى أن جـاءَ أبـو الوقـت»[381]. وأمّـا صـلاح الدّيـن الصّفـدي في كتابـه «الـوافي بالوفيـات» فيقـول عنهـا: «وطـالَ عُمْرُهـا وعـلا إسـنادها»[382].

ولعـلَّ مـن أسـبابِ شُـهرةِ سَـنَدِها وعلـوِّه مـا اشـتهرتْ بـه كريمـةُ من ضبـطِ كتابتهـا، وفي ذلـك يقـول ابـن نقطـة في كتابـه «التقييـد لمعرفـةِ الـرّواةِ والسُّـننِ والمسـانيد» في وصـفِ كريمـةَ: «وكانـت عالمـةً تضبـطُ كتْبهـا فيـما بَلَغنـا»[383]. ويقـول صاحـب الـوافي بالوفيـات: «وكانـت تَضبـطُ كتابَهـا»[384].

ولعـلَّ مـن أسـبابِ شُـهرَةِ سَـنَدِها وعلـوِّه أيضـاً مـا اشـتهرتْ بـه كريمـةُ مـن أنّهـا كانـت «إذا حدَّثـتْ قابلـتْ بنُسـختِها»[385]. ويقـول الذّهبـي في «سـير أعـلام النُّبـلاء»: «وكانـتْ إذا روتْ قابلـتْ بأصلهـا»[386]. ومـمّا يـدلُّ عـلى ذلـك مـا رواه أبـو الغنائـم الـنرْسي قـال: «أخرجـتْ كريمـةُ إليّ النُّسـخةَ «بالصَّحيـح»، فقعـدتُ بحذائها، وكتبـتُ سـبعَ أوراقٍ، وقرأتُها، وكنـتُ أريـدُ أن أُعـارضَ وحـدي، فقالـت: لا حتـى تعـارضَ معـي. فعارضْـتُ معهـا»[387].

ولذلـك وصَفَـتْ زينـب بنـت عـليّ العامـليّ في كتابهـا «الـدرّ المنثـور في طبقـات ربّـات الخـدور» روايـةَ كريمـةَ قائلـةً: «وروايتهـا مـن أصـحِّ روايـاتِ البُخـاري»[388].

وعـلى الرّغـم مـن شُـهرةِ إسـنادها لصحيـحِ البُخـاري وعلـوِّه، فـإنَّ هـذا الإسـناد لم يكـن

الوحيد الذي اعتمدَهُ الأندلسيّون إلاّ أنّه الأكثر شهرةً وشيوعاً لدى الأندلسيّين[389].

وقد أوردَ مُحَمَّدٌ بن سليمان الرّوداني (ت 1094هـ) في كتابه «صلةُ الخلف بموصول السَّلف» طُرُقَ روايةِ صحيحِ البُخاريّ[390]؛ وذكر من بينها «طريق الكشميهني رواية كريمة عنه»[391]. وذكر رواية «مُحَمَّد بن هلال بن بركات النَّحوي وأبي صادق مُرشِد يحيى المدنيّ وأبي الحَسن عليّ بن الحُسين بن عمر الموصليّ، ثلاثتهم عن أمِّ الكرامِ كريمةَ بنت أحمد بن مُحَمَّدٍ المروزيّة، عن الكشميهني»[392]. ورواية «أبي طالب الحُسين بن مُحَمَّدٍ بن عليّ عن كريمةَ»[393].

ومثلما أخذ الأندلسيّون والمغاربة صحيحَ البُخاري عن كريمةَ المروزيّة فقد رووهُ كذلك عن علماءٍ آخرين معاصرين لها، كان من أبرزهم أبو ذرٍّ عبد بن أحمد الهروي الذي رواه عن أبي مُحَمَّدٍ عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسيّ[394].

ومن الأندلسيّين الذين أخذوا عن أبي ذرٍّ الهروي أبو عمر عبدالله بن سعيد بن لباج الأموي الشنتجاليّ (ت 436هـ) الذي جاورَ بمكّةَ نحو أربعين سنةً ولَقيَ بها أبا ذرٍّ واختصَّ به وحَمَلَ عنه وعن جماعةٍ لقيهم هنالك، ثُمَّ انصرفَ إلى الاندلس وقَدِمَ إشبيلية سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائة[395].

وممّن روى صحيحَ البُخاري عن أبي ذرٍّ الهروي من الأندلسيّين أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن أحمد بن منظور من إشبيلية، ورواهُ عنه أبو مُحَمَّدٍ عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان (444 - 522هـ)[396].

ومنهم أيضاً أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن خلف بن مسعود بن شعيب ابن السقّاط، رحل إلى المَشرِقِ وحجَّ وسَمِعَ من أبي ذرٍّ الهروي صحيحَ البُخاري سنة 415هـ[397]. وفي حديثِ القاضي عياض في كتابه «الغنية» عن صحيحِ البُخاريّ يقول: «وحدّثني به أيضاً الجيّانيّ عن أبي العبّاس أحمد بن عمر الدّلائيّ عن أبي ذرٍّ الهروي عن شيوخه الثَّلاثة: أبي مُحَمَّدٍ الحمويِّ وأبي الهيثم الكشميهنيِّ وأبي إسحق المستمليِّ عن الفربريّ»[398].

ويقـولُ أيضـاً: «وحدّثنـي بـه أبـو القاسـم خلـف بـن إبراهيـم المُقـرئ والشَّـيخُ أحمـد بـن خليفـة بـن منصـور الخزاعـيّ والشَّـيخُ أبـو الأصبـغ عيـسى بـن أبي البحـر الزّهـري كلّهم عـن كريمـةَ بنـت مُحَمَّـدٍ»[399].

إنَّ اعتـمادَ بعـضِ الأندلسـيّين روايـةَ أبي ذرٍّ الهـروي لصحيـحِ البُخـاريّ ربّمـا يعـودُ إلى أنَّ الهـرويّ كان أكـبر سـنّاً مـن كريمـةَ وأسـبق منهـا في روايـة صحيـح البُخـاريّ، فقـد كان مولـده سـنة 356هــ أي قبـلَ مولـد كريمـةَ بسـبع سـنواتٍ، وسَـكَنَ الحَـرَمَ المـكّيَّ وجـاورَ فيـه أزيـدَ مـن ثلاثـين سـنةً حتـى وفاتـه سـنة 435هــ ولـه نحـو ثمانيـة عـشر كتابـاً منهـا كتابـه «المُسـند الصَّحيـح المُخـرّج عـلى البُخـاريّ ومسـلم»[400].

إنَّ النَّاظِـرَ في أعـدادِ العلـماءِ الأندلسـيّين الذيـن وفَـدوا إلى مجلـسِ كريمـةَ المروزيّـةَ وأخـذوا عنهـا، يَتبـيَّنُ لـه مـدى حِـرصِ هـؤلاء الأندلسـيّين عـلى حَمْـلِ الأحاديـثِ النبويَّـةِ ولا سـيّما صحيـح البُخـاريّ عـن هـذه المُحدِّثـة العالمـة، كـما أنَّ المطالـعَ لسـيرِ هـؤلاء العلـماء الذيـن أخـذوا عنهـا مـن أهـلِ الأندلـسِ يَتبـيَّن لـه أنّهـم مـن ذوي المكانـة العلميَّـة والاجتماعيَّـة الرَّفيعـة في الأندلـس، وهـذا يَـدلُّ عـلى أنهـم كانـوا ينظـرونَ إلى هـذه العالمـة نظـرةَ تقديـرٍ وإجـلالٍ وثقـةٍ بعلمهـا ومرويّاتهـا.

إنَّ علـماءَ الأندلـسِ الذيـن دَرسـوا عـلى كريمـةَ المروزيّـة يأتـونَ مـن حيـثُ أعدادِهـم في مُقدِّمَـةِ مـن أخَـذَ عنهـا، ولذلـك دلالـةٌ حَضاريَّـةٌ واجتماعيَّـةٌ، فنظرتُهُـم للمـرأةِ هـي نَظـرةُ تقديـرٍ لجهودِهـا واعـترافٌ بدورِهـا، فالمجتمـع الأندلـسيّ لم يكـن يـرى ضـيْراً أو يَجِـدُ غضاضـةً في تعليـمِ المَـرأةِ أو التَّعلُّـمِ عـلى يَديهـا، فهـذا ابـن حـزمٍ الظاهـري القرطبـي، وكانَ معـاصراً لكريمـةَ المروزيّـة، يقـولُ في رسـالته «طـوقُ الحَمامـة» إنّـه نشـأ وربّي في حجـورِ النِّسـاءِ وهـنَّ علَّمنـه القـرآنَ وروّينـه الأشـعارَ ودرّبنـه عـلى الخَـطِّ[401].

وكذلـك كانَ في قرطبـة مجلـسٌ أدبيٌّ لـولاّدة بنـت المسـتكفي يرتـادُهُ الرِّجـالُ والنِّسـاءُ، وكانـتْ ولاّدة أيضـاً معـاصرةً لكريمـةَ المروزيّـة.

إنَّ توافـدَ العلـماءِ مـن أقطـارِ العـالمِ الإسـلاميِّ عـلى كريمـةَ المروزيّـة للأخـذِ عنهـا، وإنَّ

استمرارَ كريمةَ في روايةِ الأحاديثِ النَّبويةِ وصحيحِ البُخاريِّ حتّى بلوغِها المائة من العُمرِ، هو مظهرٌ من مظاهرِ الإشعاعِ الحضاريِّ في الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، إذ لم تكن كريمةُ المروزيّة هي المرأةُ الوحيدة التي تَروي العِلمَ وتَنشُرُهُ، بل اشتهرتْ في المَشْرِقِ والأندلسِ أسماءُ نساءٍ كثيراتٍ كانتْ لهُنَّ مجالسُ علميّةٌ وأخَذَ عنهنَّ العُلماءُ، ولكنَّ كريمةَ المروزيّة حقّقتْ شهرةً زائدةً في القرنِ الخامسِ الهجريِّ ولا سيّما عند علماء الأندلس والمغرب، ولعلَّ بلوغها المائة من السَّنواتِ وطولِ مجاورتِها في مَكّةَ المُكرَّمةَ أتاحا لها مزيداً من الشُّهرةِ وازدياداً في عَدَدِ من وَفَدَ إليها من العُلماءِ.

خاتِمَة

وقَفَتْ هذه الدِّراسةُ على جُملَةٍ من الموضوعاتِ التي يُمثِّلُ كلٌّ منها جانباً لم يَكنْ مشهوراً من جوانبِ الحَضارَةِ الأندلسيَّةِ، وقد اعتَمَدَتْ الدِّراسةُ في الكَشْفِ عن هذه الجوانب على نُصوصٍ أندلسيّةٍ مُقتَبَسةٍ من المَصادرِ الأدبيَّةِ والتَّاريخيّةِ، حيثُ تُمثِّلُ هذه النُّصوص شواهدَ موثوقةً على ما وصلتْ إليه هذه الدِّراسةُ. ولئنْ كانتْ بعضُ المعلوماتِ المُستنبَطةِ من تلكَ النُّصوص والاقتباسات قد أوردَها أصحابُها عن قَصْدٍ لتعريفِ القارئِ بها، إلّا أنَّ بعضها يمكنُ أن يُفْهَمَ عَرَضاً من خِلالِ السِّياقِ.

إنَّ اعتمادَ هذه الدِّراسة على النُّصوص الأدبيَّة الشِّعريَّة والنَّثريَّة يَفتحُ البابَ أمامَ مَزيدٍ من الأبحاثِ التي تَسعى إلى اكتشافِ صورٍ من الحَضارةِ الأندلسيَّة التي لم تتحدَّثْ عنها المصادِرُ التَّاريخيَّة أو لم تعرض لها إلّا لماماً، كما أنَّ اكتشافَ مخطوطاتٍ أندلسيَّةٍ أدبيَّةٍ أو تاريخيَّةٍ جديدةٍ وتَحقيقَها ونشرَها قد يَكشِفُ عن جوانبَ لم تكنْ معلومةً من الحَضارةِ الأندلسيَّةِ.

إنّ إمعانَ النَّظَرِ في النُّصوصِ الأندلسيَّةِ المُحقَّقَةِ والتَّعمُّقَ في الوقوفِ على دلالاتِ الألفاظِ والمُصطلحاتِ والرُّموزِ والإشاراتِ من شأنهِ أن يُضيءَ لنا كثيراً من الزَّوايا والجوانب المُعتِمَة في الحياةِ الأندلسيَّةِ بعامَّةٍ والإنجاز الحضاريّ الأندلسيّ بخاصَّةٍ.

ولعلَّ ضياعَ كثيرٍ من المصادرِ التُّراثيَّةِ الأندلسيَّةِ خِلالَ الحروبِ والفِتَنْ التي

عَصَفَتْ بالأندلسِ قد حَرَمَ الدَّارسينَ من الاطِّلاعِ على جوانبَ خفيّةٍ قد تكونُ مُهِمَّةً من حياةِ الأندلسيّين وحضارتهم، وأنَّ ما تمّ الكَشْفُ عنه من تلك الحضارة ما هو إلّا غَيضٌ من فيضٍ من المُنجزاتِ الحَضاريَّة الأندلسيَّةِ.

آملينَ أنْ تَشهَدَ الأيّامُ القَادِمَةُ والبُحوثُ المتواصلةُ اكتشافَ مزيدٍ من كنوزِ التُّراثِ الأندلسيِّ والاطّلاعَ على جوانبَ إضافيةٍ من الحَضارةِ الأندلُسيَّة.

الحواشي والتعليقات:

1. تقدّم العرب في العلوم والصّناعات وأستاذيّتهم لأوروبا، ط. القاهرة، 1961.
2. نفح الطّيب 2/632.
3. كتاب الصّلة لابن بشكوال 1/202.
4. نفسه 1/202.
5. الصّلة 1/37.
6. الذّيل والتّكملة، السّفر الخامس، القسم الثاني، ص 642- 643.
7. نزهة المشتاق للإدريسي ص 192؛ وانظر أيضاً: الرّوض المعطار للحميري ص 337.
8. نفح الطّيب 1/166.
9. نفسه 1/163.
10. نفسه 1/223.
11. نفسه 1/218- 219.
12. ثلاث رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمحتسب ص 37- 38.
13. ثلاث رسائل أندلسيّة ص 111.
14. نفسه ص 91.
15. نفسه ص 91.
16. نفسه ص 91.
17. نفسه ص 38.
18. نفسه ص 97.
19. نفسه ص 90.
20. نفسه ص 111.
21. المعيار المعرب للونشريسي 9/59- 60.
22. ثلاث رسائل أندلسيّة ص 93.

23. ابن عبدالرؤوف، ثلاث رسائل ص 93.

24. نفسه ص 113.

25. نفسه ص 93.

26. نفح الطِّيب 3/219.

27. الحلّة السيّراء 2/31؛ الذّخيرة لابن بسّام ق 1 م 2 ص 603؛ البيان المغرب لابن عذاري المراكشي 3/186.

28. جذوة المقتبس للحميدي ص 28- 29؛ الحلّة السّيراء لابن الأبّار 2/32- 33؛ المعجب لعبد الواحد المراكشي 91

29. نفح الطِّيب 3/213

30. كتاب التّأريخ لعبدالملك بن حبيب ص 137؛ نفح الطِّيب للمقّري 1/240

31. فتح الأندلس لمجهول ص 18

32. البيان المغرب لابن عذاري المراكشي 2/18

33. تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي 2/147

34. البيان المغرب 1/43.

35. نفسه 2/228.

36. نفح الطِّيب 1/555.

37. نهاية الأرب للنّويري 23/420

38. تاريخ المنّ بالإمامة، ص 522- 523، وانظر أيضاً ص 393

39. البيان المغرب 3/7.

40. البيان المغرب 3/86؛ نهاية الأرب للنّويري 23/420.

41. الذّخيرة، ق 1 م 1 ص 184.

42. اللّمحة البدريّة 114.

43. ريحانة الكتّاب/ ابن الخطيب 1/148. ويقول ابن الخطيب في رسالة أخرى: ورفعنا المجانيق على أفلاك الاعجال (نفسه 1/163)

44. نفسه 1/163.

45. آخر أيام غرناطة، ص 118.

46. ترتيب المدارك 4/440؛ كتاب المستغيثين بالله لابن بشكوال 71؛ جنّة الرّضا لابن عاصم 2/119- 120.

47. وثائق في أحكام قضاء أهل الذمّة ص 81.

48. ديوان الصيّب والجهام للسان الدّين ابن الخطيب، ص 398- 399.

49. نفسه، ص 400.
50. ديوان ابن زمرك 483؛ نفح الطِّيب 7/184؛ أزهار الرّياض 2/60.
51. ديوان ابن زمرك ص 487؛ نفح الطِّيب 7/187؛ أزهار الرِّياض 2/65.
52. الاستبصار 68
53. جغرافية البكري 191
54. رسالة التّوابع والزّوابع ص 150.
55. Encyclopedia Americana, Art. Bullfighting
56. الإحاطة، نصوص جديدة، ص 130-129؛ نفح الطِّيب 7/297.
57. الإحاطة 4/482.
58. الإحاطة 4/482؛ نفح الطِّيب 6/462.
59. قرائن القصر ص 40.
60. ديوان ابن زمرك ص 485.
61. نفسه ص 468.
62. History of Moorish Empire in Spain ج 3 ص 668-667.
63. ورد في الموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica (ط. 1966) تحت مادة: مصارعة الثّيران: Bullfighting.
64. الحلّة السّيراء 2/261- 262.
65. نثير الجمان 327- 335.
66. نفسه 343.
67. ديوان الصيّب والجهام 464؛ (أزهار الرِّياض 3/195).
68. خيال الظِّلّ وتمثيليات ابن دانيال، ص 14- 16.
69. المرجع نفسه، ص 35- 37.
70. المرجع نفسه، ص 39- 40.
71. نفسه، ص 45.
72. نفسه، ص 40.
73. مقدِّمة ابن خلدون، ط. مؤسّسة الأعلمي ببيروت، ص 428. وقد نظم ابن جبير قصيدةً بعث بها إلى بعض إخوانه يصف بها لعبة كُرّج كانت بمجلسه (أدباء مالقة 129).
74. رسائل ابن حزم 1/351.

75. الذخيرة لابن بسّام ق 1 م 2 ص 677.

76. لطائف المنن في مناقب الشّيخ أبي العبّاس وشيخه أبي الحسن، تأليف: العارف بالله ابن عطاء الله السّكندري، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر، مطبعة حسّان، القاهرة، 1974، ص 182.

77. انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي، الجزء السّابع، الطّبعة الثّانية، باعتناء إحسان عبّاس، دار النّشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981، 7/264؛ نفح الطّيب للمقّري 2/190- 194.

78. رسائل ابن عربي/ كتاب التراجم ص 30- 31.

79. نفسه 31.

80. ديوان الششتري 142؛ ديوان الموشّحات الأندلسيّة 2/345- 347.

81. اختصار القدح المعلّى، ص 137.

82. نفح الطيب للمقّري 3/213.

83. وَرَدَ هذا النّصّ ضمن قطعةٍ من الباب العاشر من كتاب «متعة الأسماع في علم السّماع» للتيفاشي، نشرها محمد بن تاويت الطّنجي في مجلّة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكيّة في بيروت، المجلد 21، السنة 1968، العدد 1- 4، ص 93- 116، ووَرَدَ النّصُّ المذكور في الصفحة 103.

84. ذكر محمد بن تاويت الطّنجي في دراسته لهذه المخطوطة إنّها موجودةٌ في مكتبةٍ خاصّةٍ هي المكتبة العاشورية بتونس (المرجع السابق ص 93).

85. البيان المغرب لابن عذاري 3/39.

86. وَرَدَ ذِكرُه في معرض الحديث عن انشغال محمد بن هشام بن عبد الجبّار (في سنة 399هـ) بالملاهي (البيان المغرب لابن عذاري 3/80).

87. الذّخيرة لابن بسّام ق 3 م 2 ص 700- 701؛ شعر ابن اللبّانة الداني، جمع وتحقيق الدّكتور محمّد مجيد السّعيد، جامعة البصرة، 1397هـ/ 1977م، ص 31 - 32.

88. تاريخ المسرح العربي/ لاندو ص 21؛ ألف عامٍ على المسرح العربي/ تمارا ألكساندروفينا بوتيتسيفا، ص 83 - 84؛ خيال الظّلّ: مسرح قبل المسارح الحديثة للدّكتور عبدالحميد يونس (ضمن كتاب المسرح العربي بين النّقل والتّأصيل ص 49 - 50).

89. المسرح العربي بين النّقل والتّأصيل ص 25 - 27.

90. الإسلام والمسرح، محمّد عزيزة، ص 64.

91. خيال الظِّلِّ وتمثيليّات ابن دانيال، إبراهيم حمادة ص 39 - 40؛ خيال الظِّلِّ، عبدالحميد يونس، ص 18.

92. ألف عامٍ وعامٍ على المسرح العربي، ص 84.

93. ساق إبراهيم حمادة في كتابه «خيال الظِّلِّ وتمثيليّات ابن دانيال» أقوالُ عددٍ كبيرٍ من المستشرقين الذين يرون أنَّ خيال الظِّلِّ وصل إلى إيطاليا عن طريق تونس وآسيا الصّغرى بعد الفتح العثمانيّ لمصر، أو من تركيا عبر اليونان فإيطاليا ثمّ إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا (خيال الظِّلِّ وتمثيليات ابن دانيال 47- 51).

94. انظر خبر هذه المحاولة في: المغرب في حُلى المغرب لابن سعيد 1/333؛ نفح الطِّيب للمقّري 3/374؛ الزّهرات المنثورة لابن سماك العاملي 132- 133.

95. الزَّهرات المنثورة 132.

96. المقتبس/ السِّفر الثَّاني ص 347.

97. الوافي بالوفيات للصَّفدي 16/667.

98. المغرب لابن سعيدٍ 1/333.

99. الوافي بالوفيات للصَّفدي 16/667.

100. المغرب لابن سعيدٍ 1/333.

101. نفح الطِّيب 3/374.

102. نفسه 3/374، المقتبس 2/240

103. المقتبس/ تحقيق محمود مكي ص 284-283.

104. المقتبس / تحقيق محمود مكي ص 282- 283؛ والمقتبس 2/241؛ المغرب لابن سعيدٍ 1/333؛ نفح الطِّيب 3/374.

105. لسان العرب، مادة: دوم.

106. نفح الطِّيب للمقّري 1/221.

107. المغرب لابن سعيدٍ 1/333.

108. المقتبس/ تحقيق محمود مكي ص 124. وانظر المقتبس 2/349 حيث يقول: «كان عبّاسٌ بن فرناس صديقاً لمؤمن بن سعيدٍ الشَّاعر دهراً، ثُمَّ ما زال بمؤمنٍ تبذّؤ لسانه وخبث طوّيته، فتحكّك بعباسٍ حتى استفسده، فتكاشفا وتصارما وساء ما بينهما جدّاً، فتهاجيا وتماضّا، وجَرَتْ بينهما نقائضُ مفحشةٌ».

109. نفسه 301.

110. المغرب لابن سعيدٍ 1/333.

111. المقتبس 241-2/240؛ الوافي بالوفيات للصَّفدي 16/668.

112. تراجم إسلاميّة، ص 269- 270. ووَرَدَ هذا الخبر في المقتبس 2/243.

113. المقتبس/ تحقيق محمود مكّي ص 124.

114. المقتبس لابن حيّان/ تحقيق محمود مكّي ص 286.

115. المقتبس/ تحقيق محمود مكّي ص 228- 234؛ التّشبيهات للكتاني ص 70.

116. الوافي بالوفيّات للصَّفدي 16/668.

117. المقتبس 2/348.

118. المقتبس/ تحقيق محمود مكّي ص 281- 282.

119. تراجم إسلاميّة لمحمّد عبدالله عنان ص 267.

120. المقتبس/ تحقيق محمود مكّي ص 282- 283.

121. ابن الحدّاد هو الشَّاعر أبو عبدالله محمّدٌ بن أحمد بن عثمان بن الحدّاد القيسي الوادي آشي الأندلسي (ت 480هـ) شاعرُ المعتصم بن صمادح ملك المريّة (الذخيرة م2 ق1 ص691؛ نفح الطِّيب 7/26؛ الإحاطة 2/333).

122. يزفّن أي يرقّص (لسان العرب: زفن).

123. انظر هذا الخبر في الذّخيرة لابن بسّام ق1 م2 ص 721- 722؛ نفح الطِّيب 3/263- 264.

124. أُبِدة: ويقال لها أُبْذة أيضاً تقع على مقربة من النَّهر الكبير وتبعد عن مدينة بيّاسة سبعة أميالٍ (الرَّوض المعطار للحميري ص 6).

125. نفح الطِّيب 3/217.

126. الإمتاع والانتفاع لابن الدرَّاج السَّبتي 137.

127. نفسه 137.

128. أبو الحسن علي بن مُحَمَّدٍ بن يوسف بن خروف القرطبي الشَّاعر المتوفّى بحلب سنة 620هـ، انظر ترجمته في أدباء مالقة ص 322- 328.

129. وردت الأبيات في: الإمتاع والانتفاع لابن الدرّاج 137؛ المُغْرب في حُلى المَغْرب لابن سعيد 1/137؛ الغصون اليانعة لابن سعيد 140؛ أدباء مالقة 236؛ الذّيل والتّكملة لابن عبدالملك المرّاكشي س 5 ق1 ص 697؛ صلة الصِّلة 4/120؛ رايات المبرزين 139؛ نفح الطِّيب 3/204.

130. ديوان الصيّب والجهام، لسان الدِّين ابن الخطيب، ص 336.

131. هو أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن يوسف الصّريحي المشهور بابن زَمْرَك (733 - ما بعد 797هـ)، وكان من وزراءِ السُّلطان مُحَمَّدٍ الخامس الغنيّ بالله ابن الأحمر. (الإحاطة لابن الخطيب 2/300-314؛ نثير فرائد الجمان لابن الأحمر 326 - 329؛ أزهار الرِّياض 2/7 - 206).

132. ديوان ابن زمرك 487؛ نفح الطِّيب 7/187- 188؛ أزهار الرِّياض 2/65.

133. في النفح: حول.

134. ديوان ابن زمرك 400- 401؛ نفح الطِّيب 7/204؛ أزهار الرِّياض 2/90- 91.

135. نفح الطِّيب 1/153.

136. نفسه 1/157، تحفة القادم 147.

137. نفسه 1/210.

138. نفسه 1/199.

139. نفسه 1/228.

140. التَّشبيهات للكتّاني ص 53- 62.

141. رسالة التّوابع والزّوابع ص 150.

142. الذّخيرة ق1 م2 ص 769.

143. مفاخر البربر 160.

144. الذَّخيرة ق1 م2 ص 872- 873.

145. الزُّرزوريّات، الدّكتور فوزي سعد عيسى ص13؛ معجم لسان العرب (زرر)؛ المعجم الوسيط (زرزور)؛ معجم المعاني الجامع (زرزور).

146. التَّهذيب بمحكم التَّرتيب، ابن شُهيدٍ الأندلسي، ص 126.

147. الزُّرزوريات ص 7.

148. الذَّخيرة ق2 م1 ص349؛ الزُّرزوريات 52.

149. نفسه ق2 م1 ص349؛ الزُّرزوريات 53.

150. نفسه ق2 م1 ص351؛ الزُّرزوريات 54.

151. نفسه ق2 م1 ص 352-351؛ الزُّرزوريّات 54- 55.

152. نفسه ق2 م1 ص354؛ الزُّرزوريّات 57.

153. نفسه ق2 م2 ص 758- 759؛ الزُّرزوريّات 59- 60.

154. نفسه ق3 م1 ص 405؛ قلائد العقيان 1/374- 375؛ خريدة القصر 2/401- 402؛ الزُّرزوريّات 63- 64.

155. الزُّرزوريّات 72.

156. نفسه 73.

157. نفسه 82-81.

158. نفسه ص 82.

159. نفسه ص 84.

160. الذَّخيرة ق2 م1 ص 347؛ الزُّرزوريات 50.

161. نفح الطِّيب 1/360- 361.

162. رسالة التَّوابع والزَّوابع 150.

163. رسائل ابن حزم 4/106.

164. قلائد العقيان 1/408- 409؛ المطرب 176.

165. الصيّب والجهام 336

166. المطرب 110؛ أزهار الرّياض 5/150.

167. زاد المسافر 101؛ الأنيس المطرب 184- 186؛ البيان المغرب/ قسم الموحّدين 46- 47؛ ونسبها المقّري في نفح الطِّيب 3/103 إلى قراقوش مملوك بني أيّوب.

168. الذَّخيرة ق3 م2 ص 764.

169. الأنيس المطرب 382.

170. رسائل الجاحظ 33-3/32.

171. جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ص 184.

172. انظر: العزّ والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، لابن غانم الريّاش الأندلسيّ، ص 25- 38 (مقدّمة المحقّق) ص 62- 65، حضارة العرب، غوستاف لوبون 478- 481

173. الإحاطة 2/140، جذوة الاقتباس 1/288، الاستقصا3/22

174. العزّ والرّفعة والمنافع ص 63

175. نفسه ص 63

176. يقصد أبا الحسن بن الجيّاب الذي كان كاتب الدولة في زمنه (الإحاطة 1/381) والقصيدة كاملة موجودة في ديوان أبي الحسن بن الجيّاب ص 347- 350

177. هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي (ت 753هـ) (ترجمته في الإحاطة 4/390- 401)

178. وَرَدَ هذا الخبر في الإحاطة 1/390-391. اللحمة البدرية 85، ووردت الأبيات أيضاً في الإحاطة 4/396-397؛ ونفح الطِّيب 5/493، ووردتْ في الكتيبة الكامنة منسوبةً إلى ابن شقوال ص 77

179. نفاضة الجراب 3/307 (حاشية المحقّق)

180. نفاضة الجراب 3/117 (في أحداث سنة 763هـ)

181. نفسه

182. نفسه، الأنيس المطرب 198، 232

183. نفح الطِّيب 6/462 (من قصيدة للسان الدِّين بن الخطيب)

184. ريحانة الكتّاب 1/165 (في أحداث 769هـ)، نفاضة الجراب 3/276

185. نفح الطِّيب 6/371، البيان المغرب/ قسم الموحّدين 210

186. فيض العباب 273، 288، 295، 309، 311

187. الذَّخيرة لابن بسّام ق 1 م 2 ص 796

188. البيان المغرب/ قسم الموحّدين 210

189. نفسه 211

190. العبر/ ابن خلدون 7/388، الاستقصا للنّاصري 3/36، وانظر: الأنيس المطرب 225

191. الاستقصا للنّاصري 3/36

192. يشير بذلك إلى ابن غانم الريّاش الأندلسيّ في كتابه: العزّ والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع ص 63

193. McCabe 257

194. حضارة العرب/ غوستاف لوبون 481-480

195. نفح الطِّيب 5/108

196. أزهار الرِّياض للمقّري 1/111

197. نبذة العصر 18، وانظر استخدامه كلمة الأنفاط في الصفحات 9، 13، 14، 15، 16، 17، 24

198. نفسه ص 15، 21

199. Irving, Washington, The Conquest of Granada 1/350

200. نبذة العصر 14

201. نفسه 15

202. Lerchundi, José R.P. and Simonet, Francisco Javier, Crestomatia Arabi-go-Espanōla, Granada, 1881, P. 80، و نفح الطِّيب 4/520

203. ديوان ابن قُركون 139

204. نفسه 143

205. نفسه 144

206. نفح الطِّيب 4/514

207. نفسه 4/521

208. نهاية الأندلس، محمد عبدالله عنان، القاهرة، 1949، 246

209. Scott, S.P., History of the Moorish Empire of Europe, Philadelphia and London, 1904, 3/456

210. المقتبس لابن حيّان 242-5/241؛ أعمال الأعلام لابن الخطيب 30

211. انظر المقتبس 5/454

212. طبقات الأمم 62

213. نفح الطِّيب 3/214 نقلاً عن رسالة أبي الوليد الشّقندي في تفضيل الأندلس على برِّ العدوة

214. اقتباس الأنوار 76- 77، 179- 180

215. نفح الطِّيب 1/462

216. البيان المغرب 2/241

217. طبقات الأمم 65- 66

218. المغرب في حُلى المغرب 1/186، نفح الطِّيب 1/385، 395

219. طبقات الأمم 88- 89

220. تاريخ الفكر الأندلسي 9

221. نفسه 487

222. زمان الوصل 37- 38

223. نفسه 37-38

224. البكري 80

225. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء 493-494، تاريخ الفكر الأندلسيّ 462-463

226. تاريخ الفكر الأندلسيّ 462

227. العبر 2/101

228. طبقات الأطبّاء والحكماء لابن جلجل (المقدّمة)

229. طبقات الأمم لصاعد 65- 66، تاريخ الفكر الأندلسيّ 448

230. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء 494

231. المقتبس لابن حيان 5/475

232. Ph. Hitti, History of The Arabs, 590; Hajji, Andalusian Diplomatic Relations, 216, زمان الوصل 54

233. تاريخ الفكر الأندلسيّ 487

234. نفسه 487

235. Hajji, 218-219

236. تاريخ الفكر الأندلسيّ، 487، وانظر نفح الطِّيب 3/186 في وصف الكتاب

237. Hajji, 219-218

238. تاريخ الفكر الأندلسيّ 487- 488، 465، وانظر: تقويم قرطبة، عَريب بن سعد، نشره رينهارت دوزي، مطبعة بريل، لايدن، 1961

239. رسائل ابن حزم 2/185، نفح الطِّيب 3/175

240. تاريخ الفكر الأندلسيّ 466-465

241. طبقات الأطبّاء والحكماء 3-1. ويرونم الترجمان هو سفرونيوس يوسبيوس إيرونيموس (420-331م) اشتهر باسم القدّيس إيرونيم S. Jérome، وأهمّ كتبه: Chronica الذي سمّاه ابن جلجل: القروانقة

242. طبقات الأطبّاء والحكماء 92

243. تاريخ الفكر الأندلسيّ 448

244. طبقات الأمم 69

245. تاريخ الفكر الأندلسيّ 311

246. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء 493-495

247. طبقات الأطبّاء والحكماء 111

248. عيون الأنباء 483- 484، طبقات الأمم 69

249. طبقات الأمم68، تاريخ الفكر الأندلسي 331

250. طبقات الأطبّاء والحكماء 113-112، طبقات الأمم 82-81، عيون الأنباء 487

251. طبقات الأطبّاء والحكماء 101، عيون الأنباء 488

252. طبقات الأمم 21؛ تاريخ الفكر الأندلسيّ 327- 330، وانظر: المقتبس لابن حيان 36-5/20؛ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي 40-2/39

253. طبقات الأمم 33-19

254. نفسه 37-33

255. المقتبس 278-5/274

256. تاريخ الفكر الأندلسيّ 198-197

257. جغرافية الأندلس وأوروبا 80

258. المقتبس 5/454

259. الصِّلة لابن بشكوال 2/692

260. الصِّلة 2/692

261. المغرب 2/138

262. المعجب 520

263. الذّخيرة لابن بسّام ق1 م1، ص 429، المطرب لابن دحية، ص 8

264. نفح الطِّيب للمقرّي 179-4/178

265. المُغرب لابن سعيد 2/121؛ نفح الطِّيب 4/298

266. الذَّخيرة ق1 م1، ص 430؛ المُطرب 9؛ نفح الطِّيب 4/206

267. الذَّخيرة ق1 م1، ص 429- 430؛ المطرب 8

268. نزهة الأبصار والأسماع لبدر الدِّين الصدِّيق، ورقة 11

269. نفح الطِّيب/176

270. نزهة الجلساء للسّيوطي 42

271. نزهة الجلساء للسّيوطي 43؛ نفح الطِّيب 4/178

272. نزهة الجلساء 85؛ نفح الطِّيب 4/296

273. نزهة الجلساء 62؛ نفح الطِّيب 4/290، وفيها أنها ماتتْ من دون أن تتزوَّج

274. تحفة القادم 237

275. نزهة الجلساء 27؛ نفح الطِّيب 4/169

276. نزهة الجلساء 75؛ نفح الطِّيب 3/530

277. ولّادة بنت المستكفي، صلاح جرّار 187

278. نفسه 188

279. المُغرب لابن سعيد 2/138؛ نفح الطِّيب 4/171

280. نفح الطِّيب 4/294

281. نزهة الجلساء 88

282. نزهة الجلساء 88؛ نفح الطِّيب 4/205

283. الإحاطة 1/490؛ نزهة الجلساء 47

284. الصِّلة لابن بشكوال 2/693؛ جذوة المقتبس 412

285. شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبلي 3/314؛ العقد الثَّمين للفاسيِّ 6/438؛ الوافي بالوفيّات 4/337؛ سير أعلام النبلاء 18/233؛ تاريخ الإسلام للذّهبي 31/179، العبر للذّهبي 2/315؛ تاج العروس (باب: زرع) وفصل الكاف.

286. الكامل في التاريخ لابن الأثير 10/69؛ الإكمال لابن ماكولا 7/171؛ البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112؛ المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ المختصر لأبي الفداء 1/188؛ شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبلي 3/314؛ تتمّة المختصر لابن الوردي 1/375؛ العقد الثَّمين للفاسيِّ 6/438؛ الغنية للقاضي عياض 147؛ الوافي بالوفيّات 4/337؛ سير أعلام النُّبلاء 18/233؛ الصِّلة لابن بشكوال 1/74؛ دول الإسلام للذَّهبي 1/274؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179، العبر للذَّهبي 2/315؛ الدرُّ المنثور لزينب العاملي 710؛ الأعلام للزّركلي 5/225، فهرس ابن عطيّة 64، 95، 120، 127.

287. الإكمال لابن ماكولا 7/171؛ البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112 (وفيه: ابن أبي حاتم)؛ المنتظم لابن الجوزي 8/270 (وفيه: ابن أبي حاتم)؛ شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبلي 3/314؛ العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438؛ الوافي بالوفيّات 4/337؛ سير أعلام النُّبلاء 18/233؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179؛ العبر للذَّهبي 2/315؛ الدرُّ المنثور لزينب العاملي 710؛ فهرس ابن عطية 64، 95، 120، 127.

288. انفرد ابن بشكوال في موضعٍ واحدٍ من كتابه «الصِّلة» بأنْ سمّاها: كريمة بنت أحمد السرخسيّة (الصِّلة 2/408)

289. معجم البلدان 4/463، القاموس المحيط

290. المنتظم لابن الجوزي 8/270

291. سير أعلام النُّبلاء 3/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/181

292. المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ المختَصَر لأبي الفدا 1/188؛ شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبلي 3/314؛ دول الإسلام للذَّهبي 1/274؛ تتمة المُختَصَر لابن الوردي 1/375؛ سير أعلام النُّبلاء 18/234- 235؛ تاريخ الإسلام 31/181؛ العبر للذَّهبي 2/316؛ الدرُّ المنثور للعامليّ 711

293. الوافي بالوفيّات للصّفدي 4/337؛ التّقييد لابن نقطة 1/499؛ دول الإسلام للذَّهبي 1/274؛ العقد الثّمين للفاسيّ 6/438

294. سِيَر أعلام النُّبلاء 18/234

295. الوافي بالوفيّات 4/337؛ سِيَر أعلام النُّبلاء 18/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/181؛ العبر للذَّهبي 2/316؛ الدرُّ المنثور 711؛ شذرات الذَّهب 3/314

296. سير أعلام النُّبلاء 18/234؛ شذرات الذَّهب 3/314، العقد الثَّمين 6/438؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/181؛ العبر للذَّهبي 2/316؛ الدرُّ المنثور 711

297. المنتظم 8/270، البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112؛ التّقييد لابن نقطة 1/499

298. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179؛ الوافي بالوفيّات 4/337

299. العِبَر للذَّهبي 2/316، وانظر: شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبليّ 3/314

300. سِيَر أعلام النُّبلاء 18/233

301. نفسه 18/233

302. شذرات الذَّهب 3/314

303. فهرس ابن عطيّة 64

304. نفسه 95

305. نفسه 127، كما وصفها ابن نقطة في كتابه «التقييد» بالزَّاهدة 1/499

306. الدرُّ المنثور 711-710

307. سير أعلام النُّبلاء 18/234، تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/181

308. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179؛ العبر للذَّهبي 2/315؛ سِيَر أعلام النُّبلاء 18/233؛ الإكمال لابن ماكولا 7/171؛ شذرات الذَّهب 3/314؛ العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438؛ الوافي بالوفيّات للصَّفدي 4/337

309. يُنظَرُ مثال على ذلك في: مشيخة ابن جمّاعة (الحديث رقم 193)، وانظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر 55/77

310. فهرس الفهارس والأثبات للكتّاني 2/942

311. البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112؛ التّقييد لابن نقطة 1/499؛ المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ الإكمال لابن ماكولا 7/171؛ العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438؛ الوافي بالوفيّات 4/337؛ سير أعلام النُّبلاء 18/233؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179؛ العبر للذَّهبي 2/315؛ الدرُّ المنثور لزينب العامليّ 710؛ شذرات الذَّهب لابن العماد الحنبليّ 3/314

312. انظر ترجمته في الوافي بالوفيّات 14/167-168؛ طبقات السَّبكي 3/293

313. التقييد لابن نقطة 1/499؛ سير أعلام النُّبلاء 18/233؛ الإكمال لابن ماكولا 7/171؛ العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/179؛ الدرُّ المنثور 710؛ شذرات الذَّهب 3/314؛ تاريخ مدينة دمشق 55/77

314. سير أعلام النُّبلاء 18/233؛ تاريخ الإسلام 31/179

315. الإكمال لابن ماكولا 7/171

316. العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438

317. العبر للذَّهبي 2/316

318. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180

319. المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ التقييد لابن نقطة 1/499؛ البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112؛ معجم الأدباء لياقوت 1/386؛ فهرس الفهارس والأثبات للكتّاني 2/1047؛ سير أعلام النُّبلاء 18/233، 234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180؛ العقد الثَّمين للفاسيّ 6/438

320. البداية والنِّهاية لابن كثير 12/108؛ معجم الأدباء لياقوت 1/386؛ فهرس الفهارس والأسباثت للكتاني 2/1047

321. سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي 18/233. والمقصود بالموسم هو الحجّ

322. وصفه ابن خلكان في «وفيّات الأعيان» بأنه «كان إمام عصره بلا مدافعةٍ، أقرَّ له بذلك الموافق والمخالف، وكان حنفيُّ المَذهبِ متعيّناً عند أئمّتهم، فحجَّ في سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وظهر له بالحجاز ما اقتضى انتقاله إلى مذهب الإمام الشَّافعي، رضي الله عنه، فلمّا عاد إلى مرو لقيَ بسبب انتقاله محناً وتعصّباً شديداً، فصبر على ذلك. وألّف عِدّةَ كتبٍ في مذهب الشَّافعي». (وفيّات الأعيان 3/211).

323. المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ البداية والنِّهاية لابن كثير 12/112؛ سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي 18/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180

324. انظر أمثلةً على ذلك في: تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/181؛ سير أعلام النُّبلاء 18/234

325. هو أبو طالب الحُسين بن مُحَمَّدٍ بن علي بن الحسن بن مُحَمَّدٍ بن عبدالوهّاب الزَّينبيّ الملقَّب نور الهُدى، ولِيَ نقابة العباسيّين والطالبيّين سنة 452هـ جاورَ بِمكّةِ ناظراً في مصالح الحَرَمِ، وتوفِّي سنة 512هـ (الوافي بالوفيّات للصَّفدي 13/41- 42؛ البداية والنِّهاية لابن كثير 12/196)

326. الوافي بالوفيّات للصَّفدي 13/42

327. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180؛ المنتظم لابن الجوزي 8/270؛ التقييد لابن نقطة 1/499؛ سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي 18/234

328. الوافي بالوفيّات للصَّفدي 4/143-144

329. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180؛ سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي 18/234

330. التقييد لابن نقطة 1/499

331. سير أعلام النُّبلاء 18/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180؛ التكملة لابن الأبّار 2/506

332. سير أعلام النُّبلاء 18/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180

333. تُنظَر ترجمته في: الوافي بالوفيّات 2/247؛ وورد في سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي 18/234، وتاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180، أنه ممّن روى عن كريمةَ المروزيّة

334. سير أعلام النُّبلاء 18/234؛ تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180، معجم السَّلفي 285

335. المنتظم لابن الجوزي 8/270

336. معجم السَّلفي 30

337. معجم السَّلفي 108

338. فهرس ابن عطيّة 64

339. الوافي بالوفيّات 15/297 ؛ وفيّات الأعيان 6/67

340. التَّكملة لابن الأبّار 1/149

341. الغنية للقاضي عياض 34/115

342. برنامج التَّجيبي 70

343. الغنية للقاضي عياض 34

344. تاريخ الإسلام للذَّهبي 31/180

345. الصِّلة لابن بشكوال 2/560- 561. وتُنظَر ترجمة الحميدي في الوافي بالوفيّات 4/317- 318؛ وفيّات الأعيان 4/282-284

346. فهرس ابن عطيّة 95

347. فهرس ابن عطيّة 119- 121؛ الصِّلة لابن بشكوال 1/174؛ بغية الملتمس 274 (وفيه ابن النخّاس)، الغنية للقاضي عياض 147 (وفيه: ابن النخّاس)

348. فهرس ابن عطيّة 127-128؛ الصِّلة 1/74، الغنية للقاضي عياض 101

349. صلة الصِّلة لابن الزُّبير 4/49؛ الغنية للقاضي عياض 184؛ الصِّلة لابن بشكوال 2/440- 441

350. الصِّلة لابن بشكوال 1/73؛ التَّكملة لابن الأبّار 1/26؛ صلة الصِّلة 5/340؛ الغنية للقاضي عياض 114

351. الصِّلة 1/98

352. الصِّلة لابن بشكوال 1/132- 133

353. الصِّلة لابن بشكوال 2/561- 562

354. التَّكملة لابن الأبّار 1/32؛ الذَّيل والتَّكملة لابن عبد الملك المرّاكشي، السّفر الأول/ القسم الأول، ص 192

355. الذَّيل والتَّكملة، السّفر الأول/ القسم الأول، ص 91

356. الصِّلة لابن بشكوال 2/563

357. التَّكملة لابن الأبّار 2/506

358. ترجمته في: الغنية للقاضي عياض 138- 140

359. الغنية للقاضي عياض 33

360. الصِّلة لابن بشكوال 2/339

361. الصِّلة لابن بشكوال 2/343

362. الصِّلة لابن بشكوال 2/408- 411

363. الصِّلة لابن بشكوال 2/604

364. الغنية للقاضي عياض 34

365. فهرس ابن عطيّة 64

366. نفسه 64

367. نفسه 95

368. نفسه 120

369. نفسه 127

370. تاج العروس للزُّبيدي (باب: زرع)

371. نفح الطِّيب 2/605-606، التَّكملة لابن الأبّار 1/149

372. برنامج التَّجيبي 70

373. الوافي بالوفيّات 5/57- 58

374. الوافي بالوفيّات 5/245؛ وفيّات الأعيان 4/290، وقال الفربري إنه سمع الصَّحيح من البُخاري في ثلاث سنين 253، 254، 255هـ وقيلَ إنّه كان في سنة 316هـ أو 315هـ وذلك بحقِّ سماعه من المُصنّف مرَّتين مرّة بفربر ومرّة ببخارى سنة 252هـ (برنامج التّجيبي ص 69)

375. وفيّات الأعيان 4/290

376. مشارق الأنوار للقاضي عياض 1/19

377. فتح الباري شرح صحيح البُخاري، ابن حجر العسقلاني، 1/63

378. الغنية للقاضي عياض 115

379. تتمّة المختصر لابن الوردي 1/375

380. المختصر لأبي الفداء 1/188

381. الكامل في التّاريخ 10/69

382. الوافي بالوفيّات 4/337

383. التقييد لابن نقطة 1/499 (ترجمة رقم 683)

384. الوافي بالوفيّات 4/337، وانظر: العقد الثّمين 6/438؛ وتاريخ الإسلام للذّهبي 31/179؛ والعبر للذّهبي 2/315؛ شذرات الذّهب لابن العماد الحنبلي 3/314

385. تاريخ الإسلام للذّهبي 31/179، وانظر: شذرات الذّهب 3/314؛ العبر للذّهبي 2/315؛ الدرُّ المنثور 710

386. سير أعلام النُّبلاء 18/233

387. سير أعلام النُّبلاء 18/234؛ تاريخ الإسلام للذّهبي 31/180

388. الدرُّ المنثور 710

389. انظر: الغنية للقاضي عياض 33؛ فهرس ابن عطيّة 65

390. صلة الخلف للرّوداني 54-43

391. نفسه 46

392. نفسه 46

393. نفسه 46

394. نفسه 43

395. الأندلس في اقتباس الأنوار 89، الصِّلة لابن بشكوال 1/271- 273

396. الصِّلة 1/293- 294

397. نفسه 2/558- 559

398. الغنية للقاضي عياض 33

399. نفسه 34

400. ترتيب المدارك 4/696- 698

401. رسائل ابن حزم 1/166 (تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، المؤسسة العربيّة للدِّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1980)

المصادر والمراجع

1. آخر أيّام غرناطة، مؤلّفٌ أندلسيٌّ من رجال القرن التّاسع الهجريِّ، حقّقهُ وقدم له: الدّكتور محمّد رضوان الدّاية، دار حسّان للطباعة والنشر، دمشق، 1984م.
2. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسانُ الدِّين ابن الخطيب، أبو عبدالله مُحَمَّدٍ بن عبدالله السَّلماني اللوشي (ت 776هـ)، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973- 1977م.
3. الإحاطة في أخبار غرناطة (نصوصٌ جديدةٌ لم تُنشَر) لسان الدِّين ابن الخطيب، تحقيق عبدالسَّلام شقّور، كلية الآداب، تطوان، المغرب، 1988م.
4. الأحكام، للقاضي أبي المطرف عبدالرحمن بن قاسم الشّعبي المالقي (402 - 497هـ)، تقديم وتحقيق: الدّكتور الصَّادق الحلوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.
5. أحكام السوق، يحيى بن عمر الأندلسي (ت 289هـ)، حقّقه وقدّم له: محمود علي مكّي، صحيفة المعهد المصري للدِّراسات الإسلاميّة، مجلة 4، العدد2-1، السَّنة 1956م، مدريد.
6. اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلّى، أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن خليل (وهو مختصرٌ لكتابِ القدحِ المُعلّى لأبي الحسن عليّ بن موسى بن سعيد المغربيّ ت 685هـ تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م.
7. أدباءُ مالقة، ابن خميس المالقي، أبو بكرٍ مُحَمَّدٌ بن مُحَمَّدٍ بن علي، حقّقه وقدّم له: الدكتور صلاح جرّار، دار البشير/ عمّان ومؤسسة الرِّسالة/ بيروت، 1999م.
8. أزهارُ الرِّياض في أخبار عياض، المقّري، شهاب الدِّين أبو العبّاس أحمد بن مُحَمَّدٍ التّلمساني (ت 1041هـ)، اللجنة المُشتركة لنشر التُّراث الإسلاميّ بين حكومة المملكة المغربيّة وحكومة دولة الإمارات، الرباط، 1398هـ/ 1978م.
9. الاستبصارُ في عجائبِ الأمصارِ، مؤلفٌ مجهولٌ (ق 9هـ)، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد
10. الاستقصا لأخبارِ دولِ المغربِ الأقصى، النَّاصري أبو العبّاس أحمد بن خالد (9 مجلدات)، نشره ابناه جعفر ومُحَمَّد، دار الكتاب، الدَّار البيضاء، 1954
11. الإسلام والمسرح، محمد عزيزة، ترجمة الدكتور رفيق الصبّان، منشورات عيون، الدَّار البيضاء، 1988م.
12. الأعلام، الزّركلي، خير الدِّين، دار العلم للملايين، بيروت، ط16، 2005.

13. أعمال الأعلام، ابن الخطيب، لسان الدِّين (ت 776هـ)، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت، 1956.

14. الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمُختلِف في الأسماء والكُنى والأنساب، الأمير الحافظ ابن ماكولا (ت 475هـ)، اعتنى بتصحيحه والتَّعليق عليه الأستاذ نايف العبّاس، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

15. ألفُ عامٍ على المسرح العربي، تمارا ألكسندروفنا بوتيتسيفا، ترجمة توفيق المؤذن، دار الفارابي، بيروت، 1981م.

16. الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السَّماع، ابن الدرّاج السّبتي، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1982م.

17. الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، الرّشاطي، أبو مُحَمَّدٍ (ت 542هـ) وابن الخرّاط الإشبيلي (ت 581هـ)، تقديم وتحقيق إيميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة، معهد التَّعاون مع العالم العربي، مدريد، 1990.

18. الأنيسُ المطربُ بروضِ القرطاسِ، ابن أبي زراع، علي بن عبدالله الفاسيّ، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1973

19. البداية والنِّهاية، ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثيرٍ الدِّمشقي (ت 774هـ)، حقّقه: دكتور أحمد أبو ملحم، ودكتور علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيّد والأستاذ مهدي ناصر الدِّين والأستاذ علي عبد السَّاتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1987.

20. برنامج التّجيبي، القاسم يوسف التّجيبي السبتي (ت 730هـ)، تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، الدّار العربيّة للكتاب.

21. بغيةُ المُلتَمِس في تاريخ رجالِ أهلِ الأندلس، الضبيّ، أحمد بن يحيى بن أحمد ابن عميرة (ت 599هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

22. البيانُ المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

23. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمَغرِب، ابن عذاري المراكشي (قسم الموحّدين)، تحقيق مُحَمَّدٍ إبراهيم الكتّاني، ومُحَمَّدٍ بن تاويت، ومُحَمَّدٍ زنيبر، وعبد القادر زمامة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ودار الثَّقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1985

24. تاجُ العروسِ من جواهر القاموس، الزُّبيدي (ت 1205هـ).

25. تاريخُ ابن خلدون: انظر: العِبَر وديوان المبتدأ والخَبَر

26. تاريخ ابن الوردي = انظر: تتمّة المُختَصَر.

27. تاريخُ علماءِ الأندلس، ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن مُحَمَّدٍ بن يوسف الأزدي (ت 403هـ)، الدَّار المصرية للتَّأليف والتَّرجمة، مصر، 1966م.

28. تاريخُ الفِكْرِ الأندلسيّ، آنخل جنثالث بالنثيا، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1955.

29. تاريخُ مدينةِ دمشق، ابن عساكر، أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت 571هـ)، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

30. تاريخُ المسرحِ العربيّ، لاندو يعقوب، ترجمة الدكتور يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، 1980م.

31. تاريخُ المنِّ بالإمامةِ على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّةً وجعلهم الوارثين (السّفر الثَّاني)، ابن صاحب الصلاة، عبدالملك (ت 594هـ)، تحقيق عبدالهادي التَّازيّ، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1964م.

32. تتمَّة المختصر في تاريخ البشر، ابن الوردي، جمعية المعارف، 1868

33. تحفة القادم، ابن الأبّار، أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن الأبّار القضاعي (ت 658هـ)، أعاد بناءه وعلّق عليه الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986

34. تراجم إسلامية شرقيّة وأندلسيّة، محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970م.

35. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السّبتي (ت 544هـ)، تحقيق الدكتور مُحَمَّد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية بالمغرب.

36. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض (ت 544هـ)، دار مكتبة الحياة – بيروت، ودار مكتبة الفكر – طرابلس – ليبيا، 1968.

37. تسعُ وثائق في شؤون الحسبة على المساجد في الأندلس، د. محمد عبدالوهاب خلّاف، حوليّات كليّة الآداب، جامعة الكويت، الحوليّة الخامسة، الرسالة الثانية والعشرون، 1984م.

38. التَّشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتّاني، الشَّيخ أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن الكتّاني الطبيب (ت حوالي 420هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثَّقافة، بيروت، 1966

39. تَقدُّم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيّتهم لأوروبا، عبّاس الجراري، القاهرة، 1961م.

40. تقويم قرطبة، عَريب بن سعد، نشره رينهارت دوزي، مطبعة بريل، لايدن، 1961

41. التقييد لمعرفة رواة السُّنن والمسانيد، ابن النقطة الحنبلي، الحافظ أبو بكر مُحَمَّدٌ بن عبد الغني البغدادي (ت 629هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988.

42. التَّكملة لكتاب الصِّلة، ابن الأبّار القضاعي، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ت 658هـ)، نشره عزّت العطّار الحسيني، مصر، 1956.

43. التَّهذيب بمحكم التَّرتيب، ابن شهيد الأندلسيّ، أبو عامر أحمد بن عبدالملك الأشجعي (ت 426هـ)، تحقيق الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 2002

44. التَّوابع والزَّوابع، ابن شهيد (ت 426هـ)، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1980م.

45. توضيح المُشتبه في ضبط أسماء الرّواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ابن ناصر الدِّين، شمس الدِّين مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد القيسي الدِّمشقي، مؤسّسة الرِّسالة، بيروت، 1993.

46. ثلاثُ رسائل أندلسيّة في آداب الحسبة والمُحتسب، حقّقها ودرسها إ. ليفي بروفنسال، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشَّرقية بالقاهرة، 1955م.

47. جذوة الاقتباس في ذِكْر مَنْ حَلَّ من أعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي (ت 1025هـ)، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1973

48. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحميدي، أبو عبدالله مُحَمَّد بن أبي نصر فتّوح بن عبدالله الأزدي (ت 488هـ)، الدّار المصرية للتَّأليف والتَّرجمة، مصر، 1966م.

49. جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، أبو عبيد البكري (ت 487هـ)، تحقيق الدكتور عبد الرَّحمن علي الحجّي، دار الإرشاد للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، ط1، 1968

50. جنّة الرِّضا في التَّسليم لما قدّر الله وقضى، ابن عاصم الغرناطي، أبو يحيى محمد (ت 857هـ)، تحقيق الدكتور صلاح جرّار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، 1989م.

51. حضارة العرب، لوبون، غوستاف، ترجمة عن الفرنسية: عادل زعيتر، مطبعة الباني الحلبي، 1969

52. الحلّة السّيراء، ابن الأبّار القضاعي، أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت 658هـ) حقّقه وعلّق حواشيه الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربيّة للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، 1963م.

53. خيال الظِّلِّ، د. عبدالحميد يونس، الدَّار المصرية للتَّأليف والتَّرجمة، القاهرة، 1965م.

54. خيال الظِّلِّ: مسرح قبل المسارح الحديثة، الدكتور عبدالحميد يونس، (ضمن كتاب المسرح العربي بين النَّقل والتَّأصيل).

55. خيال الظِّلِّ وتمثيليات ابن دانيال، إبراهيم حمادة، المؤسسة المصريّة العامّة للتَّأليف والتَّرجمة والطِّباعة والنَّشر، القاهرة، 1961م.

56. الدرُّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، العامليّ، زينب بنت علي بن الحسين بن فوّاز (ت 1332هـ)، تحقيق منى زياد الخرّاط، مكتبة التَّوبة ومؤسسة الريّان، بيروت، ط1، 2000.

57. دول الإسلام، الذَّهبي، شمس الدين (ت 748هـ)، إدارة إحياء التُّراث، الدَّوحة، 1988.

58. ديوان ابن زمرك الأندلسيّ، مُحَمَّدٌ بن يوسف الصّريحي ابن زمرك، حقّق الديوان وقَدَّم له ووضع فهارسه الدكتور محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.

59. ديوان الششتري، تحقيق علي النشّار، الإسكندريّة، 1960م.

60. ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام، لسان الدِّين ابن الخطيب، دراسة وتحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر، الشَّركة الوطنية للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، الطَّبعة الأولى، 1973م.

61. ديوان ابن فُركون، أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي، تقديم وتعليق محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، الطّبعة الأولى، 1407 هـ/ 1987م

62. ديوان الموشَّحات الأندلسيَّة، تحقيق الدكتور سيّد عازي، منشأة المعارف، الإسكندريّة، 1979م.

63. الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الشنتريني، أبو الحسن عليّ بن بسّام (ت 542هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1978 -1979م.

64. الذَّيل والتَّكملة على كتابي الموصول والصِّلة، ابن عبدالملك المراكشي، أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن مُحَمَّدٍ الأنصاري الأوسي (ت 703هـ)، السّفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

65. الذَّيل والتَّكملة على كتابي الموصول والصِّلة، ابن عبدالملك المراكشي، أبو عبدالله مُحَمَّدٌ بن مُحَمَّدٍ الأنصاري الأوسي (ت 703هـ)، السّفر الخامس، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

66. رايات المبرّزين وغايات المميّزين، ابن سعيد المغربي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م.

67. رسائل ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن حزم القرطبي (456هـ/ 1063م)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنَّشر، بيروت، 1980م.

68. رسائل ابن عربي، محيي الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن علي الحاتمي (ت 638هـ)، جمعيّة دار المعارف العثمانيّة، حيدر أباد الدكن، 1367هـ/ 1948م.

69. الرّوض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، مُحَمَّد بن عبد المنعم، حقّقه الدكتور إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

70. ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، لسان الدِّين ابن الخطيب (مجلّدان)، حقّقه ووضع مقدّمته وحواشيه مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطَّبعة الأولى، 1980

71. الزُّرزوريات، نشأتها وتطوّرها في النَّثر الأندلسيّ، دكتور فوزي سعد عيسى، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة، 1990

71. زمان الوصل، د. صلاح جرّار، المؤسّسة العربيّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، 2004.

72. الزّهرات المنثورة، ابن سماك العامليّ، أبو القاسم مُحَمَّدٌ بن أبي العلاء مُحَمَّد بن سماك المالقي الغرناطي، دراسة وتقديم وتحقيق: الدكتور محمود علي مكّي، منشورات المعهد المصري للدِّراسات الإسلامية، مدريد، 1984م.

73. سير أعلام النُّبلاء، الذَّهبي، الإمام شمس الدِّين مُحَمَّدٌ بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسّسة الرِّسالة، بيروت، ط2، 1982.

74. شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهَب، ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (ت 1089هـ)، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979.

75. شعر ابن اللبّانة الدّاني، جمع وتحقيق الدكتور مُحَمَّد مجيد السَّعيد، جامعة البصرة، 1397هـ/ 1977م.

76. الشِّعر النّسوي الأندلسيّ أغراضه وخصائصه الفنّية سعد بوفلاقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

77. الشِّعر النّسوي في الأندلس، مُحَمَّدٌ المنتصر الريسوني، قَدَّم له العلّامة عبدالله كنون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م.

78. صلاة في أروقة الزَّهراء، د. صلاح جرّار، منشورات أمانة عمّان الكبرى، عمّان، 2003

79. الصِّلة، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت 578هـ)، الدَّار المصرية للتَّأليف والتَّرجمة، مصر، 1966م.

80. صلة الخلف بموصول السَّلف، الروداني، محمد بن سليمان (ت 1094هـ)، تحقيق محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988.

81. صلة الصِّلة، ابن الزُّبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير الثّقفيّ العاصميّ الغرناطيّ، تحقيق الدكتور عبدالسلام الهرّاس والشَّيخ سعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المملكة المغربية، 1993- 1995م.

82. الصيّب والجهام: انظر: ديوان الصيّب والجهام

83. طبقات الأطباء والحكماء، ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان الأندلسيّ، تحقيق فؤاد سيّد، مؤسّسة الرِّسالة، بيروت، 1985.

84. طبقات الأمم، صاعد الأندلسيّ (ت 462هـ)، نشره الأب لويس شيخو اليسوعيّ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912.

85. طبقات السّبكي = انظر: طبقات الشَّافعية الكبرى

86. طبقات الشَّافعية الكبرى، السّبكي، تحقيق محمود مُحَمَّد الطّناحي وعبد الفتاح مُحَمَّد الحلو، القاهرة، 1964- 1968.

87. عبّاس بن فرناس شاعراً، الدكتور صلاح جرّار، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد 38، السنة الرّابعة عشرة، 1990م.

88. العِبَر في خبر من غَبَر، الذَّهبي، شمس الدِّين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ)، حقّقهُ وضبطه أبو هاجر مُحَمَّدٌ السّعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985.

89. العِبَر وديوان المبتدأ والخَبَر، ابن خلدون، عبد الرَّحمن بن مُحَمَّد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1956 -1961.

90. العزُّ والرِّفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، لابن غانم الريّاش الأندلسيّ، ترجمه إلى العربيّة أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي، حقّقه: د. إحسان هندي، هيئة أبو ظبي للسّياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2013

91. العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين، الفاسيّ، الإمام مُحَمَّد بن أحمد الحسني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1988.

92. علم البيئة وفلسفتها، الدكتور أيّوب أبو ديّة، دار ورد الأردنيّة للنَّشر والتَّوزيع، عمّان، 2008م.

93. عنوان الدّراية فيمن عُرِفَ من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية، أبو العبّاس الغبريني، أحمد بن أحمد بن عبدالله، (ت 714هـ)، حقّقه وعلّق عليه: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الحديثة، بيروت، ط2، 1979م.

94. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، ابن أبي أصيبعة، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت

95. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السَّابعة، ابن سعيد المغربيّ، أبو الحسن عليّ بن موسى (ت 685هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، ط3، 1977م.

96. الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)، القاضي عياض (ت 544هـ)، تحقيق ماهر زهير جرّار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982.

97. فتح الأندلس، مجهول، دراسة وتحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة، الوكالة الإسبانيّة للتّعاون الدولي، مدريد، 1994م.

98. فتح الباري شرح صحيح البُخاري، ابن حجر العسقلاني، مكتبة دار الفيحاء، دمشق، ط3، 2000.

99. الفنون الشَّعبيّة في الأندلس الإسلاميّة، الدكتور صلاح جرّار، مجلة مؤتة للبحوث والدِّراسات، المجلد التَّاسع، العدد الأول، نيسان 1994م.

100. فهرس ابن عطيّة، للإمام القاضي أبي محمّد عبد الحق بن عطيّة المحاربي الأندلسيّ (ت 541هـ)، تحقيق مُحَمَّد أبو الأجفان ومُحَمَّد الزّاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.

101. فهرس الفهارس والأثبات، الكتّاني، عبدالحيّ بن عبدالكبير، اعتناء الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982.

102. فيضُ العُباب وإفاضةُ قِداح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قسنطينة والزَّاب، ابن الحاجّ النّميري، دراسة وإعداد الدّكتور محمّد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990

103. القاموس المحيط، الفيروز آبادي

104. قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبدالله بن نصر، ابن الحاجّ النميري، إبراهيم بن عبدالله الغرناطي، مخطوط رقم 5670 or. في المتحف البريطاني.

105. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، أبو نصر الفتح بن مُحَمَّد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت 529هـ)، حقّقه الدكتور حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردنّ، ط1، 1409ه / 1989 م

106. قوافل الحجِّ الأندلسيّة، د. صلاح محمّد جرّار، منشور ضمن كتاب: مواكب الحجِّ في التُّراث الإسلامي. دروس وعِبَر، وزارة الحجِّ، الرِّياض، ط1، 1433 ه/ 2012، ص 931 -971.

107. الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، عزّ الدِّين أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم محمّد الشّيباني، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1966.

108. كتاب التّأريخ، عبدالملك بن حبيب (ت 238هـ)، دراسة وتحقيق: خورخي أغوادي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ معهد التّعاون مع العالم العربي، مدريد، 1991م.

109. كتاب المُستغيثين بالله تعالى عند المهمّات والحاجات، ابن بشكوال (ت 578هـ)، دراسة وتحقيق: مانويلا مارين، المجلس الأعلى للأبحاث العلميّة/ معهد التّعاون مع العالم العربي، مدريد، 1991م.

110. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ابن الخطيب، لسان الدِّين، أعدّها وحقّقها: الدكتور إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، 1963

111. لطائف المنن في مناقب الشَّيخ أبي العبّاس وشيخه أبي الحَسن، تأليف العارف بالله ابن عطاء الله السّكندري، تحقيق الدّكتور عبد الحليم محمود، مطبعة حسّان، القاهرة، 1974.

112. اللّمحة البدريّة في الدّولة النّصرية، لسان الدِّين بن الخطيب، أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله السّلماني اللّوشي (ت 776هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978م.

113. المتجر الرَّبيح والمسعى الرَّجيح في شرح الجامع الصَّحيح، ابن مرزوق الحفيد، الإمام أبو عبد الله مُحَمَّدٌ بن أحمد بن مرزوق الحفيد التّلمساني (ت 842هـ)، دراسة وتحقيق د. حفيظة بلميهوب، دار التّنوير، الجزائر، ط1، 2010.

114. المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت 732هـ)، المطبعة الحسينيّة المصريّة، مصر، الطّبعة الأولى.

115. المسرح العربي بين النَّقل والتَّأصيل (مجموعة مقالات)، مجلّة العربي، الكويت، الكتاب الثامن عشر، 1988م.

116. مشارق الأنوار على صحاح الآثار في شرح غريب الحديث، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ)، قدّم له وخرّج أحاديثه إبراهيم شمس الدين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2002.

117. مشيخة ابن جمّاعة، أبو عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن إبراهيم بن سعدالله الكنانيّ الحمويّ (ت 733هـ)، تخريج علم الدين القاسم بن مُحَمَّدٍ بن يوسف البرزالي، تحقيق موفّق بن عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1.

118. مصارعة الثِّيران في الأندلس والمغرب، صلاح جرّار، منشور ضمن الكتاب التّذكاري عن فقيد العلم والتُّراث مُحَمَّد بن تاويت الطنجي، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للتَّرجمة، طنجة، 1997م.

119. المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ذو النّسبين أبو الخطّاب عمر بن حسن (ت 633هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، 1954

120. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبدالواحد المراكشي، تحقيق مُحَمَّد سعيد العريان ومُحَمَّد العربي العلمي، دار الكتاب، الدَّار البيضاء، الطَّبعة السَّابعة، 1978م.

121. معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ الرّومي، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.

122. معجم أعلام النِّساء= انظر: الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور

123. معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحمويّ الرّومي، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، 1979.

124. معجم السِّفر، السَّلفي، أبو طاهر أحمد بن مُحَمَّد، تحقيق د. شير مُحَمَّد زمان، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، ط1، 1988.

125. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت 914هـ)، خرّجه جماعةٌ من العلماء بإشراف الدكتور مُحَمَّد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

126. المُغْرب في حلُى المَغْرب، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن عليّ بن موسى (ت 685هـ)، حقّقه وعلّق عليه الدّكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1964م.

127. مفاخر البربر، مؤلّفٌ مجهولٌ، منشور ضمن كتاب «ثلاثة نصوصٍ عربيّةٍ عن البربر في الغرب الإسلامي» دراسة وتحقيق مُحَمَّد يعلى، المجلس الأعلى للبحوث العلمية، مدريد، 1996

128. المقتبس، ابن حيّان القرطبي، السّفر الثّاني، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: الدكتور محمود علي مكّي، ط. مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلامية، الرِّياض، 1424هـ/ 2003م.

129. المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

130 المقتبس (الجزء الخامس)، ابن حيّان القرطبي (-377 469هـ)، نشره: ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، وكليّة الآداب بالرباط، 1979.

131. المُقدِّمة، ابن خلدون، مؤسّسة الأعلمي، بيروت.

132. المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ)، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، ط1، 1359هـ.

133. نبذة العصر في أخبار ملوك بن نصر، مؤلفٌ مجهولٌ، تحقيق ألفريد بستاني، المغرب، 1946

134. نثير الجمان في شعر من نظمني وإيّاه الزمان، ابن الأحمر، الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، حقّقه وقدّم له: الدكتور مُحَمَّد رضوان الداية، مؤسسة الرِّسالة، بيروت، 1976م.

135. نثير فرائد الجُمان في نظم فحول الزَّمان، ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف (ت 807هـ)، دراسة وتحقيق مُحَمَّد رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

136. نزهة الجلساء في أشعار النِّساء، الإمام جلال الدين السّيوطي (ت 911هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عبداللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986م.

137. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (صفة المغرب وأرض السّودان ومصر والأندلس)، الشَّريف الإدريسي، ط. بريل/ لايدن/ 1968م.

138. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ابن الخطيب، لسان الدِّين (الجزء الثالث)، تقديم وتحقيق الدّكتورة السّعديّة الفاغية، مطبعة النَّجاح الجديدة، الدَّار البيضاء، الطَّبعة الأولى، 1989

139. نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب، المقّري، شهاب الدِّين أبو العبّاس أحمد بن مُحَمَّد التّلمساني (ت 1041هـ)، حقّقه الدّكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1968م.

140. نصوص من كتاب «طبقات الشُّعراء بالأندلس»، حرقوص، أبو سعيد عثمان بن سعيد الكناني الجيّاني (ت 320هـ)، جمعها وقدّم لها وحقّقها: الأستاذ الدكتور صلاح جرّار، مطبعة الجامعة الأردنيّة، عمّان، 2010م.

141. نهاية الأرب في فنون الأدب، النّويري، شهاب الدّين أحمد بن عبدالوهاب (ت 733هـ)، الجزء الثّالث والعشرون، تحقيق: الدّكتور أحمد كمال زكي، مراجعة: الدّكتور مُحَمَّد مصطفى زيادة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1980م.

142. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين، عنان، مُحَمَّد عبد الله، القاهرة، 1949

143. الوافي بالوفيّات، الصَّفدي، صلاح الدّين خليل بن آيبك (ت 764هـ)؛
الجزء الثاني، باعتناء س. ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1982
الجزء الرابع، باعتناء س. ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1982
الجزءان الخامس والسَّادس، باعتناء س. ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981
الجزء السَّابع، الطَّبعة الثَّانية، باعتناء إحسان عبّاس، دار النَّشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، 1981م.
الجزء الثَّالث عشر، باعتناء مُحَمَّد الحُجيري، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1984
الجزء الخامس عشر، باعتناء بيرند راتكه، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1979.
الجزء السَّادس عشر، باعتناء وداد القاضي، دار النشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، 1982.

144. وثائق في شؤون الحسبة في الأندلس مُستَخرَجةٌ من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسيّ، دراسة وتحقيق الدّكتور مُحَمَّد عبدالوهّاب خلّاف، القاهرة، 1985م.

145. وثائق في شؤون العمران في الأندلس -المساجد والدور- مُستَخرَجَةٌ من مخطوطة الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسيّ، دراسة وتحقيق الدّكتور مُحَمَّد عبدالوهاب خلّاف، القاهرة، 1983م.

146. وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، ابن خلكان، شمس الدِّين أبو العبّاس أحمد بن مُحَمَّدٍ بن أبي بكر (ت 681هـ)، حقّقه الدّكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1978.

147. ولّادة بنت المستكفي، الدّكتور صلاح جرّار، دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع، عمّان، 2011 م.

المصادر والمراجع الأجنبية

153. Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe During the Umayyad Period, El-Hajji, Beirut, 1970.

154. Encyclopaedia Americana, art. Bullfighting

155. Embajada del Emperador de Alemania Oton 1 al Califa de Cordoba Abderrahman 1, Paz y Melia, Antonio, Madrid, 1872.

156. History of the Arabs, Ph. Hitti, London, 1960

157. Encyclopaedia Britannica, art. Bullfighting, ed. 1966

158. The Conquest of Granada, Irving, Washington, 2 vols., New York and London, 1892

159. History of the Dominion of the Arabs in Spain, Condé, José Antonio, Translated from Spanish by Mrs. Foster, London, 1854-1855

160. History of Moorish Empire in Spain, S.P. Scott, Philadelphia and London, 1904.

161. The Splendour of Moorish Spain, Mc Cabe, Joseph, London, 1935



فهرس الموضوعات

تَقديمُ الأستاذ الدّكتور بشّار عوّاد معروف .....

مُقدِّمة .....

صور من مجتمع المعرفة .....

المحافظة على البيئة .....

سياسة اقتصاديّة متقدّمة .....

استعمال العَربات .....

الأندلسيّون ومصارعة الثِّيران .....

الأندلسيّون وخيال الظِّلّ .....

قُبَّةُ عبّاس بن فرناس الفلكيّة .....

الرَّقصُ على الحبال في الأندلس .....

الزُّرْزُور النَّاطق .....

استخدام المدافع والبارود في الأندلس .....

الحركة العلميّة في قرطبة في عصر الخلافة الأمويّة .....
ودورها في حوار الثَّقافات

شخصية المرأة الأندلسيّة الشَّاعرة .....
في السِّياق الحضاريّ الأندلسيّ

كريمة المروزيّة: شيخة علماء الأندلس .....
في مكّة المُكرَّمة في القرن الخامس الهجريّ

خاتمة .....

الحواشي والتعليقات .....

المصادر والمراجع .....

المصادر والمراجع الأجنبية .....